# الحب في زمن الثورة

الحب في زمن الثورة

هاني دعبس

رواية

غلاف : محمد عيد

تدقيق لغوى: محمد يحيى

مراجعة: محسن عبد الستار

جرافيك: محمد أحمد

رقم الإيداع : ١٣٢٦٦ /٢٠١٤

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣٠٠ - ٢

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١٤٤٥٥٢٥٥٧ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م

# الحب في زمن الثورة

هاني دعبس

رواية




دار اكتب للنشر والتوزيع



# إهداء

إلى أرواح:

عماد عفت

الحسيني أبو ضيف

محمد كريستي

محمد الجندي

ومَن سبقوهم ومَن لحقوهم



# فراق

إذا كانت الأرض لا تكف عن الدوران عندما يفارقها من نتنفس عشقهم، فإن حياة "سمر" توقفت منذ ذلك اليوم، وفي نفس هذه الساعة من العام الماضي، لتُحيي ذكرى موت أحلامها، وسط النداء الذي حاصر أذنيها طوال ٣٦٥ يومًا مضت، أو ٣٦٠ نهارًا ومساءً، إذا استبعدنا الأيام التي استهلكها المقربون لها يدعون الله أن تتحرك ملامح وجهها؛ الذي لم تغادره الابتسامة قط، بعد أن دخلت في سُبات عميق استمر ٥ أيام متواصلة، فارقت فيها روحها الحياة، أملًا في أن تلحق بروح صعدت إلى بارئها بلا عودة، ولم يتبق بداخلها سوى نبضات قاسية، تنعي الحلم الذي مات غدرًا دون مقتص.

مع كل غروب في العام الماضي، كانت "سمر" تعلق أملًا واحدًا مع آخر أشعة للشمس الراحلة، وهي ناظرة للسماء، متضرعة إلى ربها أن يجمعها في جنة الخلد بمن تتيقن أنه سيظل يحتل قلبها حتى نبضته الأخيرة، متذكرة آخر حوار دار بينهما؛ عندما نهرته بكل ما أوتيت من قوة للكف عن رمي نفسه في التهلكة، بعد اقتراب الموت منه كثيرًا، لتتوقف أنفاسها في كل مرة إلى أن ينجو بأعجوبة، وتعود بزفرة غضب قوية تنهاه عن تكرار الاقتراب

من الخطر، ذلك النهي الذي لم يستوعبه قط، إلى أن توقفت أنفاسه بلا رجعة، ليكتب بدمائه نهاية لعشقهما، وبداية لفراق أبدي.

نداء "الدنيا لا تقف على فراق أحد"، ظل يلهب أذني الحبيبة الثكلى طوال هذه الأيام، وسط نيران الشوق لساعات تعلم جيدًا أنها لن تعود مجددًا، إلا أن تلك الصيحة لم تجعلها تفكر يومًا في أن دقيقة قد تمر عليها، دون أن تجدد العهد الذي قطعته على نفسها قبل عامين مضيا، بأن تبقى امرأته مدى الحياة، مهما جاءت الدنيا بما يوقف سفن الأحلام عن الإبحار.

أما صديقات "سمر"، فلم يخرجن بأي انتصار من الحرب الضروس التي خضنها على مدار هذا العام، لإقناعها بأن فارسًا جديدًا قد يكون قادرًا على أن ينتزع قلبها من دوامة الذكريات، خاصة مع إصرار الحبيبة الثكلى على الغرق فيها يومًا تلو الآخر، إذ فشلت كل الخطط التي دبرنها – بهدف أن يخطف أحد قلبها – في أن تؤتي بأي ثمار، لتقضي صديقتهن أيامها القليلة بالقاهرة فى عزلة تامة داخل صومعتها الصغيرة، التى تخرج منها إلى شرفتها فقط، في الواحدة إلا الربع صباحًا؛ لتقف فيها نصف ساعة كاملة، تمثل لها الحياة الحقيقية على وجه البصيرة، وترتسم فيها ابتسامة عريضة على وجهها، تنسيها الحاضر وأوجاعه، بعد أن تسلط حدقتي عينيها أسفل تلك الشجرة، التي شهدت ميلاد قصة حبها الأول والأخير.

عذاب "سمر" طال كثيرًا، رغم أنها لم تعر بالًا لسخافات صديقاتها، اللاتي تعمدن في أحيان كثيرة إيذاءها بكلمات كانت تخترق أذنيها، قبل أن تقتحم صدرها وتدمي قلبها، كن يتحدثن عن الأمومة باعتبارها كنزًا لا

يفنى ولا يملك فاقده شيئًا، بل ويحرصن – خلال جلساهن القليلة معها – على أن تكون برفقتهن دوما إحدى المتزوجات، لتأخذ نصيبها في جلسات السمر النسائية من مدح "عش الزوجية"؛ الهادئ الخالي من منغصات الحياة، إلا أن ملامح هؤلاء الزوجات – وهن يحمدن الله؛ أنه كتب لهن رجالًا مثل أزواجهن – كانت سريعًا ما تكشف استماتتهن في إكساب حياهن اللون الوردي، كي يقنعنها بأن حياة أفضل تنتظرها إذا اتخذت قرار الزواج، مهما كلفهن الأمر اختلاق مشاهد خيالية؛ جمعتهن بأزواجهن في ربوع الحب الحالمة.

جلسات غش الزوجية – مثلما أسمتها "سمر" – لم تزدها إلا إصرارًا على التمسك بملامح ذكرياها، التي لوّنتها الأيام بجميع درجات الألوان، لتنهي ليالي حرماها القاسية دومًا بساعات من بكاء، كاد يفقدها بصرها، لولا خبرها الطبية التي دفعتها إلى إدمان "قطرة" هدئ توهج عينيها، وتمحو لون الدم الذي أطفأ بريقهما منذ يوم الفراق، إلا أها لم تفكر في أن هذا المستحضر الطبي سيرحمها من كم عواطف متناقضة بين العطف والغضب؛ والرقة والشدة، تحتل انفعالات والديها، عندما يرياها تطل عليهما بين الحين والآخر، بعينين حمراوين تخفيان لمعانًا تعوّدا أن يشع من حدقتيهما السوداوين، خاصة مع تيقنهما أن البريق المميز لعيني ابنتهما لم يختف وحده، إذ ذهبت معه ملامح عدة خاصمت وجهها يوم أن خاصم قلبها الحياة.

***

نار الفراق أحرقت ابتسامة الفتاة، عندما تعثرت خطاها في نصف عقدها الثالث، بحادث لن تنسى بشاعته إلا بالكف عن الشهيق والزفير، فمنذ صرخة خرجت من كيانها بوهج الحمم المتناثرة من البركان؛ وأفقدها وعيها لأول مرة في حياتها؛ تحجرت ملامح الوجه الشاب ذي الـ٢٤ ربيعًا، صاحبة البشرة البيضاء والعينين الكحيلتين الساحرتين، تاركة وراءها ضحكة كُتب لها الموت، بعد لحظات قليلة من خروجها للمرة الأولى من قلبها بإحساس ساحر، لم يجتح "سمر" من قبل، ولم تتوقع أنه سيتكرر أبدًا ما حيت، بحسب ما دونته في مذكرتها الصغيرة عن أحداث هذا اليوم الفارق؛ بعنوان "ضحكة بداية وصرخة نهاية".

السحر الذي لن يرتسم على ملامح صاحبة صرخة النهاية، إلا مرة ثانية في حياتها الطويلة، تحالفت قوى العشق كي تجعله يخترق كل أركانها، ليقتلع إحساسها من جذور قلبها، ويجمعه في كلمة واحدة، خرجت من شفتيها وسط حشد ليس قليلًا، في مثل هذه اليوم من العام الماضي، حيث شهد نحو ٣ آلاف شخص على عقد الحب الأبدي، الذي تم إبرامه بموجب هذه الكلمة، خلال مسيرات "جمعة الخلاص" من حكم الإخوان، التي انطلقت تزامنًا مع الذكرى الثانية لتنحي حسني مبارك، عصر ١١ فبراير ٢٠١٣، قبل أن يصمت صوت عاشقها للأبد، لتعيش أصعب أعوام عمرها، هذا العام الذي يوشك على الانتهاء الآن، مع نهاية أمسية الرثاء، التي بدأت مراسمها منذ ٦ ساعات مضت، لتستعد "سمر" لاستقبال عام ثانٍ دون "عمر"، وهي تعلم أنه سيمر مثل شبيهه المنصرم في وحدته وقسوته.

مع إعلان الساعة بداية اليوم الأول في عام جديد من العزلة، لم تعلم "سمر" لماذا تذكرت جلستها الصغيرة مع العجوز، الذي لم تره مرة أخرى بعدما حملها أمانته، ولَم احتلت ابتسامته الأخيرة التي ودّعها بها - وهي تخرج من عنبر مستشفى قصر العيني- ذاكرتها في تلك الليلة.

كانت "منى" قد ودّعتها على باب منزلها بذات الكلمات التي تسمعها إياها مع نهاية كل ليلة حزينة، قالت لها كالعادة: "الدنيا لا تقف على شخص"، لترد صديقتها في انفعال تام: "قلت ألف مرة إن هذا الشخص هو دنيتي وعالمي"، قالت "سمر" كلماتها والغضب يمسك بالدموع التي تتسابق لإغراق جفنيها، ثم تركت صديقتها على درج المنزل مغلقة الباب وراءها، وأسرعت إلى غرفتها؛ حتى لا يرى والداها عينيها الذابلتين، لتدخل في نوبة البكاء المعتادة قبل خلودها للنوم، وتنهمر دموعها على الوسادة التي تبقت لها من حطام حبها الضائع.

بعد أيام قليلة من استشهاد "عمر"، طبعت العاشقة الباكية صورته على صدر الوسادة، لتضمها إلى صدرها كلما اشتاقت لحضن دافئ، لم تشعر به سوى مرتين، استغرقت إحداها نحو ٥ دقائق، خاطر فيها "عمر" بحياته؛ عندما ارتمى فى صدرها خلال أول لقاء جمعهما، لتبدأ قصة عشق لم تنته بانقضاء عمره، ولم تُخمد نيرانها في قلب "سمر" حتى الليلة التي تعيشها الآن، متدثرة بالوسادة من رياح شوق عاتية تضرب أركانها، وتزيد من سرعة دموعها الجارية على خدها الشاحب، لتنساب على ملامح "عمر" في صورته المطبوعة، حتى ينقذها ذهنها من هذه النوبات، بتذكيرها أن دموعها تؤذي عاشقها في العالم الآخر.

تحركت أصابع "سمر" سريعًا؛ لتمحو برفق دموعها التي تساقطت على الوسادة، قبل أن تمتد لتجفف خديها، وعيناها تتجهان إلى المذكرة الصغيرة، التي تلونت بحبر أسود قاتم، وجدته العاشقة مناسبًا للون حياتها بعد فراق "عمر"، ورغم أن كلمات العالم لم تكن كافية لوصف ما بداخلها من أوجاع، لكنها أصرت على أن تدوّن عدة جُمل مقتضبة، كتبت: "حبيبي عمر.. مازلت أتنفس عشقك.. أعيش على أمل اللقاء.. لا تلُمني على دموعي.. أعلم أنها تؤذيك.. لكنك تعلم كيف تمر أيامي بدونك.. تعلم أيضًا أنني أكره أنفاسي كلما خرجت دون أن تختلط بأنفاسك.. سأظل على عهد حبي.. حتى تتحد أنفاسنا من جديد.. مثلما وعدتني قبل أن تنهار مملكة عشقنا".

أغلقت "سمر" المذكرة في لمح البصر بعد كتابتها هذه الكلمات، لم تكن تخشى فقط عودة دموعها لتغرق الأوراق من جديد، بل نبهها هاتفها إلى موعد نصف الساعة المقدسة، في الواحدة إلا الربع صباحًا، لتخرج من غرفتها قاصدة الشرفة، وتبدأ طقوسها المعتادة، حتى تسمع صوت "عمر" في مقطع واحد حوى كلماته وضحكاته، قبل أن يوقفها الرصاص للأبد، وسرعان ما حدقت العاشقة كعادتها أسفل تلك الشجرة، التي تقابل منزلها من الجانب الآخر للشارع المتسع، الذي تحول إلى ساحة حرب تدور معاركها – أسبوعيًا وربما يوميًا – بين أعضاء تنظيم الإخوان الإرهابي وقوات الأمن في أرقى مناطق مدينة نصر.

هذه الشجرة، طالما حملت أماني وأحلام "سمر"، إذ كانت تركض حولها في طفولتها مداعبة صديقة عمرها "منى"، التي كادت تفقد حياتها في أحد

الأيام، عندما هوى فرع كبير تاركًا جذوره في بضع ثوانٍ، نجحت فيها صديقتها في جذبها لمسافة متر، كان كفيلًا بإنقاذها من إصابات بالغة، ليسقط الفرع على سيارة كانت تمر بالصدفة، محطمًا الجزء الأمامي منها، وتبدأ صداقة نادرة جمعت الصغيرتين منذ نعومة أظافرهما حتى نضجهما الأنثوي الكامل، ولو أنها تقلصت مع الشهور الأولى من العام الماضي، بعد قتل "عمر"، وسفر "سمر" للعمل في مطروح، وزواج "منى" لتنهي عملها كمدرسة، وتتحول إلى ربة منزل.

كانت "سمر" تُشرف بنفسها على تقليم فروع تلك الشجرة كلما عادت إلى القاهرة، وتراقب أوراقها التي ينزعها الخريف بألم بالغ، واجدة فيها صورة مجسمة لأحلام نزعها القدر في الشتاء الماضي، ومع كل ورقة تتساقط، تتألم الواقفة بالشرفة؛ متذكرة أملًا أسقطته عاصفة الألم، التي اجتاحت قلبها لتحول عمرها إلى خريف دائم، سيظل يقتلع أحلامها إلى ما لا نهاية.

***

"حبيبتي.. أنا تحت الشجرة"، كلمات تضمنتها رسالة خاطفة وصلت إلى هاتف "سمر" في الساعة الأولى من صباح ٣٠ يناير ٢٠١٣ – قبل ١٢ يومًا من سقوطه في دمائه – ليسابق قلبها قدميها الراكضتين نحو الشرفة، في الواحدة إلا الربع صباحًا، حيث كان وجود "عمر" مفاجأة من أثقل عيار، خاصة أنه سافر منذ أسبوعين إلى سيناء؛ بحثًا عن عمل جديد ينتظره هناك، بعد أن قضى ٣ أعوام كاملة يجوب شركات التعدين والأسمنت حتى يستكمل مشواره الجيولوجي، رأى فيها كيف تُباح خيرات الوطن أمام

القراصنة؛ لينهبوا منها ما يشاءون، ولم ييأس خلالها من التنقل بين المراكز البحثية الحكومية، سعيًا وراء وظيفة "باحث ثالث"، التي جاهد للحصول على درجة الماجستير سريعًا؛ كي تكون له أولوية التعيين فيها.

كان عشقه لـــ"سمر" يدفعه دومًا إلى السعي لحياة أفضل تجمعهما، ويمسك بصبره النافد أمام كم اللامبالاة، الذي يعامله به مسئولو تلك المراكز، عندما يقلبون أوراق تخرجه بعدم اكتراث، حتى يروا شهادة كلية العلوم، التي تخرج فيها بامتياز مع مرتبة الشرف متصدرًا قائمة العشرة الأوائل، ليسألوه السؤال المعتاد عن سر عدم تعيينه معيدًا بالكلية، ذلك التساؤل كانت له إجابة اعتيادية أيضًا عند "عمر"، هي: "نجل عميد الكلية كان أولى بالطبع"، عندها يمسك هؤلاء المسئولون بأوراقه ليدخلوها أدراج مكاتبهم، قبل أن يطالبوه بالمرور عليهم بعد عام قادم، ربما تكون وظيفة شاغرة في انتظاره!

منذ أحداث الاتحادية الأولى التي اندلعت – في الأسبوع الأول من ديسمبر ٢٠١٢ – على خلفية إعلان دستوري أصدره محمد مرسي، رئيس مصر إبان حقبة الحكم الإخواني، لم تلتقط أذنا "سمر" نبرة سعيدة فى صوت حبيبها، بعدما أضربت أوتاره الصوتية عن عزفها، تزامنًا مع رؤيته الدماء تغرق الشوارع المحيطة بالقصر الرئاسي، عندما خرج رافضًا ما وصفه بالانقلاب غير الدستوري الهادف إلى إعادة مصر لعصر الملكية، فبمقتضاه أضفى "مرسي" على قراراته سمات الإلهية، حيث أصبحت لا تقبل الطعن أو الوقف أو حتى الجدل حولها، لتشتعل المظاهرات المناهضة لحكم الجماعة، ويسقط فيها ٧ شهداء.

تلك النبرة اختفت برؤية "عمر" للصحفي المناضل الحسيني أبو ضيف يتهاوى على الأرض، بعد رصاصة غادرة أطلقتها ميليشيات الإخوان، لتستقر في رأسه، قبل أن يحطم القتلة كاميرا الشهيد، التي وثّق بها جرائمهم، ليدخل الشاهد على الجريمة في صدمة قاتلة، ويظل مكتئبًا نحو شهر قبل سفره إلى سيناء.

نبرة الفرحة العائدة إلى صوت "الجيولوجي" – بعد اختفاء طويل – زيّنت معاني الاشتياق، التي ترجمها لسانه إلى كلمات عدة، قالها بحس مرهف، واصفًا غربة موحشة قضاها بعيدًا عن صوت "سمر"؛ الذي يعزف على أوتار حياته سعادة وبهجة، وساردًا أحلامًا رآها في يقظته عن أميرة جميلة تزين قصره الصغير في أرض الفيروز، ومتحدثًا عن لمسة حانية ليده كان يشعر بها كلما أمسك بصورة جمعت أيديهما قبل عام مضى، حرص على طباعتها بالحجم الكبير، بعد أن التقطت لهما أعلى جبال سيناء، مع شروق يوم حبهما الأول، تتلاقى فيها أناملهما في المنتصف؛ ليرسما قلبًا باستخدام إبهاميهما المتلامسين في الأسفل، وسبابتيهما الملتقيتين من أعلى، وفي الفراغ ينظر الرائي ليشاهد قوس الشمس الصاعد بين السحب الممتدة في السماء الزرقاء.

استغرق "عمر" عدة دقائق يتحدث فيها عن الظمأ، الذي أسقمه شوقًا وحنينًا لضحكة "سمر" الملائكية، وعذابه الذي بدأ بوصوله إلى إحدى المناطق الجبلية الوعرة، بعد ساعة من التغلغل في صحراء سيناء، انتهت بخروج هاتفه من تغطية شبكات المحمول، ليُصدم بمفاجأة، فالجيولوجي

سيقيم ١٥ يومًا في معتقل موحش يُحرم فيه من صوت عاشقته الحاني، وإن كان قد توقع تلك المأساة؛ عندما حصل على إحداثيات هذا الموقع، في رحلة – عن بُعد – رأى فيها تفاصيله عبر أحدث برامج الأقمار الصناعية، التي يقتنصها من مواقع وكالات الفضاء العالمية على الإنترنت، إلا أنه لم يتخيل أن القدر سيحول توقعاته إلى واقع مرير، شاكرًا الله على المعلومة التي قالها لــ"سمر" حتى تأخذها بعين الاعتبار، لتتوقف عن قلقها القاتل الذي يطارده ويحاصره؛ إذا وجدت هاتفه خارج نطاق الخدمة.

في الدقائق الــ٢٣ الباقية من أصل ٣٢ دقيقة سجلتها "سمر" عبر هاتفها الذكي بناء على طلب "عمر"، استغل الحبيب المشتاق هدوء المنطقة ليرسل قبلة في الهواء، علها تقترب من أنفاسها، قبل أن يطالب حبيبته بالبدء في تسجيل مكالمتهما؛ إيذانًا ببدء مقطوعة غناها بين الرمال الساحرة، بصوته الذي أهّله لنهائيات مسابقات الجامعات، على أنغام "شبابة" صديقه البدوي الجديد، وهي تشدو عبر أنبوبتها المُجَوّفة، المصنوعة من بوصة طولها يقل عن نصف متر ذات ثقوب ستة، ألحانًا بصوت الحنين والأشواق، خففت عليه ساعات طويلة، قضاها محاولًا ترجمة ما بداخله في فقرات نثرية، تصف الحب المتأجج في داخله إلى حد الاشتعال، وترسم ملامح أميرته الجميلة بالحروف في كلمات حب أبدية، لن تمهلها الأيام الخروج إلى النور.

كانت "سمر" تسمع يوميًا ما يحويه هذا المقطع النادر لــ"عمر"، من كلمات عشق لم تعد تسمعها كثيرًا، في زمن انعدمت فيه قيم الحب الطاهرة، وطغت شهوانية الجسد على مشاعر القلوب، وكثرت فيه شكوى

النساء من قسوة الرجال وإهمالهم الرومانسية، باعتبارها كنزًا أفناه أنطونيو وقيس وعنترة وروميو في أزمنة لن تعود، لتتذكر باقة الورد التي نزع حبيبها الراحل شريطها الأحمر من خصرها، حتى يكتب بأغصانها كلمة "أحبك" على العشب الأخضر الذي يحاصر جذع الشجرة، في مشهد يتذكره كل عابر لشارع مصطفى النحاس، في الواحدة والربع من صباح هذا اليوم الجديد.

***

"سمر" أمضت وقتها المقدس في هذه الليلة الفريدة من نوعها، إلا أنها أضافت إليه ١٠ دقائق أخرى، وقفت فيها تتأمل ذكريات عام مضى دون "عمر"، وسنة فراق جديدة تطرق الأبواب، معلنة استمرار حداد مشاعرها، وبداية معارك جديدة حتى يتحقق حلم القصاص لدمائه من قتلة أهدروها بدم بارد، وسط تصاعد حمم بركان تُلهب قلبها، وتتناثر لتُحرق مَنْ حولها أحيانًا، عندما يضيقون عليها الخناق محاولين إقناعها بأن تمنح قلبها فرصة أخرى للحياة.

ضمت الحبيبة الثكلى هاتفها بين راحتيها، قبل أن تغلق نوافذ الشرفة وتسير بهدوء حتى لا توقظ والدها، التي اقتنصت فرصة دخول ابنتها إلى صومعتها، حتى تزيل آثار سرادق العزاء المصغر، الذي توافدت عليه صديقات "سمر" المقربات، وزميلاتها بالمستشفى الجديد الذي انتدبت إليه مؤخرًا بعد رحلة مضنية، بدأتها في أحد مستشفيات مرسى مطروح، عقب انتهاء سنة الامتياز بقصر العيني واستلامها خطاب التكليف، وتعلمت منها الكثير، إذ تيقنت أنه لا فارق بين المريض والطبيب في مستشفيات الدولة

من حيث المعاناة الإنسانية، مثلما لا يوجد اختلاف بين مرضى وأطباء المستشفى الخاص من حيث الرفاهية المعيشية.

تحسست الابنة خطاها، علها تنجح في عبور الطرقة الطويلة؛ التي تمتد بين غرفة الاستقبال الكبيرة وحجرتها، وتغلق باب صومعتها دون أن توقظ والدتها، التي تعاني من أرقٍ لا ينتهي، أصيبت به منذ احتلال البكاء لياليِ ابنتها، حيث كانت تذهب إلى صومعتها الصغيرة على صدى نحيبها، لتضمها في أحضانها وتُربت على كتفها واضعة يدها الأخرى على شعرها، محاولة تهدئتها بكل الطرق والكلمات، ولا تنهض الأم "سلوى" عائدة إلى سريرها لتغمض عينيها دقائق معدودة، حتى يملأ النحيب أرجاء صومعتها من جديد، لتعود مرة أخرى إلى غرفة ابنتها، وتقرر بعد ذهاب وإياب متعدد، أن تضمها إلى صدرها حتى الصباح، دون أن تُغمض أعينهما.

في هذه الليالي القاسية، سردت "سلوى" لابنتها حكايات من زمن الحب الجميل، لأناس خلقوا على الأرض، ظلوا يضحون بأعمارهم حتى كلّ الزمن؛ من إصرارهم على حماية عشقهم مهما كان الثمن، ليكتب الله لهم عشقًا أبديًا في العالم الآخر، بلا دموع وبلا أوجاع، إلا أن قصة واحدة لم تشأ الأيام أن تنسيها لـــ"سمر"، بطلتها امرأة من النادرات اللاتي يأتين إلى العالم ولا يرحلن منه، حتى إن صعدت أرواحهن إلى بارئها، تلك القصة التي صبرت فيها "أم أحمد" على كوارث الزمن، حتى جعل الله الطبيبة الشابة سببًا في كتابة نهاية أسطورية لعشقها، على أروع شواطئ مصر.

***

# لقاء مؤجل

قبل عامين، التقى العاشقان للمرة الأولى، كانت "سمر" تقضي سنة الامتياز بكلية طب قصر العيني، عقب ٦ سنوات عجاف، أدركت فيها حجم الإهمال الكافي وحده لإنهاء حياة المرضى، وعاشت خلالها عدة مواقف يأبى عقلها نسيانها، تيقنت منها أن دماء المصريين لا تعني كثيرًا لمسئولي الحكومة، الذين يغلقون على أنفسهم المكاتب الفاخرة، ويصدرون التصريحات النارية لتأكيد صيانتهم حقوق أبناء وطنهم الغالي، في الوقت الذي ترى فيه الطبيبة الشابة عشرات المرضى يلفظون أنفاسهم أسبوعيًا، دون ذنب سوى التباطؤ في إنقاذهم، منهم من وصل المستشفى غارقًا في دمائه إثر حادث مأساوي؛ مات فيه ١١ شخصًا على طريق للموت تُرك بلا إضاءة، إلا أن مسئول بنك الدم أبى أن يمده بما تحتاجه شرايينه الفارغة دون مقابل، ليكون الضحية الثانية عشرة للحادث، بعد ساعتين قضاهما في غرفة الاستقبال، منتظرًا دوره بين ٨ حالات طارئة للعرض على الطبيب المقيم الوحيد بالمستشفى، بعد منتصف الليل في أغسطس، أشد أشهر الصيف كثافة ومرحًا.

بين عنابر مستشفى قصر العيني، رأت "سمر" مآسي فادحة الكآبة والغرابة، كانت تتابع المرضى لمدة ٦ ساعات متواصلة يوميًا، تبدأ في التاسعة صباحًا، وتقضيها متنقلة بين العيادات الخارجية للمستشفى، قبل انتهاء فترة الامتياز، ليجتاحها استياء بالغ مرات عديدة، وهي تقارن بين حال المستشفى الذي كُتب لها اكتساب خبراتها العلاجية العملية عبر عنابره، وما يحويه قصر العيني الفرنساوي، الذي يفصل بينه وبين الطرقات التي تركض فيها يوميًا؛ كوبري صغير على فرع النيل يربط المنيل بالكورنيش، آخذة في الاعتبار الفرق الشاسع بين الأجهزة الطبية والتكنولوجيا العلاجية وغرف المرضى في المستشفيين، إذ يكفي الفرق بين عنابر المستشفى المجاني بالمنيل، الذي يضم ٤٠ سريرًا للمرضى بحمام واحد، أما "الفرنساوي" أو "الاقتصادي" فيضم حجرات مكيفة بداخلها سريران فقط وربما ثلاجة بخلاف الحمام!

تلك المقارنة لم تجعل الطبيبة الشابة تنتقص من حق المرضى المقتدرين في علاج أفضل يتولون نفقاته، إلا أن فارق السماء والأرض بين المستشفيين، جعلها توقن أن المواطن البسيط أيضًا يحتاج علاجًا آدميًا في أماكن تصلح لمرضى البشر، وليست عنابر تركض فيها القطط وراء الفئران دون رادع، نوافذها متروكة بلا زجاج غير رحيمة بالمرضى من الشتاء القارس، يُقدم فيها الطعام على طبق حديدي كبير، لا يستطيع من يراه التفرقة بين الأرز والفاصوليا، بعد إعداده في مطبخ متسع تجد فيه القطط ملاذًا آمنًا للهروب من مطاردة المرضى والممرضات.

***

لا تنسى "سمر" عجوزًا ظل يتألم في الساعات الممتدة من الصباح حتى الظهيرة، منتظرًا إجراء عملية جراحية لاستئصال ورم خبيث أصاب عموده الفقري، بعدما تركه أحد أساتذة الجراحة العامة في كليتها، كي يهرول مسرعًا لإلقاء محاضرة خاصة، في عقار فخم بمنطقة المنيل، حوّل أصحابه طوابقه الخمسة الأولى إلى قاعات محاضرات لعدد من كبار أساتذة الطب والصيدلة، ممن كانوا يذهبون إلى كلياهم فقط لجلب طلبة جدد يدفعون آلاف الجنيهات، ليحصِّلوا العلم المفترض بالأصل أن يكسبه لهم ذات الأساتذة داخل الكليات، إلا أنهم وجدوا في المحاضرات الخاصة سبيلًا لجمع ثروات طائلة، لن يجمعوا واحدًا بالمائة منها إذا بُحت أصواهم داخل مدرجات الكليات طوال ٤٠ عامًا متواصلة، ليقرروا أن يجعلوا من طوابق هذا العقار كليات لحسابهم الخاص، يدرِّسون فيها للطلاب ذات المناهج التي تقرها الجامعات في إطار ترسيخ مجانية التعليم!

هذا العجوز مكث بأحد عنابر المستشفى ٤ شهور كاملة، حتى تُجرى له تلك العملية في ظل وجود ١٢٠ حالة مماثلة، ملأت أسماؤها قائمة انتظار طويلة قبل دخولها غرفة العمليات، ورغم معاناته القاسية، سعى الحاج محمد الأبيض – الذي كان يحرص على لقب "الحاج"، باعتباره أفضل إنجاز حققه في حياته – إلى كسب ود الطبيبة الشابة، التي تشبه ابنته إلى حد كبير، بل وتجسد شخصيتها في عينيه أحيانًا، وهو يراها تتابع حالته وتقضي على أوجاعه شبه الدائمة بإخلاص منقطع النظير، وكأنها ترعى والدها، لينتظر قدومها صباحًا ويناديها في أحد الأيام، مطالبًا إياها بالجلوس إلى جواره، باذلًا كل ما في وسعه لرسم الابتسامة على ملامحها الصغيرة.

يومها، أزاح "الحاج محمد" وسادته التي اكتسبت لونًا داكنًا، بسبب إهمال مشرفات العنبر في تغيير مفروشات الأسرة، ليتركنها مأوى للفطريات، ومن أسفل الوسادة، التقط العجوز صورة من المقاس الكبير، يظهر فيها شاب ضاحكًا رافعًا يده إلى السماء لالتقاط طفلة تطير لتوها في الهواء فاردة ذراعيها، وعلى وجنتيها ضحكة بريئة زينتها ملامحها الطفولية، ليضع "المريض" الصورة أمام عيني الطبيبة الشابة، ويبدأ في سرد ذكريات هذا اليوم الرائع، الذي جمعه بابنته "غادة" في مزرعته الكبيرة، قبل أن تبدد الأيام أمواله ومعها صحته، وبالفعل، جاء مفعول الصورة الملونة بابتسامة الطفلة، ونظرات الأبوة الحانية، والزراعات الخضراء الممتدة إلى مدى غير مرئي، كالسحر على ملامح "سمر"، حيث قابلتها بابتسامة حانية، أراحت كثيرًا من آلام العجوز.

وضع "الحاج محمد" أمانة على عاتق "سمر"، وهو يشعر بأن نهايته قد اقتربت، لتظل الطبيبة الشابة تقاتل من أجل الوفاء بها أشهرًا عديدة، إلى أن ساعدتها صديقتها "منى" بعد معركة طاحنة، جمعت حاملة الأمانة مع عضو هيئة تدريس في كلية الآداب، دأب على التحرش بـــ"غادة" لمسًا وهمسًا، إلى أن جعلها تكره دراستها، وتمتنع عن دخول أبواب كليتها، لتجيء إلى والدها يوميًا ترثي مستقبلها المهدد بالضياع، إلا أنها سريعًا ما عادت إلى مسارها، بفضل تحالف "سمر" و"منى" ضد المدرس المتحرش.

***

مع تذكرها كلمات "الحاج محمد" الأخيرة – التي قالها لها بابتسامة صافية قبل ١٦ شهرًا و٤ أيام – كانت "سمر" قد نجحت في الوصول إلى

سريرها، بعدما أغلقت الباب، كاتمة أنفاسها لوقاية والدها من قلق الأرق، لتعيد ترتيب أفكارها المبعثرة في ذهنها غير الصافي، وسط حصار هواجس عدة، تمنعها من إنهاء ليلتها المؤلمة، وتجعلها تحسب بالساعات ما تبقى على احتفال عيد الحب العالمي المقبل، الذي سيعلن فيه عشاق العالم تحدي قلوبهم مصاعب عام ٢٠١٤، مهما هددت قصص حبهم الملتهبة، خاصة أنه تبقت ساعات قليلة على بزوغ شمس ١٤ فبراير، هذا الشهر الذي تقضي العاشقة المعذبة الساعات الأولى من بداية يومه الثاني عشر الآن، وهي ترثي حبها الضائع.

كلمات العجوز جعلت "الطبيبة الشابة" تتذكر المفاجأة، التي بعثت البهجة في عيون مرضى العنبر، تزامنًا مع انتهائه من سرد قصة معاناة ابنته "غادة" مع المتحرش، عندما عبر "عمر" باب العنبر حاملًا بين يديه ٤١ باقة ورد صغيرة، اشتراها من بائع الورود المقابل لأبواب قصر العيني، حتى يبدأ احتفالًا جماعيًا بعيد الحب المصري، الذي حدد الكاتب الكبير مصطفى أمين يوم ٤ نوفمبر موعدًا له، حتى يُحيي المصريون نبضات قصص عشقهم الأزلية.

لم تكن باقات الورد التي حرص "عمر" على توزيعها بابتسامة عريضة على المرضى واحدًا تلو الآخر، هي الشيء المميز الوحيد في صباح هذا اليوم، ٤ نوفمبر ٢٠١٢، قبل أن يحتفل العاشقان بعيد الحب المصري الأول الذي جمعهما، بعد ٣٥١ يومًا من لقائهما الأول مساء يوم ٢٠ نوفمبر ٢٠١١، هذا اليوم الدامي الذي لا تنسى "سمر" ساعات عصيبة منه، قضتها بين دوي طلقات الخرطوش وأدخنة قنابل الغاز في ميدان

التحرير، بعدما اشتعلت الأحداث في شارع محمد محمود، عقب خروج شباب الثورة منادين بسرعة نقل السلطة من المجلس الأعلى للقوات المسلحة - الذي كان يحكم البلاد في هذا الوقت - إلى رئيس وحكومة مدنية منتخبة.

احتفال "عمر" الجماعي، انتهى بدعاء المرضى للعاشقين، بأن يعيشا عمرهما في سعادة وبين ذرية صالحة يرزقهما الله بها، لتحاول "سمر" بعد هذا الدعاء السيطرة على خجلها، الذي أضفى على خديها احمرارًا بالغًا، وتتقدم خطاها نحو "عمر"، لتمسك بيدها باقة الورد الأخيرة، التي تبقت بعدما حصل مرضى العنبر على نصيبهم كاملًا، وقتها كانت المفاجأة لا تزال تسيطر على الطبيبة الشابة، لكن ليس بقدر شغفها البالغ على معرفة ما تحويه تلك اللفافة الحمراء الكبيرة للغاية، التي تركها "عمر" إلى جانب الباب، قبل أن يجمع باقات الورد من يدي عامل محل الورود، الذي عاونه في حملها حتى مدخل العنبر.

وللسيطرة على خجلها وشغفها، دعت "سمر" حبيبها ليعود بصحبتها إلى جوار سرير "الحاج محمد"، بعدما ضحك "عمر" كثيرًا من تعليقات مرضى العنبر على عيد الحب، خاصة أن بعضهم كان يستلقي على الأسرة وبجوارهم زوجاتهم، اللاتي تابعن لحظة التقاط الطبيبة ورود عاشقها باهتمام بالغ، كي ينسين تعليقات أزواجهن على الفارق بين عيد الحب قبل الزواج وبعده، حيث قال أحد هؤلاء المرضى: "إن الحب يشبه نجمة عالية في السماء، يظل العشاق ينظرون إليها غير مبالين بما تحت أقدامهم، بينما يشبه الزواج الحجارة التي يتعثر بها هؤلاء العشاق، وهم ينظرون إلى هذه النجمة العالية، ليسقطوا، مقررين ألا ينظروا ثانيًة إلى السماء للأبد"!

أخذ الجيولوجي العاشق عبرة من هذا التشبيه، ثم قال لـــ"سمر" باسمًا: "لا تنسي أن الحجارة لعبتي الأولى.. سنظل ننظر إلى السماء دون أن تتعثر خطواتنا"، قال ذلك وهو يصافح "الحاج محمد" ويستعد للجلوس بجواره، على الكرسي الصغير الذي نجح العجوز في توفيره بأعجوبة، عبر أحد الباعة الجائلين الذين يجوبون العنبر بين حين وآخر، باحثين عن مشترين لبضائعهم من أقمشة وملابس وأطعمة أحيانًا، إذ طالبه بإحضار عدة قطع خشبية وعدد من المسامير الصغيرة، على أن يصنع العجوز من أقمشة البائع مجلسًا مبطنًا يجمع قطع الخشب بعد ربطها بالمسامير؛ كل ذلك كي يوفر مقعدًا لابنته "غادة"، التي كانت تضطر إلى الجلوس بجواره على سريره طوال ٣ ساعات تزوره فيها يوميًا، تقضيها في بكاء متقطع وهي تشكو الظلم الواقع عليها من المدرس المتحرش وليد شاكر.

***

أعادت "سمر" بعضًا مما سرده "الحاج محمد" على مسامع "عمر"، حكت له كيف استدرج "المتحرش" الطالبة المتفوقة إلى مكتبه، بعد أن عنّفها في قاعة المحاضرات، مستغلًا حديثًا جانبيًا جمع "غادة" بزميلتها الجالسة إلى جوارها، كانت تسألها فيه عن المحاضرة الأخيرة لذات المدرس، التي لم تحضرها بسبب دخول والدها للمستشفى، ليجد المتحرش من هذا الحديث الجانبي سببًا في أن يسحب إثبات شخصيتها الجامعية، قبل أن يطالبها بالحضور إلى مكتبه بعد انتهاء المحاضرة، لتحدث الكارثة غير المتوقعة.

القصة المقتضبة التي سردتها الطبيبة، لم تفاجئ "عمر" كثيرًا، رغم أنه قابلها باستياء شديد تجلّى في ملامحه، قبل أن يحكي واقعة مشابهة، تعرضت لها إحدى زميلاته في كلية العلوم، لتضيّع عامين من عمرها في رسوب مستمر، بعد أن قابلت تحرش أحد الأساتذة بها برد فعل شديد، لتلقنه درسًا أمام نصف طلبة الفرقة الثالثة في معمل الكلية، انتهى بصفعة قوية ألهبت وجه أستاذ الحفريات، الذي تعمد إبقاءها عامين إضافيين على ذمة النجاح في مادته، رغم حصولها على تقدير امتياز في باقي المواد، ورغم ركضها أيضًا إلى مكاتب مسئولي الجامعة، بحثًا عن منقذ لها من تعنت الأستاذ غير الفاضل، لكن سعيها لم يسفر عن ثمة شيء يذكر، إلى أن قضى الله أمرًا كان مكتوبًا، ليلقى الأستاذ مصرعه في حادث سيارة، وتتخرج مؤخرًا في الجامعة وعمرها ٢٤ عامًا.

أنهى "عمر" حديثه مطالبًا "سمر" بأن تدوّن رقم هاتف "غادة"، عسى أن يجدا حلًا لمأساتها، وهو ما فعلته الطبيبة بعدما أخرجت هاتفها من معطفها الأبيض، مناشدة "الحاج محمد" أن يتذكر رقم ابنته، لتستخلصه في النهاية من بين متاهة أرقام، تلعثم بها المريض، قبل أن تنظر إلى حبيبها وهي تستقيم، تاركة سرير العجوز، لتعلن انتهاء الوقت المخصص للعمل، حيث اتفقت مع زملائها الأطباء على قضاء ساعتين فقط بالمستشفى، حتى تفاجئ "عمر" بقضاء ساعات إضافية برفقته في "الفلانتين"، وهي المفاجأة التي أبطل العاشق مفعولها بباقات الورود، التي ملأت العنبر دون سابق إنذار.

شكر "الحاج محمد" العاشقين على اهتمامهما بمأساة ابنته، قبل أن يقول الجملة التي حاصرت أذني "سمر" لأكثر من عام، قال لهما: "حب الدنيا كله

لا يمثل ذرة واحدة إذا كتب الله لكما اللقاء في الآخرة"، هذه الجملة كان لها فضل كبير في رسم أمل أسمى داخل قلب الطبيبة الشابة، عاشت عليه ليالي طويلة تحلم بجنة الخلد التي تجمعها بعاشقها في العالم الآخر، رغم اشتعال غيرتها من الحور العين اللاتي وعد بهن الله الرجال المؤمنين في جناته، تلك الغيرة تغلبت عليها العاشقة الثكلى بدعاء واحد في كل صلاة، أن يجعل الله "عمر" لها وحدها في الفردوس الأعلى.

***

## هدية غامضة

على صدى كلمات العجوز، أغلقت "سمر" عينيها في الثالثة صباحًا، لتنهي ليلتها على ذكريات احتفالها بعيد الحب المصري مع "عمر"، إلا أن هذه الليلة التي بدأت في السابعة مساءً بطرق صديقاتها باب منزلها، قد شهدت حادثًا عارضًا لم تفكر فيه الطبيبة الشابة، حيث كانت بين من طرقن بابها في هذا اليوم، إحدى من صدمت فيهن، خاصة أن الصدمات توالت على العاشقة منذ أن أفاقت من الغيبوبة الأولى، التي دخلت فيها بعد دقيقتين من سقوط "عمر" غارقًا في دمائه.

كانت مَن طرقت الباب إحدى أقوى هذه الصدمات، إذا نحينا جانبًا أناسًا جمعتها بهم صداقات طفيفة في ميادين مصر الثائرة، وعبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، التي كانت "سمر" إحدى ناشطاتها ومؤسسيها، حيث دشنت بعد ١٠٠ يوم من وصول تنظيم الإخوان إلى كرسي الحكم، صفحة ثورية على موقع "فيس بوك"، لكشف أكاذيب الجماعة، ورصد عملياتها المنظمة لقتل معارضيها.

وبقدر ما صُدمت "سمر" بمن رأتها، وهي تفتح باب منزلها، كان رد فعلها صادمًا أيضًا، لدرجة لن تنساها صديقاتها اللاتي تسابقن لمواساتها في

هذا اليوم، لاسيما أنها كانت المرة الأولى التي يرين فيها صديقتهن الهادئة تطرد أحدًا من منزلها، وتكيل له السباب كيلًا بكل ما أوتيت من ألفاظ جارحة، وهن مَن عرفنها بطباع هادئة تشبه ملامحها دائمًا، فمنذ اليوم الذي خرجت فيه بصحبة "عمر" من باب عنبر قصر العيني، بعد وداعهما "الحاج محمد"؛ قررت الطبيبة الشابة أن تنهي علاقتها التي دامت ٣ شهور بمذيعة شابة، توسمت فيها الكثير من الخير، إلا أن الأيام كشفت عوارًا أخلاقيًا وشذوذًا جسديًا أصاب "رانيا سيف"، لتتخذ الأخيرة من رداء الفضيلة ستارًا لشذوذها، رافضة كل محاولات العلاج.

في هذا اليوم، وبعد خطوات قليلة من باب المستشفى، كانت تقف سيارة "سمر" الصغيرة مكبلة بأغلال إدارة المرور، ليفاجأ العاشقان بأن خللًا بدأ يصيب الاحتفال المنتظر، الذي بذل كل منهما ما في وسعه كي يبدأ مبكرًا، حيث ألغى "الجيولوجي" سفره يومها للعمل في ثاني محطاته المهنية بالعين السخنة، ضاربًا عرض الحائط بكل محاذير شركة التعدين الخاصة، التي التحق بها قبل شهر من هذا اليوم، عقب حصوله في نهاية سبتمبر ٢٠١٢ على درجة الماجستير في "الجيوفيزياء"، بمقتضى رسالة بحث أشاد بها كبار أساتذة الجيولوجيا بالجامعات، ولم تعترف بها الدوائر الحكومية، دليلًا على عبقرية هذا "الجيولوجي" لتستفيد من علمه المبشر، حيث فشلت كل مساعيه للالتحاق بالمراكز البحثية؛ لتحقيق حلم كان يراوده كثيرًا، وانحسرت كل مكاسبه من دراسته العلمية المطورة؛ في لقب "مهندس" يناديه به زملاؤه وجيرانه، وألف ومائتي جنيه يدسها في جيبه شهريًا، بعد معاناة يعيشها بين الجبال ٦ أيام في الأسبوع، يقضيها ذهابًا وإيابًا من القاهرة للعين السخنة، قاطعًا نحو ١٤٠ كيلومترًا في كل شوط، قبل أن ينتقل للعمل في الشركة الثالثة بسيناء.

في تلك المسافة، كان "عمر" يقتنص بضع دقائق يتحدث فيها بحرص بالغ مع "سمر"، أثناء قيادتها سيارتها في اتجاهها للمستشفى، بعدما فوجئ ذات مرة بسائق سيارة الشركة المخصصة لنقله إلى عمله؛ يسأله عن صحة حبيبته التي كانت قد أصيبت بأنفلونزا حادة، جعلتها قيد الإقامة الجبرية في منزلها لمدة أسبوع، ليعلم "الجيولوجي" أنه اُبتلي بكائن متطفل ظل يركز في حديثه، إلى أن علم بعضًا من أسراره، أهمها اسم معشوقته.

لم يجد "عمر" أمامه بعد ١٥ دقيقة، وقف فيها مع حبيبته بجوار سيارتها المكبلة؛ إلا أن يتصل بالسائق ليسأله عن حل يفرج الأزمة الطارئة، ليزيد رد "المتطفل" الطين بلة والإحباط يأسًا، فبعد استفسارات كثيرة عن العربة محل الأزمة؛ في ظل علمه أن "الجيولوجي" لا يملك سيارة، تفهم الأخير أنه قد تضيع ساعتان على الأقل حتى يجد مخرجًا، حيث أفهمه "السائق" أن قائد "ونش المرور" ومعاونه يكبلان السيارة ثم يتركانها بحثًا عن أخرى، وأن المنطقة المطلوب من "الونش" ضبط مخالفات الوقوف الممنوع بها؛ ليست بالصغيرة، أما الحلول فتتلخص في اتجاهين لا ثالث لهما، إما أن ينتظر بجوار السيارة في حدود ساعة أو أكثر، إلى أن يعود مكبلاها بعد جولتهما بالمنطقة المتسعة، وإما أن يستعين بسيارة أجرة كي يجوب شوارع المنطقة بحثًا عن الونش.

سريعًا ما أنهى "الجيولوجي" تردده، بمطالبة "سمر" بأن تفتح باب سيارتها، ليدخل بها اللفافة الحمراء الغامضة، التي ظلت أعلى السيارة طوال ربع ساعة، قضى الأول أغلبها يقاوم إصرار حبيبته على أن تعلم ما

بداخلها، وهو ما لم تعرفه إلا بعد ٥ ساعات عصيبة، قضيا وقتًا غير قليل منها في قسم الشرطة، إلا أن ما تحويه هدية "الفلانتين" كان سندًا للعاشقة المعذبة في لياليها الطوال، حيث كان "عمر" قد أعد لها عدة مفاجآت ثمينة، لم يعلم أن إحداها سوف تكتب له مسمى اجتماعيًا جديدًا، بعد خروجهما من قسم شرطة مصر القديمة.

إحدى هذه الهدايا، كانت الوسادة التي لا تجف من الدموع إلا بحصار النوم لـ"سمر"، أو خروجها من صومعتيها في القاهرة أو مطروح، فهي الشيء الوحيد الذي يشعرها بأن أنفاس عاشقها ما زالت جزءًا من غلافها الجوي، حيث كانت تتأمل كثيرًا روعة تلك الفكرة التي طرأت على ذهن "عمر"، كي يجعلها بجانبه مهما فصلت بينهما المسافات، لتنام كل ليلة تقرب وسادته إلى صدرها، مغمضة جفنيها على ملامحه، وسط حصار رحيقه لأنفاسها، إلى أن تستيقظ استعدادًا ليوم جديد من الألم، تبدأه بالتفكير في ألا تبدأه، بأن تبقى في سريرها تقضي ساعات استيقاظها في أحضان ما تبقى من العاشق الراحل.

كان هذا حال الحبيبة الثكلى بعد ساعة واحدة من نومها، بعدما استيقظت في تمام الرابعة صباحًا، لتبدأ أول يوم في عام جديد يخلو من "عمر"، لكن هذه الساعة كان لها واقع مختلف على ذاكرة "سمر"، حيث فرضت عليها أحلامها أن تستعيد صورة لن تنساها من الماضي، عندما استدعى عقلها الباطن ملامح أول لقاء جمعها بعاشقها، ذلك اللقاء التاريخي الذي لا يضاهيه تلاقٍ في حدته وحنانه.

يومها، هرولت الطبيبة إلى سيارتها متجاهلة نداءات والدتها لها بالتراجع، بعدما رأت الدماء تغرق شارع محمد محمود، عشية اليوم الثاني من أحداثه التاريخية، وتحديدًا السابعة والربع مساء ٢٠ نوفمبر ٢٠١١، بعدما نادى آلاف المصريين المجلس العسكري بنقل السلطة إلى رئيس منتخب، وسط مواجهات دامية بين المتظاهرين وقوات الأمن، ليسجل التاريخ هذا اليوم كأكثر الأيام دموية في مواجهات ميدان التحرير، أما "سمر" فسجلته كأول دليل على خيانة الإخوان لثوار مصر، بعدما تركت الجماعة دماء الشباب تسيل في قلب القاهرة، وتفرغت للضغط على الحكومة لضمان إجراء الانتخابات في موعدها، الذي كان مقررا يوم ٢٨ من ذات الشهر.

وتزامنًا مع انتهاء بيان أصدره مجلس الوزراء؛ لتأكيد التزامه الكامل بإجراء الانتخابات – ليحصل تنظيم الإخوان على مكسبه الأول، بضمان الجلوس تحت قبة البرلمان – أغلقت "الطبيبة" راديو سيارتها، وبدأت في تأمين عجلة قيادتها ضد عبث اللصوص استعدادًا لتركها، فمع سماعها الكلمات الأخيرة لبيان الحكومة عبر إحدى الإذاعات الإخبارية، كانت قد وصلت ميدان عبد المنعم رياض، بعدما قطعت كوبري ٦ أكتوبر قادمة من مدينة نصر خلال دقائق معدودة، لبدء مهمتها المقدسة في المستشفى الميداني، الذي يستقبل المصابين عبر متطوعين، يستخدمون الدراجات البخارية في جلب الأجساد الدامية بسرعة فائقة، من نهاية شارع محمد محمود إلى جوار مسجد عمر مكرم.

وبين دوي طلقات الخرطوش وأدخنة قنابل الغاز، ارتدت "سمر" معطفها الأبيض، بعدما تركت سيارهَا على بعد أمتار قليلة من كوبري قصر النيل، مترجلة أمام جامعة الدول العربية في اتجاه الميدان، بعد أن أنهت مكالمة مع والدها "كامل"، الذي استيقظ بعد دقائق من نزولها درج المنزل، وقضى نحو ١٥ دقيقة يتجادل مع زوجته "سلوى"، خاصة أنها اتهمته بالتقاعس في حماية ابنتهما من الخطر؛ لعدم تعليقه دائمًا على تواجدها بالقرب من مناطق الأحداث الدامية، بل وتشجيعه لها أحيانًا؛ كي تبذل كل ما في وسعها لإنقاذ منْ يمكن إنقاذه، لتكون أداة الله على الأرض؛ يكتب من خلالها حياة جديدة لأصحاب الإصابات البالغة.

بالشهادتين، انتهت مكالمة الأب المدرس وابنته الطبيبة، بعد أن وضع محاذير عدة لرحلتها الخطرة، أهمها تجنب خروجها من المستشفى الميداني، وبقاؤها بعيدًا عن الأحداث المتأججة في نهاية شارع محمد محمود، مهما استدعى الأمر، بعدما رأى "كامل" - عبر شاشات الفضائيات - قوات الأمن تستخدم القوة المفرطة في مواجهة المتظاهرين، مع استمرار الكر والفر المتبادل بين الجانبين، لتعلم "سمر" من نبرة القلق التي تجتاح صوت والدها، أن ساعات مضطربة تنتظرها بجوار مجمع التحرير.

وبعد دقيقتين كشفتا لـــ"الطبيبة" عن كم الحشود المتوافدة على الميدان، عبر مدخل قصر النيل، وصلت "سمر" إلى المكان المنشود وبحوزتها حقيبة كبيرة، تعوّدت أن تبقيها في سيارتها للاستعانة بها في رحلاتها الخطرة، وكانت تحرص دومًا على تزويدها بالشرائط والضمادات اللاصقة

بأحجامها المتنوعة، بجانب كميات غير قليلة من كرات القطن والشاش والقفازات البلاستيكية، فضلًا عن مستحضرات طبية عديدة تستخدم لتسكين الآلام، ووقف نزيف الدماء وتطهير الحروق والجروح، بالإضافة إلى إبر وخيوط جراحية لاستخدامها عند الضرورة.

فتحت الطبيبة الشابة حقيبتها؛ لتُخرج ما بداخلها، وتضمه إلى تل كبير من الأدوات الطبية، جمعه الأطباء المتطوعون في مدخل المستشفى، قبل أن تصافح صديقتها "شيماء"، التي اتصلت بـــ"سمر" مرات عديدة منذ بداية الأحداث، لتنبيهها بعدم الرد على والدهما إذا تحدثت إليها؛ للتأكد من تواجدهما معًا، حيث اضطرت صديقة الطبيبة إلى صنع كذبة اعتبرتها بيضاء، في ظل إصرار والدهما على عدم السماح لها بالذهاب إلى الميدان، متيقنة أن واجبها في إنقاذ أرواح المصريين أسمى من أي اعتبارات أخرى، لتترك منزلها في منطقة "سراي القبة"، مؤكدة لوالديها أنها ستقضي ليلتها مع "سمر" في إحدى كافيتريات مدينة نصر.

***

# اللقاء الأول

قبل ساعات من أول لقاء جمعه مع عاشقته، كان "عمر" يخطو أول شهور عامه الـ٢٣، عائدًا من رحلة عمل استغرقت أسبوعًا بإحدى مدن جنوب سيناء، لصالح الشركة الأولى التي عمل بها بعد عامي بطالة؛ قضاهما يسلم أوراقه لمسئولي إدارات الموارد البشرية بالشركات الخاصة، ومسئولي الاستقبال في المراكز البحثية الحكومية، إلا أن رحلته القصيرة إلى المدينة السياحية – التي كانت تصبو للكشف عن خامات جديدة بأحد المحاجر التابعة للشركة – انتهت بنجاحات جديدة، حيث أنهى جزءًا كاملًا من رسالة الماجستير التي كان يستعد لمناقشتها، وتعرف أيضًا على صديقه البدوي الأول "شعيب"، الذي حدثه عن أسرار كثيرة في عالم التعدين.

وصل "عمر" إلى منزله بعد رحلة استغرقت ٧ ساعات، لتستقبله أمه "ناهد" على الباب بالأحضان، قبل أن يطرق باب حجرة مثله الأعلى، والده "أيوب"، معلنًا وصوله إلى القاهرة الثائرة، ليفتح صدره راكضًا نحو أبيه في عاطفة عاصفة، ويبشره بإنهاء أصعب أجزاء رسالته، مستخرجًا له من حقيبته الصغيرة عدة أحجار نادرة، جمعها خلال جولته الشيقة في جبال سيناء، أحدها على شكل قلب، كان "الجيولوجي" سعيدًا به للغاية، للدرجة التي دفعته إلى إهدائه لـ"أيوب"، كذكرى من رحلته.

بين "أيوب" و"ناهد" الزوجين اللذين لم يرزقهما الله بالأطفال، قضى "عمر" سنوات حياته، حيث التقطاه بأيديهما منذ نوبات صراخ حادة، وصل للدنيا على نحيبها، بعدما توقفت أنفاس أمه بمرور دقيقتين على بدء حياة وليدها، لتتسلم شقيقتها "ناهد" الابن بعد ساعتين، مقررة أن يبقى في أحضانها لحين عودة والده الحقيقي "فريد" من الإمارات، التي سافر إليها بعد ٦ شهور من زواجه بشقيقتها.

بعد ساعات من عويل ونحيب عمّ طرقات المستشفى؛ في وداع الأم الشابة التي ماتت قبل أن تكمل عامها العشرين، كانت "ناهد" تقترب من زوجها حاملة الوليد ليلتقيا عن قرب ويضمانه بصدرهما، وأياديهما تتعانق لحمله، متعاهدين أن يرعياه كولدهما الذي حرما منه طويلًا، بعد أن عوضهما الله عن صبر سنين حزينة، مرت عليهما منذ زواجهما، الذي تصادف موعد وصول "عمر" للدنيا مع ذكراه التاسعة.

كان "أيوب" في هذا الوقت يعمل بشركة طيران، التحق بها في بداية الثمانينيات بعد عودته من إيطاليا، التي درس بها علوم هندسة الطيران، حتى أصبح خبيرًا بمعنى الكلمة، خاصة أن المهندس أبهر أساتذته منذ الامتحانات الأولى التي نجح فيها بامتياز منقطع النظير، بين طلاب من جنسيات عديدة، شاركوا في هذه المنحة التعليمية التي تأهل لها المميزون في مجال الهندسة بالبلدان الإفريقية والآسيوية.

لكن الأيام جارت على "المهندس" بعد سنوات طويلة من التحاقه بالشركة، تدرج خلالها في كل المواقع الهندسية، حتى بات أحد رموزها

على الساحة العالمية، إلى أن فوجئ بقرار يطيح به من موقعه، صدر عقابًا على كشفه قضية فساد كبرى، ظل العاملون بقطاع الطيران يتحدثون عنها طويلًا، رغم أنها مرت على أبطالها الفاسدين دون أي آثار، بل تولى بعضهم وظائف حساسة في هذا التوقيت.

كانت قضية الفساد تنصب في صفقة محركات طائرات، فعل مسئولو الشركة المصنعة لها كل ما في وسعهم حتى يتمموها، إلا أنهم وجدوا "أيوب" حجر عثرة تقف في طريق ملايين الدولارات المنتظرة من ورائها، فرغم حصولهم على موافقة الرئيس المباشر للمهندس، أوقف الأخير شحن المحركات إلى القاهرة، رافضًا دخولها لمخازن شركته؛ لافتقادها بعضًا من المواصفات القياسية، ليفاجأ في اليوم التالي من قراره برجل أنيق يصافحه، طالبًا التحدث معه لدقائق، لتحدث المفاجأة غير المتوقعة، إذ أخرج الضيف مظروفًا كبيرًا كان يخفيه في معطفه الطويل، قائلًا للمهندس: "دعنا نعقد صفقة بسيطة"، وهي الصفقة التي انتهت بإحالة "أيوب" إلى التقاعد.

وبعد عودة والد "عمر" من الإمارات؛ استطاع المهندس أن يقنع "فريد" ببقاء نجله في القاهرة، بعد أن تعهد له بأن يكون الابن محل اهتمامه الدائم، وقرة عين لزوجته الحانية "ناهد"، التي وجدت فيه وليدها الضائع، لتحيي أمومتها التي اندثرت بمرور سنوات من العقم اليائس، خاصة أنها كانت تحمله بين ذراعيها ليلًا ونهارًا طوال عام، إلى أن فوجئ "فريد" بنجله الصغير يركض مسرعًا نحوه بعد عودته، عقب أسابيع قليلة من عيد ميلاد صغيره الأول، متمتمًا بكلمات غير مفهومة، ومحاولًا انتزاع الساعة من يد

الأب بلا تراجع أو استسلام، ليسافر الأخير من جديد عائدًا إلى دبي، ويبقى هناك ١٠ أعوام أخرى، تزوج فيها مدرسة عاقر، ولم يزر مصر إلا ٣ مرات خاطفة، قبل أن يموت في بداية عقده الخامس، منفقًا ما أمامه وخلفه على العلاج من الفيروس الكبدي الوبائي، الذي نُقل لدمائه في إحدى عيادات الأسنان.

***

نجح مهندس الطيران في تربية الطفل اليتيم بصورة باهرة، متخطيًا مراحل صعبة اجتازها في صبا ومراهقة "عمر"، حتى تخرج في كليته ليصطدم بصخور الحياة، إلا أن القيم الحقيقية التي اكتسبها "الجيولوجي" من والده البديل جعلته يقوى أمام مغريات عدة، بعدما عايش معه عدة مواقف لم ينسها "الابن"، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، إبان تولي تنظيم الإخوان مقاليد السلطة في مصر.

فلا ينسى "عمر" الإجابة التي ربطت في عقله علاقة الجنس بعقد الزواج، بعدما أفهمه "أيوب" في جلسة تاريخية جمعت بينهما أيام صباه، ماهية تلك العلاقة الحميمية، لوقايته من أشياء عدة، كان أهمها كارثة شرائط الفيديو الجنسية، التي أتت على مصر كالإعصار مع بدايات التسعينيات، قبل أن تفتح مواقع الإنترنت الإباحية ذراعيها للمراهقين، الذين يعيشون في توهج جنسي لا ينطفئ.

وفي جلسات مشابهة، شرح الأب لـــ"عمر" الأمور التي ساعدت في اشتعال الكبت الجنسي، الذي اجتاح المجتمع بعد أن أصبح الزواج أمرًا عسيرًا؛ لا يقدم عليه سوى المؤهلين ماديًا، ليتأخر شباب الطبقة المتوسطة

– قبل أبناء الفقراء – في الدخول إلى عش الزوجية، خاصة أن التعيين الإلزامي كان شيئًا قد لفظته الحكومة من بين أولوياقا، على خلاف السنوات التي عاشتها مصر حتى منتصف الثمانينيات، عندما كان الطالب يتخرج في كليته، ليتسلم خطاب التعيين بالوظائف العامة، قبل وصول استدعاء الخدمة العسكرية إلى منزله.

تلك الفكرة كانت واحدة بين أفكار عدة، سرد "أيوب" جزءًا منها إلى "عمر"، بعد حمام دافئ استغرق فيه الأخير نصف ساعة، ليمحو آثار رحلة العودة من سيناء مسترخيًا تحت المياه الدافئة، ليخرج إلى نقاش مع والده حول أسباب اندلاع ثورة ٢٥ يناير، بعدما علم الوالد نية نجله النزول إلى ميدان التحرير، حيث أكد مهندس الطيران لابنه أن الشاب كان يبدأ في اختيار شريكة حياته، بمجرد أن ينهي دراسته، ليعقدا الخطوبة بعد تسلمه شهادة التخرج، في انتظار الوصول اليقيني لخطاب التعيين الذي يضمن لهما ٤٠ جنيهًا شهريًا، بعد أن يتسلم كل منهما عملًا مقابل عشرين جنيهًا، ومن ثم يشتريان أثاث مملكتهما الهادئة، كي يتحديا فيها ظروف المعيشة الصعبة، متعافين من أمراض الكبت والفقر.

وقتها، قال "أيوب" أيضًا، أنه مع الزيادة السكانية التي بدأت تتفجر منتصف الثمانينيات؛ تخلت الدولة عن دورها المحوري في إنقاذ القوي العاملة من البطالة، ليجد الخريجون أنفسهم عقب حصولهم على شهادات التعليم العالي والمتوسط في سراب متسع، لا إجابة فيه عن سؤالين محددين يملآن أذهانهم، هما: "متى سأعمل؟"، و"متى سأتزوج"؟!

كما تطرق النقاش الذي جمع "المهندس" و"الجيولوجي"، إلى الفساد الذي يعاني منه المجتمع، حيث كشف "أيوب" كواليس عمليات تستر كانت تتم بإشراف أهم أجهزة الدولة التنفيذية؛ لإنقاذ الفاسدين من عقاب جرائمهم، مدللًا على تلك العمليات، بما حدث معه شخصيًا؛ عندما أطاح به رئيس مجلس إدارة شركة الطيران من موقعه كرئيس لقسم صيانة المحركات، إثر مكالمة جمعت بينه وبين حامل المظروف الشهير، بعد خروج الأخير من مكتبه الذي كان يجلس فيه للتو عارضًا صفقته المشبوهة، ليلقى شر طردة على يد المهندس.

نقل "أيوب" لنجله عرض صاحب المعطف الأنيق، وهو: "المظروف يحوي ٢٠٠ ألف دولار، كدفعة مبدئية من أصل مبلغ يساوي الضعف، حتى تصل المحركات إلى القاهرة"، حيث قال الرجل تلك الكلمات واضعًا مظروفه على سطح المكتب، ليلقيه رئيس القسم في وجهه، مهددًا إياه بإبلاغ أجهزة الأمن، وهو ما نقله صاحب المعطف الأنيق لرئيس الشركة، ليصدر الأخير قرار استبعاد "أيوب" للأبد، ويعود الأب لارتداء ملابس المنزل طوال اليوم، مفكرًا في كيفية الوفاء بمتطلبات المعيشة عن طريق معاش لا يتعدى ٢٠٠٠ جنيه، في الوقت الذي كان يصل فيه دخله الشهري إلى ٢٠ ألف جنيه قبل القرار التعسفي!

***

انتهى النقاش بمصافحة "عمر" والده، استعدادًا لنزوله إلى الميدان، طالبًا منه الدعاء لمصر بأن يحفظها من شر الفوضى، بعدما بُح صوته مناديًا

بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية، فالشاب كان مشاركًا فاعلًا في فعاليات ثورية عديدة، شهدها ميادين مصر لشهور طويلة؛ عقب الإطاحة بنظام مبارك، بعد ١٨ يومًا من اندلاع شرارة "٢٥ يناير"، تأججت فيها أحداث دامية، أسقطت آلاف المصريين بين قتلى وجرحى، وكشفت الأيام عن أدلة بضلوع جماعة الإخوان فيها، خاصة في وقائع اقتحام السجون وحرق أقسام الشرطة، التي انتهت بهروب قيادات التنظيم من سجن وادي النطرون، قبل عام و٥ أشهر من وصولهم إلى سدة الحكم.

نزل "عمر" من منزله في المقطم، ليجد "علي" – ابن القيادي الجهادي البارز مجدي عبد القادر – يصافحه على بعد أمتار من أكبر مساجد شارع "٩" الرئيسي، حينها تردد "الجيولوجي" كثيرًا في إعطاء الحديث جانبًا من الاتساع، مكتفيًا بسؤاله عن صحته، خاصة أن آخر لقاء بينهما شهد الكثير من الشد والجذب، بعدما ساد التوتر نقاشهما حول حرمانية سؤال بسيط، سأله "عمر" وهو يصافح "علي" أمام سرادق للعزاء، عندها استهل الأول حديثه قائلًا: "البقاء لله"، قبل أن يطرح سؤالًا على الثاني أثار أزمة كبيرة، هو: "ربنا افتكر مين؟"، ليقابله الأخير بوابل من الاستياء العارم، دفعه إلى الرد بصوت عالٍ: "حرام عليك يا عمر".

عندها، وقف "الجيولوجي" مستغربًا من حدة إجابة زميله، الذي تخرج في كلية العلوم بجامعة الأزهر، قبل ٣ دفعات من حصول "عمر" على مؤهله، ليعمل كيميائيًا في إحدى شركات البترول بتوصية من والده، الذي كان وقتها عضوًا في مجلس الشعب، رغم قضائه سنوات طويلة بالمعتقلات،

على قيد التحقيقات في جرائم عديدة تدخل تحت بند المساس بأمن الدولة، ليحصل ابنه الكيميائي على ١٠ آلاف جنيه شهريًا.

وبعد جدال شديد حول حرمانية "ربنا افتكر مين؟"، خاصة مع استماتة "الكيميائي" في التأكيد أن الله لا ينسى أحدًا، رغم تأكيد "عمر" أيضًا على ذلك، حالفًا بكل أيمانات المسلمين أنه لا يقصد من سؤاله سوى معرفة شخصية المتوفى، إلا أنه سرعان ما اتخذ النقاش محورًا مختلفًا، بعدما تحول إلى جدل سياسي حول انتخابات البرلمان المقبلة، التي كانت جماعة الإخوان المسلمين تخطط لاكتساح مقاعدها، رغم اشتعال ميادين مصر بالأحداث في هذا التوقيت.

وأمام المسجد الكبير، صافح "عمر" جاره مؤكدًا تأخره عن الفعاليات المشتعلة في ميدان التحرير، ليقابله "الكيميائي" بنفس الاستياء العارم، ويطالبه بعدم النزول حتى يعم الاستقرار ربوع البلاد، قبل الانتخابات البرلمانية الوشيكة، إلا أن "الجيولوجي" لم يعط فرصة لبدء نقاش ثانٍ على طريقة "ربنا افتكر مين"، ليطالبه بتأجيله لحين لقائهما المقبل، ثم قال: "مع السلامة"، غير مبالٍ بنظرات "علي" الغاضبة، موقفًا سيارة أجرة حتى تقله إلى مقصده.

وصل "الجيولوجي" إلى التحرير، مترجلًا من ميدان طلعت حرب إلى بداية شارع محمد محمود مع أذان العشاء، ليدخل زقاقًا صغيرًا بين الممرات الشهيرة هناك، ويعود إلى الأحداث المتوهجة سريعًا بعد أدائه الصلاة، حيث بدأ بالهتاف وسط المئات عقب حمله على الأعناق، باعتباره ثوريًا من

الطراز الأول، تصيب هتافاته أهدافها بكامل الصواب، وتستثير الحشود نحو نداءات الحرية والكرامة، لتُبح أصواتهم وهم يرددون الشعارات وراءه بحماسة بالغة.

ووسط الكر والفر المتبادل بين المتظاهرين وقوات الأمن، اضطر الثائر إلى الكف عن هتافاته؛ مطالبًا الجميع بالمساهمة في نقل المصابين إلى المستشفى الميداني، ثم أسرع في اتجاه الأحداث المتوهجة، مناديًا أصدقاءه المقربين ليقتربوا من خط المواجهة، ويتابعوا معه الموقف عن كثب، وسط الأدخنة الكثيفة لقنابل الغاز المسيل للدموع، والتي كادت تُدخل "الجيولوجي" في إغماءة بسيطة، لولا خبرته الطويلة في الإفاقة من آثارها سريعًا.

ومع تصاعد المواجهات، وتراشق الجانبين بالحجارة، وقنابل الغاز أيضًا، التي كانت تعود لمطلقيها في لحظة وصولها إلى متناول المتظاهرين، لم يجد "عمر" أمامه سوى المساهمة في نقل المصابين، ليحملهم من منطقة الأحداث إلى بداية الممر الطويل، الذي خصصه المحتجون للدراجات البخارية، متكاتفين لبقائه ممهدًا أمام السائقين، الذين تولوا مهمة نقل الأجساد النازفة إلى المستشفى الميداني بسرعة فائقة.

وقتها، حمل "عمر" نحو ٤٠ مصابًا لأمتار عديدة، ذهابًا نحو بداية الممر إيابًا إلى منطقة الخطر، حتى لحقت به إصابة خطيرة، بعدما شقت قطعة رخام مدببة مقدمة رأسه، لتسيل دماؤه على جبينه بسرعة فائقة، ويعود سريعًا إلى بداية الممر؛ لكن كمصاب، قبل أن يحمله سائق الدراجة البخارية حتى المستشفى، مساهمًا في إسعافه، وكاتبًا بداية لقصة عشق لن تنضب.

ورغم اهتمام الأطباء البالغ بكل الحالات التي تصل بين أيديهم، إلا أن تسابقهم على علاج "عمر" كان شيئًا لافتًا، خاصة مع تأثر بعضهم كثيرًا، لما عرفوه عنه كواحد من أشرس وأجرأ متظاهري الميدان، ليلتف حوله ٣ أطباء محاولين معرفة عمق الجرح الكبير، وساعين نحو إيقاف النزيف الحاد، قبل أن يبدءوا في لم شتاته بالخيوط الجراحية، ليستهلك القطع الطولي ١٨ غرزة، ويقوم بعدها المصاب باسمًا، وكأن جرحًا لم يكن.

مشاهد شغف زملاء "سمر" في إسعاف المصاب، دفعت الطبيبة إلى سؤال صديقتها "شيماء" عن الشخصية متلقية الاهتمام الزائد على الحد، لتجاوبها قبل أن تخطو في اتجاه تجمع الأطباء، قائلة: "عمر فريد.. بطل حقيقي ومحترم"، ولم تكمل صديقة الطبيبة كلماتها، حتى ساد التوتر أرجاء المستشفى، في ظل اقتراب المواجهات إلى جواره، وانفجار قنابل المولوتوف على أعتابه، ومحاصرة أدخنة الغاز لجدرانه القماشية، حتى باتت الخيمة الصغيرة المخصصة لعلاج المصابين؛ في ضباب كلي.

اشتعلت حدة الأحداث للدرجة التي أشعلت أركان الخيمة، بعدما اندلعت النيران في الخيمة جزئيًا، وسط صراخ الطبيبات اللائي فوجئن بألسنة اللهب تحاصرهن بلا سابق إنذار، إلا أن مفعول الصدمة كان مختلفًا على "سمر"، لتسقط مضطربة إلى جوار جدار الخيمة المحترق، غير قادرة على التحرك أو الاستغاثة، إلى أن امتد اللهب ليلامس معطفها الأبيض، ويتصاعد صراخها اليائس.

هنا، كان "عمر" قد أحاط رأسه بشاله المعهود لوقاية أنفه من أدخنة الغاز، وحماية عينيه من عجز بصري مؤقت، انتاب الجميع في تلك اللحظة،

ليجد الطبيبة ذات الملامح الطفولية تتقلب على الأرض، محاولة إخماد نيران التهمت نصف معطفها، لتتسابق خطاه نحو الصرخات المستغيثة، التي انقطعت فور دخول "سمر" في صدر المنقذ الجريء، الذي تخطى النيران قبل أن يلتقطها بين يديه، محاولًا حملها، ليرى نظرة فزع بين عينين بدا عليهما انهيار بالغ.

وكالفارس الشجاع الذي يحمل أميرته الجميلة، ركض "الجيولوجي" وسط ألسنة اللهب، مطالبًا الطبيبة بأن تنهي صرخاتها، قائلًا: "ما تخافيش.. أنتِ في أمان"، لتبدأ أول نظرة تتلاقى فيها العينان اللامعتان، في رحلة عشقهما الأبدي، وبانتهاء النظرة التي كتم فيها المنقذ أنفاسه، غير قادر على الصمود أمام عينين يعوق بريقهما محاولاته الجاهدة للالتفات عنهما، واستئناف الطريق المليء بالمخاطر، كان "عمر" يهبط بساقي "سمر" على عشب الحديقة المجاورة للمستشفى المحترق، ويساعدها على الصمود كي تثبت قدميها بالأرض، محاولًا إنهاء حالة التوتر التي كادت تفقدها وعيها، أما وعيه فكان قد فقد الإحساس بما حوله، ليتناسى الأحداث الساخنة، مسلطًا عينيه على حدقتيها الساحرتين.

وبمرور لحظات، استوعبت الطبيبة أنها أصبحت بعيدة عن الخطر، ضاربة عينيها أسفل قامتها، ناظرة إلى الآثار المدمرة لحريق المعطف، قبل أن ترفع عينيها لتلاقي نظرات مبهرة؛ يملؤها لمعان الاهتمام والقلق، لتجد نفسها تومئ برأسها، وترسم ابتسامة تقدير أمام بسالة منقذها، حتى أنهى صوت "شيماء" هذا المشهد الصامت، عندما اخترق أجواء التلاقي الساكنة، للاطمئنان على "سمر".

ذات المعطف المحترق، أنهت قلق صديقتها "شيماء"، قائلة: "الحمد لله، أنا بخير"، ثم أضافت ويدها تشير نحو "عمر": "والفضل للمنقذ الشجاع"، ليستقبل الأخير كلماتها قائلًا: "حمدًا لله على سلامتك"، قبل أن ينهي تردده في البقاء أمام عينيها الساحرتين، ويمد لها يده مصافحًا ومستأذنًا للرحيل، لاستئناف دوره في الأحداث المتأججة، لتخرج جملة دون شعور من بين شفتي الطبيبة بصوت مفاجئ: "لازم ترتاح يا أستاذ عمر"!

استقبل الجيولوجي كلمات "سمر" بنظرة استغراب واسعة، ولسان حاله يتساءل عن سر معرفتها اسمه، ثم جاوب في هدوء: "مكاني في الميدان"، ليبدأ هذا الحوار:

سمر: حضرتك مجروح.. ووجودك خطر!

عمر: تعودت على الإصابات.

> لكن ممكن تعبك يتضاعف!

– الأهم، أكون موجود مهما حصل.

> الجرح واضح إنه كبير.. أنا بحذرك!

– ما تقلقيش، هابقى كويس.

قطعت "شيماء" حديث الطبيبة ومنقذها، قائلة: "أحب أعرفكم ببعض"، وتابعت مشيرة إلى صديقتها: "الدكتورة سمر، طبيبة امتياز، وأنا زميلتها شيماء"، ليبتسم "عمر" متسائلًا: "قلتِ أعرفكم ببعض.. فين أنا؟"، وأمام ابتسامة خجل احتلت وجه "شيماء"، أضاف قائلًا: "عمومًا، اسمي

عمر، جيولوجي"، لترد الأخيرة بحماس: "سمعت عنك كتير"، أما صاحبة المعطف المحترق فتابعت حوار صديقتها مع "عمر" بابتسامات أضاعت علامات التوتر من ملامحها، ليعود الصفاء لنغزتي وجهها قبل أن تُحرك شفتيها بنظرة اخترقت قلب "الجيولوجي"، قائلة: "فرصة سعيدة جدًا، وبجد متشكرة"، ليرد "عمر" بصوت جاد خامدًا تأثير نظرتها: "أنا أسعد، أشوفكم على خير".

هنا، سحب "عمر" قدمه التي كانت تعلو الرصيف الفاصل بين حدائق الساحة الخضراء المجاورة لمسجد عمر مكرم، ممهدًا لنفسه خطوة في اتجاه مجمع التحرير على الجانب الآخر للشارع المتسع، محاولًا إبعاد عينيه عن نغزتي "سمر"، فسحرهما تصعب مقاومته، وينسيه أين ستذهب خطوته، وبإصرار، استطاع المنقذ النظر إلى المجمع، ليخطو مسرعًا يقاوم الالتفات للطبيبتين.

وراءه، كانت "سمر" تراقب هامته، وتحاول تقدير حجم الجرح الذي حوّل رأسه إلى لفافة شاش وقطن، إلى أن التقطت "شيماء" نظرتها المتفحصة، لتقول بذكاء الصديقة المقربة: "١٨ غرزة"!، لترد الطبيبة قائلة: "واضح، ربنا يشفيه"، قبل أن تسألها عن مصير باقي زملائهما في خيمة الجحيم، لتؤكد صديقتها أن إصاباتهم طفيفة، وسرعان ما تسابقت خطوات الطبيبتين إلي المستشفى الميداني ناظرتين بعيون فاحصة لآثار الحريق، بينما خلعت "سمر" معطفها المحترق، إلى أن وصلتا مستفسرتين عن حال الطاقم الطبي، ومطمئنتين على المصابين من أفراده، لتواصلا إسعاف ما سقط من ضحايا جدد.

***

وفي العاشرة والنصف مساء، كانت الطبيبتان تستعدان لمغادرة الخيمة التي أتت النار على جدرانها القماشية، وتركت ألسنتها بصمتها على سقفها المهلهل، لتستأذنا المنسق العام للمستشفى في الذهاب لتأخر الوقت، خاصة أن "شيماء" كانت تخشى من تعنت والدها، لذلك فضلت أن تصل إلى منزلها بسيارة "سمر"؛ لتظهر برفقتها حتى لا تشك الأم التي تنتظرها بالشرفة، في أن نضال ابنتها الطبي قد دفعها لارتكاب الممنوع في أيام الخطر، وهو ما وقعت فيه الطبيبة الثائرة، بالكذبة البيضاء التي أفلتت بها من قلق أمها.

ترجلت الشابتان تنظران على اللافتات التي ملأت مدخل التحرير، من جانب قصر النيل، تقرآن مطالب الاعتصام التي تنادي بالعيش الكريم للمصريين، وتسمعان أنغام هتاف "عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية"، الذي كان يرج الميدان، ليصلا إلى أول كوبري قصر النيل، بعد عبورهما تكتل الأسلاك الشائكة المقابل لجامعة الدول العربية، لتكملا السير في موازاتها، إلى أن وصلتا إلى السيارة الصغيرة، حامدتين الله على إنقاذهما من مكروه، كان على وشك إصابتهما.

تبادلت الصديقتان بعد استقلالهما السيارة الحديث حول الحال الذي وصلت إليه البلاد، عندها ألمحت "سمر" إلى أن المستفيد الوحيد من تأجج الأحداث هو جماعة الإخوان، مدللة ببيان الحكومة، الذي يؤكد نجاح ضغوط الجماعة لضمان إجراء الانتخابات في موعدها المحدد، بينما علقت صديقتها بأن شيئًا يجرى لا تستطيع استيعابه، لاحظته من حالات الإصابة

التي استقبلت كثيرًا منها في قصر العيني، والمستشفيات الميدانية طوال الأحداث التي تلت ٢٥ يناير، أو بالأصح يوم ٢٨، فمستشفيات القصر استقبلت خلال الأيام الثلاثة الأولى للأحداث أعدادًا طفيفة من المصابين لم تتعد ٢٠ مصابًا، ما لبثت أن تضاعفت في الجمعة الدامية، حينما انتشر الرصاص الحي، وظهر الطابور الخامس، الذي قتل المتظاهرين والشرطة دون تفرقة.

إلا أن كلمتين كانتا تلمعان في ذاكرة "سمر"، جاءتا على لسان صديقتها، قبل أن تشتعل الأحداث ومعها الخيمة الطبية، أثناء سؤالها عن المصاب متلقي العناية الفائقة، لتجد نفسها تستغل الحديث عن المصابين، وتُذكر "شيماء" بحالة "عمر"، بل وتسألها باهتمام بالغ:" ليه قلتِ عليه؛ بطل حقيقي؟"، وبحكم عشرتهما الطويلة في كلية الطب؛ والتي لم تذكر فيها "سمر" حالة واحدة ممن أسعفتهم بعد خروجها من حجرات الطوارئ، لاحظت "شيماء" اهتمام صديقتها لتحاول فضح فضولها، قائلة بابتسامة ماكرة: "لأنه بطل حقيقي!".

قابلت الطبيبة مكر صديقتها، بجملة بدا عليها فهمها لمراد "شيماء"، قائلة: "أنا عرفت أنه شجاع"، فابتسمت صديقتها، مقررة سرد حكايات عديدة لبطولات "عمر" في موقعة الجمل، عندما قاتل البلطجية المأجورين، الذين اقتحموا الميدان ضمن مخططات اقتحام السجون وحرق الأقسام، حتى يشيعوا الدموية ويزيدوا من حدة الثورة على النظام، ليكون "الشجاع" ضمن الصفوف الأولى على خط المواجهة، غير مبالٍ بالأسلحة

البيضاء التي حملها راكبو الجمال، في معركة من العصور الوسطى، ليقاتل بجواره العشرات، ثم المئات والآلاف، ليستأسد الميدان في مواجهة إرهاب البلطجة.

لم يقتصر حديث "سمر" وصديقتها على بطولات "عمر" في موقعة الجمل، إذ تطرق أيضًا إلى الناشط "عادل فهيم"، الذي كان يحاول التقرب من "شيماء" بكل الطرق مستغلًا انضمامها إلى جمعية "رحالة الخير"، بعد أن انبهرت الطبيبة بكمٍّ الخدمات التي تقدمها الجمعية الخيرية للبسطاء، حيث التحقت بها منذ شهر واحد بحثًا عن دور تطوعي، تستطيع من خلاله الاشتراك في القوافل الطبية المجانية للمناطق العشوائية والقرى المنسية حول القاهرة، إلا أنها تلقت صدمة كبيرة في النهاية.

قالت "شيماء" لصديقتها: إن "عادل" - الذي يعد من أبرز المتطوعين في الجمعية - حاول مرارًا وتكرارًا التقرب منها بعد تعرفه إليها بيوم واحد، عندما فوجئت به يطلب رقم هاتفها، بحجة التنسيق معها لتسيير القوافل، رغم وجود منسق عام للخدمات الطبية، لتعطيه إياه في نهاية شد وجذب طويل بينهما، بعدما وضعها في موقف حرج، اضطرها للاستجابة إليه، فبمجرد تأكيدها على أنه لا داعي لتواصلهما مع وجود المنسق العام، فوجئت بـــ"عادل" ينادي المنسق بصوت عالٍ، طالبًا منه السماح له بتجاوزه والتنسيق مع الطبيبة المتطوعة الجديدة، بشأن القافلة التي ينوي تسييرها في إحدى مناطق عزبة النخل، خاصة في ظل قربها من منزلها، حسب البيانات التي قرأها باستمارة تطوعها.

تابعت "سمر" حديث صديقتها باهتمام بالغ، خاصة في ظل المعلومة التي كشفتها "شيماء" عن طبيعة المتطوعين التي تعرفت إليهم في الجمعية، قبل أن تقرر تركها منذ يومين، لتؤكد أن معظمهم من شباب جماعة الإخوان، فضلًا عن قياداتهم التي تطوعت منذ سنوات - مع بدء الجمعية نشاطها داخل الجامعات - ليصبحوا مسئولين عن كل الأنشطة على الأرض، حيث اكتشفت الطبيبة المتطوعة أن متطوعي الإخوان يقدمون الخدمات لأبناء المناطق العشوائية والريفية باسم جماعتهم وليس الجمعية.

وسردت "شيماء" تفاصيل القافلة الطبية الأولى والأخيرة لها، التي نظمها "عادل" - قبل أسبوع - في شارع الصحة بجوار مترو عزبة النخل، حيث فوجئت بملصقات جماعة الإخوان تغطي السيارات الطبية، بدلًا من لافتات "رحالة الخير"، بجانب رؤيتها العشرات من شباب التنظيم، يدعون المواطنين للاستفادة من خدمة العلاج التي تتيحها الجماعة في المنطقة، ما دفعها إلى سؤال "عادل" عن هذا التلاعب في نسب خدمات الجمعية للجماعة، ليؤكد وجود تعاون مشترك في مجالات عدة بين الإخوان و"رحالة الخير"، خاصة مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، لتواجه الطبيبة المتطوعة كلماته باستنكار تام، معتذرة عن عدم الاستمرار في القافلة، وهو ما رد عليه "عادل" بأنه يرى أن الجماعة فصيل وطني قادر على إنقاذ البلاد من المصير المجهول، ولذلك يجب الوقوف بجانبه حتى يفوز بالانتخابات، إلا أنها أصرت على موقفها، وطالبته بسحب استمارة تطوعها.

قالت "شيماء" أيضًا: إن مجلس إدارة "رحالة الخير" غض البصر عن ممارسات شباب الإخوان المتطوعين، إلى أن زاد عددهم على ٥ آلاف

متطوع، وأصبحوا يسيطرون على مقاليد الأمور في الجمعية، ليستبدلوا لافتاها على سياراتها التي توصل المواد الغذائية والملابس والبطاطين؛ ويضعوا ملصقات لجماعة الإخوان بدلًا منها، حتى يتصور البسطاء في النهاية أن تلك المساعدات تمنحها الجماعة وليست الجمعية، في الوقت الذي تُحصل فيه الأخيرة ملايين الجنيهات شهريًا من جيوب المصريين، بدعوى مساعدتها الفقراء، أما الواقع فيؤكد أنها تحولت إلى ذراع للجماعة، ليصبح "الإخوان" و"رحالة الخير" وجهين لعملة واحدة.

ومع انتهاء الحكايات عن بطولات "عمر" وشبُهات "رحالة الخير"، كانت السيارة قد وصلت إلى "سراي القبة"، لتودع قائدتها صديقتها، وتبدأ في السير إلى مدينة نصر، نحو أول ليالي قصة حب سيقف لها التاريخ احترامًا.

***

# منقذي

في هذه الليلة، عادت "سمر" إلى منزلها لتفتح الباب راكضة نحو حضن والديها، لتحكي لهما مشهد محاصرة النيران لها داخل المستشفى الميداني، وشجاعة الشاب الذي أنقذها من عواقب فادحة، لتذكر اسم "عمر" بين جدران منزلها للمرة الأولى، وسط شغف من الأب والأم، اللذين شاهدا على ملامح صغيرتهما سعادة غامرة باللحظات التي قضتها بالميدان، رغم كل ما حدث، وهي تروي بحماس بالغ كيف أنقذها "الجيولوجي" من النيران، مخرجة من حقيبتها معطفها الأبيض المحترق، ومتحدثة عن جسارة الثائر، الذي لم يمنعه جرحه الخطير من مواصلة دوره الوطني في التحرير.

وانتهت ليلة اللقاء الأول، بتحذير شديد اللهجة من الوالد لابنته، بألا تضع نفسها في الخطر مرة أخرى، وأن تترك الميدان إذا رأت الأحداث تشتعل، حتى لا يقتل القلق والدها، فالأخيرة لا ترى الراحة طوال الساعات التي تقضيها "سمر" في التحرير، بينما أنهت الابنة تنبيهات والدها بإيماءات القبول، ودخلت إلى غرفتها لتستلقي على سريرها، متأملة سماء الغرفة، مسترجعة أمامها مشهد التقطاها من بين ألسنة اللهب؛ عندما حملها

"عمر" إلى المكان الآمن، غير قادرة على نسيان النظرة التي لازمت كلمات الجيولوجي، وهو يطمئنها بأمان لم تشعر به سوى في أحضان والديها.

ومع استمرار اشتعال الأحداث في اليوم الثاني للقاء "عمر" و"سمر"، أصرت الطبيبة على أن تعود لممارسة مهمتها في المستشفى الميداني، وبعد شد وجذب كبير بين الابنة و"سلوى"؛ التي رفضت نزولها، وجد "كامل" مخرجًا يريح الأم من قلقها، ليقرر اصطحاب ابنته إلى التحرير، حتى يتابع بنفسه الأجواء حول الخيمة الطبية، ليكون قادرًا على التدخل في الوقت المناسب، وهو ما حدث، حيث وصلا إلى وجهتهما عشية الأحداث، لتبدأ صداقة نادرة ربطت الأب بـــ"عمر"، حتى سقوط الأخير وسط بركة من الدماء.

في هذا اليوم، استيقظ "الجيولوجي" الثانية ظهرًا على هاتف جاره "علي"، الذي أكد أنه رآه عائدًا إلى منزله فجرًا، وحول رأسه قبعة طبية كبيرة من الشاش، ليطمئنه "عمر" بأن الحادث طفيف، وأن حالته تحسنت، وبات لا يشعر بآلام الجرح إلا قليلًا، ليعنفه "الكيميائي" بشدة، ويذكره بتحذيراته له من النزول للميدان أمام المسجد أمس، ليقابل "الجيولوجي" كلماته بصوت أجش، شكره به على سؤاله واطمئنانه، كعلامة على رغبته في إنهاء المكالمة سريعًا.

لطالما قابل "عمر" حديث جاره باستياء شديد، كان يتجلى على ملامحه في كل لقاء يجمعهما بالمصادفة، حيث كان لـــ"الكيميائي" رصيد كبير من المواقف التي لا ينساها "الجيولوجي"، من الصبا وحتى الشباب، في ظل

تصرفاته غير المُستساغة أو الثابتة على رأي واحد، والمُتغيرة مع تغير الأحداث، حيث كانت تؤكد أن الفكر المتشدد الذي ينتهجه "علي" لا يميل سوى للمصالح السياسية لجماعة الإخوان، التي انتمى إليها الكيميائي صبيًا، لتتولى نفقاته حتى أنهى دراسته الجامعية، في ظل وجود والده القيادي الجهادي في السجون دائمًا.

تلك المواقف جمعت "الجيولوجي" و"الكيميائي" منذ الصغر، عندما كان "عمر" يفاجأ بحرص جاره الدائم على أن يلعب الكرة مع أطفال المقطم، رغم أن هناك فارقًا شاسعًا بين أعمارهم وعمره، للدرجة التي دفعته يومًا خلال مرحلة دراسته بالثانوية العامة، لأن يرافق "علي" في إحدى مباريات تلك الشوارع، حيث كان الأخير قد التحق بكلية العلوم، ليعرض على جاره الذي يصغره بـ ٣ سنوات أن يشاركه لعب الكرة، ويفاجأ "عمر" بأن أطفالًا في المرحلة الابتدائية بانتظارهما، ممسكين بالكرة على ناصية أحد الشوارع، وكانت المفاجأة الثانية أن جاره يتعامل مع هؤلاء الأطفال على أنهم أصدقاؤه المقربون، رغم الفارق الكبير بين الجيلين.

انتهت المباراة بفوز فريق "علي"، الذي كان يضم "عمر" بين صفوفه، ليطالب قائد الفريق الفائز جميع اللاعبين بالاستعداد لصلاة العشاء في إحدى الزوايا القريبة، ومع إصرار جاره على المضي قدمًا في استكشاف أسرار تلك الصداقة الغريبة؛ بين قائد الفريق والأطفال، رافقهم خطاهم نحو الزاوية، رغم تعوده على الصلاة بالمسجد المجاور لمنزله، ليؤدي أعضاء الفرقتين الصلاة ثم يجتمعون حول شيخ ذي لحية بيضاء، ويبدأ في خطبة قصيرة حول النساء السافرات في المجتمع.

ومع الكلمات الأولى للخطبة، وضع "عمر" رأسه بين راحتيه، يستمع إلى كم الصفات التي ينعت بها الشيخ المرأة تاركة الحجاب، باعتبارها عاهرة تنزل إلى الشارع بحثًا عن المتعة الحرام، ولم تخلُ الخطبة من النكات التي تعمد الخطيب إدخالها في السياق، حتى يكسب خطبته قدرًا من المرح، يجعل الأطفال لا يملون من كلماته، إلى أن اتسعت الدائرة قليلًا في ظل انضمام بعض آخر من أصدقاء "علي"، ليفاجأ طالب الثانوي بالشيخ ينهي الخطبة بمطالبة من حوله، بأن يتعاملوا مع المرأة السافرة غير المرتدية للحجاب باعتبارها "ساقطة"، يفعلون فيها ما يشاءون، حتى في عرض الشارع!

لا ينسى "عمر" أيضًا عدة جُمل التصقت بذهنه، بعدما التقى "علي" أسفل منزله، ليجده يقدم له كتابًا لسيد قطب، حيث فتح يومها "الجيولوجي" الكتاب مقلبًا بين أوراقه، لتقع عيناه على جملة واحدة، جعلته يغلق الكتاب ويضعه بين يد "الكيميائي"، عندما فتح بالمصادفة الصفحة ١١٦ في كتاب "معالم على الطريق"، ليجد الكاتب يصم المجتمع المصري بوصمة المجتمعات الجاهلية، بل وينكر إسلام المصريين، وإن صلوا وصاموا وحجوا البيت الحرام، قبل أن يطالب "قطب" جماعته "الإخوان"، بهدم وتقويض هذه المجتمعات الكافرة، ليقيموا على أنقاضها المجتمع الإسلامي.

يومها، وضع "الجيولوجي" الكتاب بين يدي "الكيميائي"، منهيًا لقاءهما دون مصافحة، قبل أن يركض إلى والده "أيوب" ليسرد له الواقعة، حيث فتح الوالد نقاشًا موسعًا حول أفكار "قطب" باعتباره رائد منهج العنف في

جماعة الإخوان، مؤكدًا أن هذه الأفكار منحت التكفيريين ساحة متسعة من التشدد الدموي؛ بدعوى إقامة المجتمع الإسلامي، ليبذلوا كل ما أوتوا من فتاوى سوداء؛ في سبيل إلصاق الكُفر بالمجتمع، واضعين البذرة الأولى للإرهاب في مصر، والتي أخذوا يروونها إلى أن امتدت فروعها في الزوايا الصغيرة بالمناطق العشوائية، لتبدأ في جذب أعضاء جدد، يهربون من الكبت والفقر إلى الجهاد المزعوم في سبيل نصرة فكرهم المتشدد.

***

وتزامنًا مع أداء "عمر" صلاة المغرب، استعدادًا للنزول إلى التحرير، كان "كامل" يترك منزله برفقة ابنته، ليستقلا السيارة في اتجاه ميدان التحرير، ويمرا على العباسية من أعلى كوبري ٦ أكتوبر وسط زحام شديد، ليسترجع المدرس مشهد معاناته الأبدية، ويظل صامتًا إلى أن وصلا لذات المكان الذي تركت فيه الطبيبة سيارتها ليلة أمس، ويترجلا بجوار أسوار جامعة الدول العربية وصولًا إلى وسط الميدان، قبل أن تصطحب الابنة أباها إلى جوار مسجد عمر مكرم، لتعيد مشاهد حريق المستشفى الميداني أمام عين "كامل" الواحدة، وهي تشير إلى الخيمة وآثار الحريق.

لم تعلم "سمر" أن لقاءً ثانيًا ينتظرها مع "عمر"، فما أن اجتازت الطبيبة مدخل الخيمة وبجوارها "كامل"، لتصافح الأطباء وتقدمهم إلى والدها، حتى رأت "الجيولوجي" يتبعهما حاملًا أحد المصابين، وحول رأسه لفافة الشاش التي أزيحت عن مكانها كثيرًا، لتمسك الفتاة بيد والدها متجهة نحو "عمر" إلى أن وجدها الأخير أمامه، بعد أن أنزل المصاب من أعلى كتفه،

ولم يكمل "الجيولوجي" رسم ابتسامة واحدة، حتى فوجئ بالطبيبة تشير إلى رأسه، قائلة في اندفاع: "حرام عليك، أنت مستهتر بالجرح"، ليتقدم "كامل" خطوة بين الطبيبة والجيولوجي، قبل أن تسيطر "سمر" على اندفاعها بابتسامة ضاحكة ارتسمت على وجنتيها، ناظرة إلى والدها ومشيرة لـــ"عمر"، قائلة بصوت مبتهج: "عمر.. منقذي".

استقبل "الجيولوجي" مصافحة "كامل" بنظرة ثابتة، استطاع بصعوبة أن يبعدها عن "سمر"، بعد أن فاجأته كلمة "منقذي"، ليشعر بما لم يشعر به طوال حياته، حتى أفاق على صوت والدها يشكره على إنقاذه ابنته، ويقول إن "سمر" سردت له تفاصيل ما حدث ليلة الأمس، ليقابل "عمر" كلمات "كامل"، مؤكدًا أنه لم يفعل سوى واجبه، وأنه لا شيء حدث يستحق هذا الشكر، ليومئ الوالد برأسه مبتسمًا من خلف نظارته السوداء، قائلًا: "عرفت أنك جيولوجي، وهذا تخصصي"، ليجيب الشاب المنقذ ضاحكًا وهو يقول: "صحيح، أنا من ضحايا الجيولوجيا".

كانت "سمر" تتابع الحوار بابتسامة رضا عن التعارف الجديد، لاحظها "عمر" قبل أن تستأذنهما حتى تذهب لإسعاف المصابين، الذين يتوافدون على المستشفى، وقتها قال "كامل" ضاحكًا: "سأجوب الميدان مع منقذك، وأعود سريعا لأكون بجانبك"، ليصيب الاحمرار خدي الطبيبة، قائلة: "سأظل هنا في انتظارك"، وبعدها خرج الجيولوجيان من الخيمة الطبية، يتحدثان عن كم المصابين الذي يتوافد على المستشفى؛ كدليل على تأجج الأحداث في نهاية شارع محمد محمود، ليحكي له "عمر" عن المواجهات

المشتعلة، إلى أن وصلا وسط الميدان، حيث خيام الثوار أصدقاء الشاب المنقذ، ليدعو الأخير "كامل" إلى حلقة ثورية وسط الخيام، يغني فيها المشاركون أغاني أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، ليلحق الجيولوجيان بالكورال الثوري المصغر، مرددين كلمات أغنية "المصطبة" مع المشاركين، ليرفعا صوتيهما مغنيين: "مصر الحبيبة الطيبة، أم البنية والبنين، إيش حالها في عز الصبا، إيش حال ولادها المخلصين، وسط العواصف مركبة، بين ريح شمال وريح يمين".

للوهلة الأولى، شعر "كامل" بأن الزمن عاد به إلى عقود عديدة، عندما كان طالبًا ثائرًا في عهد جمال عبد الناصر، ليرى نفسه في ملامح "عمر" ذات الـ٢٤ ربيعًا، وتبدأ علاقة صداقة حقيقية جمعت الجيولوجيين، خاصة بعدما تحدث مع "عمر" عن الثروات المهدرة في مصر، حيث عبر الشاب عن مدى الحزن الذى يشعر به، عندما يرى أطنانًا من المواد الخام تخرج من محاجر الدولة بسعر بخس للطن، لا يتعدى خمسة جنيهات، حسب أسعار هيئة الثروة المعدنية، في الوقت الذي يبيعه مستخرجوه من رجال الأعمال بعشرة أضعاف هذا المبلغ.

وبعد حوار متسع، استغرق نحو ساعة بين أرجاء ميدان التحرير، وتطرق للعديد من الملفات السياسية والجيولوجية، عقب خروج الجيولوجيين من حلقة أغاني الفاجومي، صافح "كامل" صديقه الجديد استعدادًا للذهاب إلى المستشفى الميداني، حتى يطمئن على "سمر"، إلا أن "عمر" أصر على مرافقته، حتى وصلا للخيمة، ليجدا الطبيبة منهمكة في علاج أحد المصابين، ويدخل الشاب المنقذ ناظرًا بثبات في عينيها، قبل أن

يشير بيده إلى "كامل"، الذي انتظر عند مدخل الخيمة، لتومئ الطبيبة برأسها إلى والدها، وترفع يدها طالبة منه إمهالها وقتًا آخر، وتعود إلى نظرة "عمر" الثاقبة، متسائلة عن حال الجرح الذي أصاب رأسه، ليجيب "الجيولوجي": "اطمني"، ويصافحها بإيماءة عائدًا إلى والدها، ليودعه فى طريقه إلى شارع محمد محمود.

***

ومع إصرار "سمر" على النزول إلى التحرير، في كل الأحداث التي اشتعلت عقب اشتباكات محمد محمود، وجد "كامل" صديقه الجديد "عمر" همزة وصل مناسبة للاطمئنان على حال ابنته باستمرار، ليتركها تذهب وحدها للميدان، معتمدًا على الاتصال بـ"المنقذ" بين الساعة والأخرى، عندما يرى المعارك تنتقل إلى جوار المستشفى الميداني، ليطمئن على ابنته، ويوصيه بمتابعتها عن كثب في حالة تأجج الأحداث، وهو ما فعله "عمر" في اليومين التاليين للقائه "كامل" في التحرير، بعدما تلقى اتصالًا من الأخير، يؤكد له فيه أن ابنته الطبيبة نزلت للميدان وحدها، ويطالبه بأن يكون العين الحارسة لها، إذا استدعت حالات الضرورة تدخله.

استجاب "المنقذ" حرفيًا لطلب "كامل"، حيث ظل في رحلة ذهاب وإياب بين خط المواجهة في نهاية شارع محمد محمود والمستشفى الميداني بجوار عمر مكرم، لنقل المصابين تارة، وللاطمئنان على الطبيبة تارة أخرى، وفي الحالتين كان "عمر" يحرص على الوقوف نحو خمس دقائق بجانب نافذة التهوية الصغيرة، التي فتحها الأطباء في الجدار القماشي للخيمة، ليتأمل ملامح "سمر" دون أن تراه، متابعًا – عن قرب – نظراتها الحانية بطبيعتها،

والابتسامة الرقيقة التي ترتسم على وجهها بعد الانتهاء من إسعاف كل مصاب، ليشتعل قلب "الجيولوجي" مع كل طلة من النافذة، وتتزايد نبضات العشق بداخله مع رؤيته لنغزتيها الرائعتين، ويحترق شوقه كلما استقبلته بابتسامة هادئة، عندما يدخل المستشفى ناقلًا مصابًا، ليتيقن أن أبواب قلبه تُفتح رويدًا رويدًا، مع كل نظرة تخرج من عين "سمر" نحوه.

تلك النظرات المتبادلة داخل المستشفى الميداني، كانت الطبيبة "شيماء" تتابعها بحرص بالغ، خاصة بعد أن ألمحت لها صديقتها "سمر" بأن ثمة علاقة قوية باتت تربط والدها بـــ"عمر"، لتبدأ الصديقة في تضييق الخناق على صاحبة النظرات الحانية، حتى سقطت الأخيرة في الفخ، عندما سألتها "شيماء": "ما رأيك في عمر؟"، لتجيب بلا تفكير بنبرة كانت جديدة على أذن السائلة، حيث قالت برقة الفتاة الحالمة: "عمر منقذي"، وقتها فاجأتها "شيماء" بسؤال خبيث، قالت: "منقذك فقط؟"، لترد "سمر" محاولة السيطرة على صوتها الخجول، قائلة بخُبث مماثل: "وصديق والدي"، لتومئ صديقتها برأسها قبل أن تطلق ضحكة لئيمة، وتقول: "سمر وقعت في الحب"، ولم تكمل "شيماء" كلماتها حتى وجدت صديقتها تركض أمامها بلهفة شديدة، في اتجاه مصاب ينزله "عمر" من على يديه، لتتأكد الصديقة أن الحب يطرق باب الطبيبة الرقيقة.

نظرات "عمر" عبر النافذة، استمرت في رسم ملامح "سمر" على جدران قلبه، إلى أن هدأت الأحداث في محمد محمود، وأصبح التحرير دون مستشفى ميداني، ليُحرم من رؤية نظراتها، وابتسامتها، ونغزتيها، ويشعر بنار تلهبه شوقًا لدقيقة واحدة بقربها، في الوقت الذي كانت فيه

علاقة الجيولوجيين تتوطد يومًا بعد الآخر، في ظل توافق آرائهما حول أمور عدة، سياسية وعلمية، إلى أن فوجئ "عمر" باتصال مصيري من "كامل" يدعوه فيه للعشاء في منزله بمدينة نصر، ليلبي دعوته دون تردد، ويجد نفسه بعد ساعتين جالسًا أمام الحبيبة إلى مائدة منزلها، ليتصبب عرقًا، وتتلعثم كلماته، على غير العادة.

كان "عمر" يصاب بالتوتر كلما وجد نظرات "سمر" تحاصره في حديثه مع والدها على المائدة، إلى أن تشجع ليجذب أطراف الحديث معها، حول المعاناة التي عاشها لمدة يومين في قصر العيني بعد إصابته بجروح خطيرة في موقعة الجمل، بينما شكت له الطبيبة من الحال السيئ الذي وصل إليه الطب في مصر، حتى انتهى الجالسون من الطعام، لتلحق "سمر" بوالدها نحو المطبخ، ويدعو "كامل" صديقه الشاب إلى زيارة غرفته الصغيرة، ليريه جانبًا من لوحاته الفنية، ويفهمه طبيعة عمله الخاص، بعد أن هرب من التدريس إلى الرسم على الملابس أو "البانتير".

وبعد ساعة قضاها "عمر" مع "كامل" في غرفة الرسم، تناولا خلالها الشاي على أغنية "الحب كده" لأم كلثوم، استأذن "المُنقذ" للرحيل، ليخرج الاثنان من الغرفة، ويصافح "الشاب" الأم، ومن بعدها "سمر"، ليشعر برعشة تجتاح جسده مع لمسه يدها، إلا أنه نجح في جمع شتات ملامحه، حتى خرج من المنزل مودعًا "كامل" على أمل لقاء قريب، ليقف على الدرج ناظرًا إلى يده، التي لمست لتوها يد "سمر"، لتعود ذات القشعريرة إلى جسده، ويقضي الطريق إلى منزله في المقطم، مغلقًا عينيه في

التاكسي، حالمًا بنصفه الآخر، الذي ظل يبحث عنه بالدنيا، ليجده مؤخرًا في مدينة نصر.

وبعد أيام، استمرت فيها مكالمات "كامل" و"عمر"، اندلعت أحداث مجلس الوزراء، التي سقط فيها الشيخ عماد عفت شهيدًا، بعد عودته من الحج إلى التحرير، ليصاب بطلقتين غادرتين على بُعد خطوات من الميدان، الذي عادت إليه "سمر" مع الساعات الأولى للأحداث، ليلحق بها "الجيولوجي" عائدًا إلى النافذة الصغيرة للخيمة الطبية، يتأمل ملامحها من جديد، ويتلقى قلبه نظراتها الحانية باستسلام تام، إلى أن فوجئ بعين الطبيبة تصيب هدفها من خلف النافذة، لتقتحم نظراتها عينه مباشرة، وسط ابتسامة ماكرة رُسمت على وجهها، وكأن لسان حالها يقول: "رأيت نظراتك عبر النافذة"، ليقابل "عمر" هجوم عينيها المباغت، بضحكة انفرجت فيها ملامحه، قبل أن يرفع يده إلى النافذة، مصافحًا إياها بأنامله عن بُعد، ليعود إلى الأحداث المشتعلة في شارع قصر العيني.

***

مصافحة "عمر" و"سمر" عبر النافذة، كانت الشرارة التي أشعلت فتيل الحب المتخفي وراء الصمت، حيث تبادل العاشقان الحديث بعدها بساعة واحدة، عندما عاد "المُنقذ" إلى المستشفى الميداني ليجد الطبيبة تستعد للرحيل، جامعة أدواتها في حقيبة الإسعافات الأولية، ليتأمل الواقف على باب الخيمة، ملامحها الملائكية، إلى أن أفاق من أحلام عشقه على صوت هاتفه المحمول، إنها مكالمة من "كامل" جاءت في وقتها، لتصحح مسار حيرته التي حاصرته مع لقائه الأول بالحبيبة الجميلة.

وقتها، رد "عمر" سريعًا، مؤكدًا لمحدثه أنه يرى ابنته أمامه تستعد للرحيل، وأنه لا داعي للقلق عليها، مع هدوء المنطقة المحيطة بمسجد عمر مكرم، ليفجر "كامل" فرحة بركانية داخل "عمر"، بطلب واحد، هو أن يعود بصحبة ابنته إلى المنزل، خاصة مع تعدي الانفلات الأمني مداه، لتعم الفوضى ربوع القاهرة، فضلًا عن أهمية حضوره حفل رائعته الجديدة، مثلما كان "كامل" ينعت لوحاته.

سمع "عمر" كلمات والد "سمر" رافعًا يده الأخرى، ضامًا قبضتها، قبل أن يحركها كالفائز، ناظرًا للسماء، لينزلها فجأة بعدما رأى الطبيبة تقف أمامه، راسمة ضحكة ملائكية على وجنتيها، تومئ برأسها يمينًا ويسارًا، في علامة على اندهاشها من نشوته العارمة، التي يعبر عنها بكل ما أوتيَ من سعادة، ليتصرف منقذها بارتباك، قائلًا بصوت يخفي ضحكة بداخله: "بابا على التليفون"، قبل أن يعطيها الهاتف وينظر يسارًا محاولًا الهروب من بسمات "سمر" الحانية، ومحركًا رأسه لأعلى وأسفل، لتراقبه الطبيبة وتزيد من اندهاشها، إلى أن قال لها "كامل": "مستنيكي أنتِ وعمر"، لتقبض الابنة يدها على الهاتف، فقد علمت توًا سبب نشوة المنقذ، لترى الأخير يوجه عينيه إليها، ناظرًا في ثبات، وكأنه شعر بقبضتها على هاتفه، في نظرة أبدية لمعت فيها أعين العاشقين.

شعر "عمر" بأن رياحًا عاصفة تقتحم جبال أشواقه، لتحول رمال الحنين إلى رمقات خيالية، تغادر عينيه لتحاصر رموش "سمر" الكحيلة، وما بينها من ثليج دافئ، يزيد بريق حدقتيهما الساحرتين، بينما تتلقى صاحبة

الرموش رمقاته، بنظرة واحدة ثابتة، لكنها تحوي الكثير، فلمعانها كالسحر، كالتعويذة التي ترفع القدمين من الأرض، ليجد المرء نفسه في الهواء، معلقًا بين سموات العشق، مرفرفًا بيديه في غلاف جوي من نسمات الفردوس، رائيًا نفسه يحتضن امرأته الجميلة في جنان الحب.

أفاق "عمر" من غيبوبة مشاعره فجأة، بعدما رفعت "سمر" يديها لتشير إلى الأمام، في علامة على بدء مشوارهما نحو منزلها، راسمة على وجنتيها بسمة رقيقة، كأنها تفتح له أبواب الدنيا على مصاريعها، ليدخل في غيبوبة عشق أبدية، من تلك الإغماءات التي يفارق فيها العشاق الواقع، نحو خيال غير محدود الأفق، يرون فيه أنفسهم يسيرون في درب السعادة، محاطين بأشجار الحب المزينة بأوراق الحنين والأنين، تلك الأوراق التي لا تسقطها عواصف الخريف.

لم يختلف حال العاشقة كثيرًا، فقد عاشت عمرها في انتظار شخص ما، في مكان ما، في وقت ما، كتب الله أن تجمعهما الأيام، مهما فرقتهما المسافات والزمن، إذ كانت تؤمن بأن الخالق ترك آدم وحواء في الأرض الخاوية، كي يتلاقيا في موعد حدده، بعد أن ظلا نصفين هائمين يبحثان عن الكمال، لتجتمع روحاهما في كيان واحد، وينهيا سنوات من الحرمان والوحدة، ويكملا ما تبقى لهما من العمر، يعمران الأرض عشقًا.

شعرت "سمر" منذ نظرة الأمان، التي انطلقت من عيني "عمر"؛ وهو يحملها من وسط النيران على يديه، بأن آدم يطرق بابها باحثًا عن نصفه الثاني، خاصة أن كلمات "ما تخافيش.. أنتِ في أمان"، كانت لها وقع

مختلف على قلب الفتاة الحسناء، رغم هول فزعها من ألسنة اللهب، الذي سيطر عليها قبل سماعها تلك الكلمات، حتى شعرت بأنها كالطفلة التائهة التي التقطتها يد حانية من متاهة، لتقضي ليلتها الأولى في عمر عشقها الأبدي، هائمة على وجهها، تتخيل أن الحريق شب في الخيمة بإرادة قدرية بحتة، حتى يحترق معطفها، وتسقط وحدها وسط ١٢ طبيبًا وطبيبة بين النار؛ كي يمنحها القدر "عمر"، لتشعر بما لم يتصوره إحساسها طوال سنوات قضتها في خيال حالم، ترسم من خلاله ملامح فارس أحلامها، التي انطبقت للوهلة الأولى على وجه الفارس المنقذ.

الطريق من التحرير إلى مدينة نصر، شهد بداية تلميح "عمر" عن بعض ما بداخله، فبعد أن تحدث "الجيولوجي" و"الطبيبة" حول الأحداث المشتعلة أمام مجلس الوزراء، باغت المنقذ قائدة السيارة، قائلًا: "أخذت يومين أبحث عن حسابك على فيس بوك، إلى أن وجدته، لكنني لم أضمك لقائمة أصدقائي"، لترد الفتاة بنظرة ثاقبة تؤكد إدراكها أن مرافقها يريد فتح باب جديد للتواصل معها، قائلة: "ولِمَ لا؟! سأنتظر إضافتك".

عندها، شعر "عمر" بأن الإعصار الذي اجتاح قلبه، لم يطله وحده، خاصة أن الفتاة الجميلة قالت كلماتها بابتسامة خجولة، أيقن منها أن ما بداخله، بات شيئًا مباحًا، وأن نهاية عذاب حبه الصامت قد أوشكت، ورغم ذلك، قضى الحبيبان ما تبقى بالطريق في صمت أزلي، فقد علما أن حديثهما الخجول أنهى الحلقة الأولى في مسلسل عشقهما الأبدي، لينظر كل منهما أمامه، هائمين في خيالهما، يكتبان تصورًا لباقي حلقات الحب المنتظرة.

وبعد عشر دقائق من الصمت، قضاها العاشقان الجديدان في مملكة الحب الحالمة، وصلت السيارة إلى شارع مصطفى النحاس، لتقف "سمر" أمام منزلها، قبل أن يصعدا الدرج، وتبدأ ثاني نظرات العشق الممتدة أمام باب المنزل، حتى أفاق "عمر" من رمقات الرموش الكحيلة، التي انتزعت إحساسه انتزاعًا، على صوت "كامل" يدعوه لدخول المنزل، بعد أن فتح الباب، ليجد نظرة شغف تجمع الواقفين أمامه، أيقن الأب من خلالها أن الحب يطرق أبواب ابنته، ليدخل بصحبة "عمر" إلى غرفة الرسم، ويستمعا من جديد لأغاني أم كلثوم، قبل أن يباغت ضيفه بكلمتين مفاجئتين، قال: "شكللك بتحب!"، ورغم تيقن "عمر" أن صديقه العجوز قد شعر بما يتوهج بداخله، إلا أنه لم يحرك شفتيه بكلمة واحدة، حيث أجاب عن الكلمتين بابتسامة ساخرة، وإيماءة برأسه أخفت وراءها سعادة بالغة، ليكملا سماع أغنية "ألف ليلة وليلة"، وسط نظرات خبيثة ضاحكة، تؤكد علم كل منهما بما يدور في ذهن الآخر.

ومع صباح الليلة الخيالية التي قضاها "عمر" في منزل "كامل"، بدأ الحبيبان التواصل على "فيس بوك"، متحدثين عن أمور الحياة ومعلقين على أحداث ذكرى ٢٥ يناير الأولى، إلا أنهما كانا حريصين على إلقاء كلمات تضفي لمعانًا على حبهما الذي يزداد يومًا بعد الآخر، ليبدآ في إنهاء محادثتهما بطلب متبادل بأن يحرص كل منهما على نفسه في اليوم التالي، إلى أن بات المتحدثان ينهيان حديثهما بالشهادتين، ويتحدثان عن وجهة نظر كل منهما عن الحب، لتُلمح "سمر" إلى فكرة تلاقي آدم وحواء، ويقابل "عمر" تلميحها بجملة فتحت مسارًا جديدًا للمحادثة، عندما قال: "أرى فيكِ ملامح أميرة أحلامي"، لترد العاشقة المتفاجئة بجملة واحدة: "أحلامك تخالف الواقع".

وقتها، وجه "عمر" سؤالًا بسرعة فائقة، قائلًا: "لماذا لا نجعل أحلامي واقعًا؟"، لتجيب "سمر" واضعة صورة لابتسامة بجوار كلماتها، قائلة: "لأن الأميرة مازالت تسكن في منزلها، بعيدًا عن أحلامك"، ليعلم العاشق الجريء أن أميرته تفتح له أبواب مملكتها على مصاريعها، ويقرر أن يدعوها إلى رحلة لمملكته الخاصة، تتزامن مع عيد الحب في ١٤ فبراير المقبل، لتنطلق قصة حبهما من مكان أسطوري، وينضما إلى عشاق العالم المخلصين، بعد أن خرجا إلى رحلة خيالية، بين السهول والوديان والجبال، ليكتب "عمر" كلمة "بحبك" على الرمال لأول مرة، بعدما طالب "سمر" بأن تغمض عينيها، وهي تجلس أعلى هضبة صغيرة؛ كي يريها شيئًا نادرًا، حيث كان الحبيب الجريء قد استرد يومها صخرة "القلب"، التي منحها لـــ"أيوب" بعد عودته من سيناء، حتى يزين بها كلمة العشق على رمال الصحراء.

***

# اللعوب الفاضلة

وبعد محاولات "سمر" البائسة للنوم، عقب استيقاظها في الثالثة صباح اليوم الأول لعام العزلة الثاني، علها ترى "عمر" مرة أخرى في منامها، لتكمل حلمها الخيالي الذي ذكرها بيوم لقاء حبيبها الأول، لم تجد الحبيبة الثكلى أمامها سوى هاتفها، لتمسك به باحثة في ملف الصور عن لقطة نادرة جمعتها بـــ"عمر" بعد أن قررا الترجل على كورنيش "منيل الروضة"، عقب وداعهما "الحاج محمد" في أيامه الأخيرة، لتتذكر المفاجأة التي فجّرها حبيبها قبل أن تجمعهما الصورة، بعدما كشف حقيقة المذيعة "رانيا"، التي لم تكن تتوقعها الطبيبة على الإطلاق.

استعادت "سمر" تفاصيل أول لقاء جمعها وحبيبها بالمذيعة في استوديو قناة "الحقيقة"، بداية أغسطس ٢٠١٢، عندما استضافتهما في خيمة رمضانية، للتعليق على سير البرنامج الرئاسي لمحمد مرسي، بعد شهر ونصف من وصوله لكرسي الحكم، باعتبارهما من الشخصيات الفاعلة في الثورة المصرية، عندها تحمس "الجيولوجي" للغاية، للدرجة التي دفعته لسب تنظيم الإخوان على الهواء ليشبههم بـــ"الخرفان"، مؤكدًا أنهم استغلوا فقر المواطنين البسطاء، كي يحصلوا على أصواتهم مقابل منحهم ما

يسد أفواه أبنائهم الجائعة، من الأرز واللحوم والزيوت، فضلًا عن اتخاذهم الدين سبيلًا للوصول إلى غاياقم؛ باللعب على النزعة الدينية التي تملأ نفوس المصريين، إلى أن تسلموا مقاليد السلطة، لتذهب كل وعودهم سدى، وتكشف الأيام أن مشروع "النهضة"، الذي تشدقت به قيادات التنظيم في رحلتهم للحكم، لم يكن سوى وهم، أو بالون مملوء بالهواء، سرعان ما انفجر في وجه نافخيه.

لم تقاطع المذيعة "عمر"، أو تحاول جذب الحديث إلى شأن آخر، ليواصل الثائر فتح النار على الجماعة، بينما كانت "سمر" تجلس بجانبه في الاستوديو، تومئ برأسها تعبيرًا عن قبولها التام لتصريحاته، وتشاركه في تذكر معلومات مهمة عن الأعداد الفعلية للتنظيم، الذي لا يزيد أعضاؤه على ٣٠٠ ألف إخواني، إلى أن تحدثت الطبيبة عن كواليس وصول الإخوان إلى الحكم، حيث ملكت زمام الحديث – مستأذنة شريكها في الحوار – لتؤكد أن الجماعة مارست العديد من الضغوط على المجلس العسكري، الذي كان يمسك بزمام الأمور في البلاد قبل الانتخابات الرئاسية، كي تصب النتيجة في صالح مرشحها، بعد أن حشدت أعضاءها في الميادين، لتهدد بـــ"تفجير مصر" إذا لم يصل "مرسي" لكرسي الحكم.

بعد انتهاء الحلقة، أبدت "رانيا" إعجابها بحديث ضيفيها، لتطالبهما بأن يكونا ضيفين دائمين في برنامجها، وتتبادل مع "سمر" رقم الهاتف، وحسابات "فيس بوك" حتى يستطيعا التواصل، ومن يومها بدأت المذيعة في التحدث إلى الطبيبة يوميًا، خاصة بعدما علمت أنها تقيم بجانبها، عقب انتقالها مؤخرًا

من شقتها في المعادي لمدينة نصر، لتبدآ صداقة على الهامش، تتحدثان في إطارها عن بعض أمور السياسة، إلا أن "رانيا" كانت تحرص دائمًا على متابعة أخبار "عمر"، لتسألها عن عمله وتطورات علاقتهما المنتظر أن تخرج إلى النور.

واصلت المذيعة تقربها إلى "سمر"، محاولة معرفة أكبر قدر من حياتها الشخصية، للدرجة التي دفعتها يومًا للتساؤل عن سر تأخر خطوبة الحبيبين رسميًا، خاصة بعدما علمت من الطبيبة أن حبيبها صاحب علاقة جيدة جدًا بوالدها "كامل"، للدرجة التي تدفعهما إلى التلاقي بمنزلها كثيرًا، ليجلسا في جدل سياسي مستمر أثناء تناولهما العشاء، الذي كان الوالد يحرص على دعوة "الجيولوجي" إليه بين الحين والآخر، حتى يشعر الحبيبان بأن علاقتهما تبعد كل البعد عن العلاقات المظلمة، التي لا سند لها، لذلك كان يطلق "الوالد" لوحاته الجديدة في حضور "عمر".

يومها، أجابت "سمر" لتنهي تسلط المذيعة، مؤكدة أن "عمر" ينتظر العمل في شركة للتعدين، حتى يخطو رسميًا في علاقتهما، ومع الأيام، أخذت علاقة المذيعة والطبيبة تتزايد، خاصة بعد أن أعجبت الأخيرة بظواهر التدين التي تراها من جانب "رانيا"، إذ اتفقتا في هذا الوقت على أن تؤديا صلاة التراويح معًا، في أحد المساجد الكبيرة بمدينة نصر، لتأتي المذيعة بسيارتها إلى منزل الطبيبة يوميًا، حتى تذهبا للمسجد، ثم تعود بها إلى حيث أخذتها، لتنطلق مسرعة حتى تلحق بفعاليات الخيمة الرمضانية، التي كانت تنظمها قناتها حتى موعد السحور طوال الليالي الرمضانية.

وبعيدًا عن صلاة التراويح، كانت "رانيا" سببًا لأول خلاف طرأ بين الحبيبين منذ لقائهما في أحداث محمد محمود، عندما أبدى "عمر" تشككه في أخلاق المذيعة، مؤكدًا أن كثيرًا من الشبهات تحوم حولها، وهو الأمر الذي قابلته "سمر" برفض بالغ، لتشدد على تمسك المذيعة بدينها، بدليل ذهابهما معًا إلى المسجد، إلا أن الحبيب أصر على رأيه، مطالبًا إياها بأن تقلل من التواصل معها، لتستجيب عاشقته في النهاية، رغم تحفظها على ما قاله، وعدم اقتناعها به.

***

وسرعان ما اتفق رأي "سمر" مع عاشقها، بعد أن خرجا من مستشفى قصر العيني، ليقررا الترجل على قدميهما في اتجاه كورنيش منيل الروضة، حيث كان "عمر" يعشق هذا المكان، ليقضيا "الفلانتين" على شاطئ النيل، إلى أن يتأخر الوقت قليلًا، علّ قائد "ونش المرور" يعود ليطلق سراح السيارة، خاصة بعد أن أعطى "الجيولوجي" رقم هاتفه لبائع الورود المقابل لأبواب المستشفى، الذي اشترى منه الباقات الساحرة، ليطالبه بأن يتصل به حال وصول "قائد الونش"، وهو ما تأخر كثيرًا.

وقبل أن يطرأ حادث استثنائي في هذا اليوم؛ أطفأ بهجة الحبيبين بعيد الحب، رغم استعادتهما إياها بعد ساعتين إثر مفاجأة سارة، قال "عمر" لعاشقته إنه فوجئ بـــ"رانيا" تضيفه إلى قائمة أصدقائها على "فيس بوك"، لتبدأ معه حديثًا مطولًا، بدأ بالاطمئنان عليه وعلى "سمر"، إلى أن ألقت المذيعة بعدة كلمات لم يفهمها، تؤكد إعجابها بشخصه وثوريته النادرة،

ليجدها مرة واحدة تطلب رقم هاتفه، معللة طلبها برغبتها في التحدث ببعض الأمور السياسية، وهو الطلب الذي لم يجبه "الجيولوجي"؛ بعد أن سجل خروجه من موقع التواصل الاجتماعي.

نقل "عمر" لحبيبته أيضًا رسالة تلقاها من "رانيا" عبر الموقع، تسأله فيها عن الوقت الذي يناسبه للظهور في برنامجها، إلا أن الحبيب لم يرد للمرة الثانية، ليفاجأ برسالة ثالثة، تؤكد له المذيعة فيها أنها تريد مقابلته على انفراد، حتى تناقش معه بعض المشاكل التي تحاصر حياتها الشخصية، في ظل وحدتها واحتياجها شخصًا تفتح له قلبها، ثم أخرج "الجيولوجي" هاتفه المحمول من جيبه، لتتلقى "سمر" الصدمة الكبرى.

فوجئت العاشقة بحبيبها يريها رسالة مصيرية، وصلت إليه — على "فيس بوك" – قبل أن يصل إلى المستشفى للقائها، إذ تضمنت كلماتها تأكيدًا من جانب "رانيا" بعدم أخذها في الاعتبار العلاقة التي تربط العاشقين، خاصة أنها لا تمنعها من أن تستمع بأوقات لطيفة مع "عمر"، بعيدًا عن مسألة حبه لـــ"سمر"، لتنهي الأخيرة قراءة الرسالة بغضب بالغ، بعد أن صُدمت في الإنسانة التي وجدتها تصلي إلى جوارها بكل خشوع، معتذرة لعاشقها عن جدالها الذي استمر طويلًا، بعدما حذرها من شكوكه حول المذيعة، وكشفت الأيام صدقها.

***

قبل أسبوعين من لقاء الحبيبين الأول بــ"المذيعة"، كانت الأخيرة قد بدأت علاقتها بالقيادي الجهادي مجدي عبد القادر - والد الكيميائي "علي" جار "عمر" - بعد أن خرج من حجرات مظلمة، يعلم الله وحده ما كان يفعل فيها الجهادي، أو "شديد" مثلما كان يناديه أقرانه؛ الذين عاشروا بعضهم البعض في زنزانة واحدة لسنوات طويلة؛ قبل اقتحام السجون على خلفية انتفاضة ٢٥ يناير.

وبعد هذا الاقتحام، عاد القيادي الجهادي إلى الأضواء مجددًا، نجمًا للفضائيات عقب الإطاحة بنظام مبارك، متحدثًا باسم الثورة، رغم أنه أباح دماء العشرات من ضباط مصر في حوادث إرهابية شهدها البلاد مع نهاية الثمانينيات، وسرعان ما حوّلت الأيام "مجدي" إلى رمز لتيار متطرف، تحالف مع جماعة الإخوان في رحلتها إلى السلطة، ليستعيد مكانته البرلمانية المرموقة، التي حصل عليها بجلوسه تحت قبة البرلمان، عقب انتخابات عام ٢٠٠٥، قبل أن يصل إلى المجلس مرة أخرى عبر الانتخابات، التي اجريت بعد أيام من أحداث محمد محمود الأولى، وأول أحداث حب "سمر" و"عمر" أيضًا.

لم يخرج "شديد" من ظلام السجون إلى أضواء السلطة بلا تضحيات، فثمة أمراض نفسية وجنسية كثيرة أصابته، لتطغى عليه شهوات محرمة، كان يتزوج عرفيًا في سبيل إفراغها بصورة شبه شهرية، خاصة أن بعض زوجاته المؤقتات كن يرفضن إشباع غرائزه الشاذة، كارهات أو مشمئزات أو مراعيات حرمانية أفعاله، رغم أنه كان يحاول إقناعهن بشتى الطرق،

حتى لو استدعى الأمر الاستشهاد بالدين، في سبيل تأكيد أن ما يحاول فعله ليس محرمًا، ضاربًا عرض الحائط بكل مفاهيم الإسلام وتعاليمه للوصول إلى نشوته الحيوانية.

وبعد ١٥ زيجة، أتمها "مجدي" خلال ١٩ شهرًا تلت هروبه من السجن، وجد الجهادي الشهواني ضالته في "رانيا"، ليتقرب منها بعد أيام قليلة من لقائهما الأول، الذي شهده استوديو قناة "الحقيقة" في القاهرة، عندما خرج مدافعًا عن جماعة الإخوان، أمام الغضب الشعبي الذي تصاعد بسبب عدم تحقق الوعود، التي أطلقها "محمد مرسي" في برنامج "المائة يوم" الأولى لحكمه، ما دفع الموالين للتنظيم الإرهابي إلى احتلال شاشات الفضائيات لعدة أيام، في غزوة التأييد الأولى للرئيس الإخواني، التي خرج منها "مجدي" بغنائم سياسية عديدة، وغنيمة جنسية لا يكررها الدهر بين سبايا غزواته النسائية؛ إلا نادرًا.

وبقدر ما فرح البرلماني بغنيمته الجديدة، وجدت "رانيا" فيه أيضًا مكسبًا ثمينًا، قادرًا على دفع مصيرها في اتجاه آخر، مثلما فعل "مدحت" قبل عشر سنوات، إذ طرأ تحول مصيري في حياتها، جعلها تنظر للحياة بصورة مغايرة، لتكون قادرة على انتزاع ما تريد ممن تريد، وتصل إلى أهدافها بسهولة بالغة.

***

طفولة "رانيا" لم تكن عادية، فهي ابنة "سيف" العامل البسيط، الذي بدأ حياته في إحدى شركات القطاع العام، إلى أن خصخصتها الحكومة في

بداية الألفية الثانية، ليجد نفسه في الشارع كبقية عمال الشركة، بلا مصدر رزق يسد به أفواه أبنائه الثلاثة، ويضطر إلى العمل بشهادته الإعدادية في شركة للأمن الخاص، مقابل ٢١٠ جنيهات شهريًا، إلى أن مات في بداية عقده الخامس، دون أي مقدمات، بعد ١١ عامًا استمر فيها بعمله الجديد، كان يمر خلالها يوميًا على شركة الثلاجات العظيمة، التي قضى فيها ٢٠ سنة من عمره، قبل أن تباع للمستثمرين الأجانب بمقابل بخس، ليجد المباني حطامًا، والأراضي تحولت إلى وكر للخارجين عن القانون، الذين حولوا ساحة الشركة إلى مقر لجرائمهم، بعدما نهب أصحابها الجدد خيراتها من أحدث المعدات والآلات والمركبات، ليتركوها عائدين إلى بلادهم.

أما الأم "سوسن" أو "سوسو"، مثلما كان يناديها المقربون، فكانت مثالًا للفجور، لعوبًا بطبعها، إلا أن الفقر زادها طغيانًا في المتعة الحرام، لتستغل غياب زوجها طوال ١٢ ساعة، يعمل بها حارسًا لعقار علي كورنيش مصر القديمة، وتخرج من منزلها في "دار السلام" إلى أرقى شوارع المعادي، في انتظار زبون يقضي لها حاجاتها المادية، ورغباتها الجنسية أيضًا، تاركة أبناءها في غرفة صغيرة من ضمن ٤ غرف يقيم فيها باقي أشقاء "سيف" وزوجاتهم وأبناؤهم، حتى تعود في الثالثة فجرًا قبل عودة زوجها بساعتين، بحجة عملها ممرضة في أحد المستشفيات، الذي كانت تذهب إليه مرة واحدة أسبوعيًا؛ لرشوة موظف شئون العاملين جنسيًا، فقد كانا يخرجان من المستشفى في اتجاه شقته، بعد جلسة صغيرة داخل مكتبه؛ يرتبان فيها كيفية الهروب من توقيع كشوف الحضور والانصراف.

نشأت "رانيا" بين عيون جائعة لكل ملذات الحياة، وأجساد أحرقتها الأصوات الساخنة التي تضرب جدران الغرف ليلًا، عندما كان يجامع أحد أعمامها زوجته، بينما يدخل أبناؤه في نوم وهمي، مراقبين تقلبات والديهما وتأوهاتهما، مثلما كانت تفعل ابنة "سيف"، لتسمع أصوات أمها توجه والدها إلى تقبيلها أو لمس صدرها، إلى نهاية علاقتهما الحميمية، لتستثار الطفلة قبل أن تكمل العاشرة، وتبدأ مع ابن عمها؛ الذي كان يقيم بالغرفة المجاورة لها، في تمثيل أدوار العريس وعروسه داخل عشة الدجاج؛ على سطح منزلهما المكون من طابقين، حيث كان العريس الصبي الذي يكبرها بثلاث سنوات، يراقب ذات التقلبات سامعًا نفس الأصوات؛ أثناء نومه أسفل سرير والديه في الشتاء، وبجانب أعمدته صيفًا، ليبدآ حياة جنسية خاصة بهما، كانت تتسارع أهدافها يومًا بعد الآخر، إلى أن أهدتها أمها اللعوب حلًا سحريًا يكمل نشوتها بعد سنوات قليلة.

فبينما كانت الابنة التي لم تكمل عامها الرابع عشر؛ تسير بجانب والدتها في أحد شوارع المعادي، التقط زبون قديم لـ"سوسو" صبية متأججة الملامح الأنثوية تسابق أقدامها لعوبه الحسناء، ليكبح سيارته فجأة، وتفاجأ السائرتان بزئير محركها يحاصرهما، لتتحول ملامح المفاجأة على وجه الأم إلى علامات سرور مبالغ فيه، فقد وجدت ضالتها التي بحثت عنها أسابيع طويلة، بعد آخر لقاء جمع بينها وبين "مدحت"؛ رجل الأعمال الذي ينفق ببذخ، ويعطيها ما تريد دون حساب، لذلك توجهت "سوسو" مسرعة بابتسامتها المتسعة نحو النافذة المجاورة للسائق، وعلى وجهها ملامح الترحيب والأشواق، ليقابلها الأخير متفحصًا ثنايا جسد الصبية عن كثب، عارضًا على الأم وابنتها توصيلهما إلى وجهتهما المقصودة.

إلا أن حادثًا كان يسيطر على تفكير الفتاة المراهقة في هذا التوقيت، إذ كانت قد تشاجرت مع ابن عمها قبل خروجها مع "سوسو" بيومين، بعد أن أبدى لها ملله الشديد من استمرار علاقتهما على وتيرة واحدة، وتوقفهما عند حد بكارها، عقب أحضان عاتية كانت تثير صياح ديوك العشة، وتحركات كانت تضرب أركان مكانهما المعهود، تخترقها قبلات عديدة تلهب أنفاس الحبيبين، حتى تنطفئ النار التي تحرق جسديهما، مفرغين رغبتهما قبل بحث خطط النزول من السطح، دون أن تلاحظ الأعين تواجدهما معًا في توقيت واحد بالأعلى.

انتهت تلك المشاجرة بحرمان المراهقة والفتى من خلوهما، بعد أن أسرعت "رانيا" نحو الدرج خائفة من ملامح هور ملأت عيني ابن عمها، جعلتها تخشى أن يفاجئها أثناء اشتعالها نشوة؛ بما لا تحمد عقباه، خاصة أنه قد حاول على مدار الأيام السابقة الإقدام على فعل ما، كاد يحدث لولا الخبرة التي اكتسبتها الصبية طوال ٣ سنوات في العشة، حيث استطاعت بسرعة فائقة إبعاد نفسها عن الخطر، مستيقظة من نوبة شهوها، وهو ما تعهد الفتى بعدم السماح لها بتكراره، مهما حدث.

الخوف الذي تأصل في ذهن "رانيا" من هور ابن عمها، كان يسيطر عليها ليجعلها غير مهتمة بما يحدث أمامها في المقعدين الأماميين للسيارة، بعد أن استقلتها بدقائق، إلا أنها تركت النظر عبر النافذة متفاجئة بضحكات "سوسو" تعلو، مطالبة "مدحت" بوقف تقدم يده نحو شيء ما في جسدها الملتهب، غير مبالية بجلوس ابنتها في المقعد الخلفي، لتصل ضحكاها إلى حد الصخب، عندما سألته بعلو صوها: "خلاص ارتحت؟"، ليجيب في نهم: "لسه.. لسه"، ويواصل عبثه في أرجائها الساخنة، لتتذكر

"الابنة" على صوت عبثهما، عزف فتاها على أوتار أنفاسها المتأججة؛ لألحان زمن العشة الجميل!

ومع إخماد "مدحت" ثورة "سوسو" العارمة، التي دفعتها إلى استبدال جلستها على الكرسي الأمامي مرات عديدة، كانت الفتاة قد انتهت من مسلسل ذكرياتها مع ابن عمها، الذي استعادت مشاهد منه خلال سماعها ضجيج صوت كرسي أمها؛ بعدما كادت تحركاتها السريعة أن تنتزعه من مكانه، لتجد "الابنة" أنفاسها تتسارع وتتسارع، إلى أن عادت للسكينة مع زفرة قوية أطلقتها، والتقطها السائق المتحمس للزفرات، ليعلم أن هدفًا آخر بات على مقربة منه، ومن هنا بدأت العلاقة، التي جعلت مصير "رانيا" ينقلب رأسًا على عقب.

***

حياة "رانيا" تحولت كثيرًا منذ استقلالها سيارة "مدحت"، حيث اصطحبهما رجل الأعمال حينها إلى أكبر المولات التجارية على الطريق الدائري، الذي سلكه حتى يهرب من نظرات قائدي السيارات حوله، وهو يتحسس جسد "سوسو" الثائر، ليتركوا السيارة ويترجلوا في جولة كبيرة بالمول، انتهت بشراء عدة ملابس للفتاة ضئيلة القوام ذات الملامح الأنثوية المتفجرة، ليعرض عليهما "مدحت" الذهاب للعشاء بالهرم، حتى يشاهدا شقته الجديدة المبهرة، لتوافق الأم الساقطة بلا تردد، وتكتب بيديها ميلاد الشهوة الشاذة بجسد ابنتها.

بعدما وصل الثلاثي المملوء بالرغبة إلى الشقة، همت "سوسو" بخلع ردائها الأسود الطويل، نازعة حجابها لتُظهر شعرها الناعم اللامع، حتى تبقت ملابسها الداخلية في اشتياق إلى اللحاق بالرداء، ليهم عليها "مدحت" بوابل من القبلات الساخنة، ويرتمي بجسدها على أحد الجدران، ويلتهمها حد الافتراس، قابضًا بيده على ظهرها الدافئ، قبل أن يتركها عابثًا بأصابعه في كل مكامن استثارها، بينما استلقت الابنة على الأريكة المقابلة لجدار الشهوة، قابضة شفتيها وهي تتابع ما يجرى أمامها، لتلاحظ أمها وسط الاجتياح المنظم لجسدها نظرات ابنتها الثاقبة، وترفع صوتها سائلة "رانيا" بضحكة صاخبة ساخنة: "بتبصي على إيه، يا سافلة؟!"، ثم عادت همس في أذن رجلها المتوهج تطالبه بدخول غرفة النوم، حتى لا تكمل ابنتها مشاهدة ما تبقى من لقائهما الساخن.

لكن كان لـــ"مدحت" رأي آخر، عندما رأى عين الفتاة تكشف عن ثورة عارمة بداخلها، ليتجرأ قائلًا لـــ"سوسو": "هدخل الأوضة، لكن مع رانيا"، وقتها لم تجد الأم ما تقوله، خلعت جسدها من بين أحضانه؛ كأنها تنسحب مهزومة من معركة خاسرة، رافعة صوتها بحدة في اتجاه ابنتها، قائلة: "قومي شوفي الشقة مع عمو"، لتعلم الفتاة الساخنة أن أمرًا ما بات على وشك الحدوث، قد يُخرج شهوتها التي كانت تطرق أبواب ثناياها، خاصة بعد أن نظر إليها "مدحت" بذات النظرة الساخنة، التي تنطلق من عين ابن عمها، قبل أن يدخلا إلى العشة المملوءة بذكريات عشقها الجسدي.

أقدم الرجل الثائر على الفتاة، ليحملها من مجلسها على يديه مداعبًا أردافها الرقيقة، وسط نظرات خشية من "سوسو"؛ متوقعة أن تفعل ابنتها ما ينغص مزاج "مدحت"، إلا أن "رانيا" لم تبد أي مقاومة، حتى أوصلتها عينا والدتها إلى باب غرفة النوم، قبل أن يُغلق لمدة نصف ساعة، انتهت بصرخة عمت أرجاء الشقة، خرجت الابنة بعدها من الغرفة مهرولة، تشكو من ألم حاد أصاب مؤخرتها، لترد "سوسو" على صراخ ابنتها ردًا كان في غاية الغرابة، قالت: "وماله، مش بيدينا فلوس!".

ما حدث بالغرفة سوف تذكره "رانيا" ما حيت، إلا أنه سيطرأ على ذهنها بشدة، في أول لقاء جنسي يجمعها مع الجهادي "مجدي"، رغم أنها فعلت ذات الفعل كثيرًا وكثيرًا في حياة "مدحت"، وبعده مع العديد، لكن هياج البرلماني كان يشبه إلى حد كبير، حدة مشاعر رجل الأعمال المنتصبة، التي فتحت لها بابًا جديدًا في عالم الجنس، جعلها تعود إلى العشة مرفوعة الرأس، غير مبالية ببكارة قد تُفض، أو شيءٍ قد يُلهب أحشاءها!

***

# العاشق الأعور

جاءت الرابعة صباحًا على "سمر"، الراقدة بسريرها تستعيد مشاهد من احتفالها التاريخي بعيد الحب مع "عمر" – بعد وداعهما الحاج محمد في عنبر قصر العيني – وهي تبدأ يومها الأول في عام الوحدة الثاني، متذكرة كلمات حبيبها على كورنيش منيل الروضة، فبعد أن كشف "عمر" عن حقيقة المذيعة "رانيا"، جلس الحبيبان على شاطئ النيل، يتأملان ثنايا أمواجه القصيرة، إلى أن اقترب منها العاشق قائلًا: "أرى ملامحك في صفاء المياه، أحبك مقدار قطراتها"، لترد الحبيبة الفاتنة هامسة: "أنهار العالم لا تتحمل شدة تيار حبي لك"، ليمسك عاشقها بيدها، ويتأمل عينيها، قائلًا: "اليوم فارق في حياتنا".

وأمام إصرار الحبيبة على سماع تفسير لجملة "عمر"، لم يجد الحبيب سوى التقاط هاتفها من يدها الأخرى، ليبدأ في تسليط عدسته عليها، ملتقطًا صورة بدت فيها ملامح "سمر" كالطفلة الصغيرة، التي تنظر لبالون بألوان قوس قزح، قبل أن ينادي فجأة على العاشق المجاور له في ملتقى الأحبة، طالبًا منه أن يلتقط لهما صورة، ليقترب إلى حبيبته الفاتنة، في لقطة تلونت بتموجات مياه النيل.

ولم تمر دقائق على إمساك الحبيبة الشكلى بهاتفها، حتى وجدت تلك الصورة، لتنفرج ملامحها وهي ترى ضحكة "عمر"، التي اشتاقت إليها طوال ليالي الفراق، وترسم ابتسامة على وجهها، متذكرة إحساسها بالنبأ السار المفاجئ الذي كان ينتظرها في قسم شرطة مصر القديمة، بعد ساعة ونصف قضاها حبيبها منتظرًا رئيس المباحث، حتى يبت في أمره، على خلفية مشاجرة عنيفة شهدها الكورنيش، بمرور دقيقتين على التقاط العاشق المجاور لصورة الحبيبين.

كان "الجيولوجي" قد فوجئ برجل عريض المنكبين يناديه على بُعد مترين، ليذهب إليه، ويطالبه الأخير بإخراج إثبات شخصيته، ويخبره بأنه أمين شرطة، قد شاهده وهو يقبل مرافقته على الكورنيش، لينظر إليه العاشق الذي كان يمسك بيد حبيبته؛ نظرة ثاقبة، امتزجت فيها الصدمة بالغضب، وهو يمد يده ببطاقته، قبل أن يقول للأمين: "بطاقتي معك.. لكن احترم نفسك"!

صُدم "عمر" مرة أخرى، بعدما طالبه الرجل بأن يحضر له إثبات شخصية "سمر"، ليرد عليه بحدة: "لا"، ليجيب الأمين في ثبات تام: "يمكننا حل المشكلة، بأن تُخرج ما في جيبك"، حتى وجد الشاب نفسه فريسة لابتزاز واضح وصريح، ليرفع صوته بحدة مرة أخرى قائلًا: "لا، لا، لا"، وسط إصرار من الرجل على رؤية بطاقة من تجلس إلى جوار "الجيولوجي"، حتى نهره الأخير بشدة، كان مقابلها صفعة أخطأت هدفها، ليرفع "عمر" صوته، متفاديًا بيده صفعة أخرى للأمين، قبل أن يتجمع أفراد الشرطة

وعشاق الكورنيش حولهما، والذين استطاعوا بأعجوبة أن يفكوا تلاحم المتشاجرين، إلى أن وقفت عربة شرطة أخرى خرجت عبر شارع جانبي بالمصادفة هروبًا من ازدحام الشوارع الرئيسية، ليستغيث الأمين بالملازم الذي يستقلها، وتطرأ أزمة كبيرة أضاعت أجواء الكورنيش الهادئة، إلا أن نهايتها كانت غير متوقعة، بالمرة.

***

وبعد أن تأملت "سمر" الصورة على شاشة هاتفها، قررت أن تخرج من صومعتها، لأداء صلاة الفجر، لتصل إلى غرفة الاستقبال بعد الوضوء، وترى والدها – كالعادة – تقرأ القرآن على الأريكة، وتبدأ الابنة في صلاة خاشعة، تضرعت فيها إلى ربها بأن يجعل "عمر" لها وحدها في الجنة، لتنهي صلاتها وتجلس بهدوء إلى جوار "سلوى"، حتى رفعت الأخيرة صوتها بـــ"صدق الله العظيم"، منهية قراءتها كلمات الله، ملتفتة إلى ابنتها بنظرة حانية، قبل أن تضع يدها على شعرها، لتُقربها إليها، واضعة قبلة على جبين الفتاة المعذبة، لتقابل "سمر" قبلة والدتها بالمثل، وتتعانقا على كلمات الابنة، قائلة: "ادعيلي يا ماما"، لتجيب الأم نداء ابنتها، رافعة رأسها إلى أعلى، بدعاء: "يا رب احرس سمر، واكتب لها الهنا في الدنيا".

استقبلت الابنة دعاء والدتها عائدة برأسها من أعلى كتفها، راسمة ابتسامة صفاء على وجهها، قائلة: "عاوزة أقولك حاجة يا ماما"، قبل أن تُخرج هاتفها من جديد لتضعه أمام عيني "سلوى"، لترى الأخيرة صورة ابنتها مع "عمر" على شاشة التليفون، بينما رفعت الابنة صوتها، مؤكدة أنها تريد طباعة الصورة لتكون معها في رحلتها التي ستنطلق باليوم التالي،

لتقابل الأم كلمات ابنتها بنظرة حنونة، كادت تترجم إلى دموع، لولا سيطرة الأم على كلماتها، لترد بصوت حانٍ وضاحك في آن واحد، قائلة: "الحب لا يموت في هذه العائلة الغريبة".

رسمت "سلوى" ضحكة محاولة إخفاء ملامحها الحزينة، لتبدأ في الحديث عن يوم لقائها الأول بزوجها "كامل"، عندما فوجئت به يجلس بجوارها في معمل كلية العلوم، ليهمس لها في هدوء، قائلًا: "هل تعلمين أني أحبك؟"، لتستقبل "سلوى" كلماته بملامح مصدومة، وهي تلملم أوراقها قبل أن تتركه بخطى سريعة تاركة المعمل، ليظل العاشق في تكرار كلماته يوميًا طوال ٣ أسابيع متصلة، كان يتعمد خلالها الجلوس بجانب الطالبة المجتهدة في قاعات المحاضرات وداخل المعامل، مستغلًا زمالته ببعض الطالبات اللائي يشاركنه بعض الأنشطة في اتحاد الطلاب، واللاتي فهمن أيضًا في اليوم الثالث لمكوثه المتعمد بجوار "سلوى"، ومن خلال رد فعل صديقتهن المتكرر، أن التاريخ يستعد لكتابة قصة حب جديدة، وهو ما دفعهن إلى منح الطالب الجريء فرصة الجلوس بجانبها؛ متعمدات ترك مكان شاغر بجانب صديقتهن.

وبعد الأسابيع الثلاثة، قرر "كامل" أن يلاحق خطوات "سلوى" الهاربة من المعمل، لتفاجأ به يتحرك بسرعة إلى جانبها، ويخرج من الباب ليقف أمامها على بعد خطوتين، عندها أوقفت الطالبة المتفاجئة خطواتها ناظرة إليه بحدة بالغة، قبل أن تقول: "لا تعترض طريقي"، ليرد بثقة ناظرًا إلى عينيها بعمق، قائلًا: "طريقنا واحد"، ولم تجد "سلوى" سبيلًا سوى أخذ خطوة سريعة إلى اليمين، منطلقة بنظرة ثاقبة في الطرقة الطويلة لمبنى الكلية،

إلى أن فوجئت بالطالب الجريء يسابق خطاها من جديد، ليقف أمامها مرة أخرى، قائلًا جملة واحدة: "أريد عنوان منزلك"، لترفع "سلوى" عينيها في عينه، قائله: "لا أعتقد أن الوقت مناسب"، ليرد "كامل" بإصرار: "الفرصة تأتي مرة واحدة، وفرصتي جاءت الآن، ولن أضيعها أو أؤجلها يا سلوى".

حاصرت الفتاة الرقيقة حالة من الصمت، عقب سماعها اسمها يخرج على لسان الشاب المتهور لأول مرة، لترد "سلوى" محاولةً الثبات أمامه، قائلة: "عرفت اسمي، إذن من السهل أن تعرف عنواني"، وما أن أنهت الفتاة كلماتها حتى باغتها "كامل" بسؤال مفاجئ: "إذن أنتِ موافقة؟"، وقتها لم تجد "سلوى" ما تقوله، لتنظر في اندهاش، وتعود لأخذ خطوة مسرعة يمينًا نحو نهاية الطرقة الطويلة، غير مبالية بملاحقة "كامل" لها.

ضحكات "سمر" تعالت وهي تستمع لقصة حب والديها المثيرة، لتتزايد مع وصف "سلوى" لذعرها وهي ترى "كامل" يسابق خطواتها إلى "التروللي"، بعد خروجها من الكلية، لتجده يقف بجوارها في ميدان العباسية، إلى أن جاء الأتوبيس الكهربائي المتجه إلى الجيزة، لتستقله متجهة لمنزلها، حتى فوجئت بالطالب الجريء يجلس أمامها على الكرسي المقابل في بداية عربة "الترولّلي"، محدقًا إليها في ثبات طوال ساعتين استغرقتهما رحلة الأتوبيس، مرورًا بشوارع وسط البلد، ومنها إلى الزمالك عبر كوبري "أبو العلا"، متخذًا كورنيش النيل سبيلًا إلي ميدان الجيزة، حتى نزلت الفتاة في المحطة الأخيرة، لتجد الشاب يكمل خطواته المطاردة لها في الميدان، إلى أن وصلت لمنزلها المجاور لفرع "عمر أفندي"، لتقف على بابه ناظرة وراءها،

في اتجاه مطاردها، الذي وقف توًا على الرصيف المقابل للعمارة، معلنًا نهاية مطاردته، لتنظر إليه الفتاة المذعورة بغضب بالغ.

هرعت "سلوى" إلى باب منزلها، ومنه لحجرتها الصغيرة، لتلحق بها والدتها التي لاحظت تغيّر ملامحها بصورة لافتة للنظر، لتسألها عما حدث في يومها الطويل بالكلية، حينها ردت الابنة مستسلمة لقلق والدتها، ساردة لها ما بدر من "كامل"، لتفاجأ بأمها تطالبها بمنحه فرصة، خاصة أنه أعلن نيته في الدخول من باب المنزل، بدليل سؤالها عن العنوان، ما يؤكد جديته، لتكمل الأم قائلة لـــ"سلوى": "تبقت شهور قليلة على تخرجك، ولا مانع من ارتباطك الآن"، قبل أن تترك ابنتها في حيرة شديدة، تفكر في الغد الذي تعلم جيدًا أنه لن يخلو من مطاردات الحبيب المنتظر.

وبعد دقائق من ذهابها إلى الكلية صباح اليوم التالي، وجدت "سلوى" مطاردها يقف على باب المعمل، ليخطو في اتجاهها فور رؤيته لها، قائلًا في ثبات: "صباح الخير، مازلت عند طلبي، أين العنوان؟"، لتقابل الطالبة الخجولة كلماته رافعة عينيها في وجهه، وهي تقول: "هل تريد رقم الشقة مثلا؟! طاردتني حتى باب العمارة، إذًا ماذا تريد الآن؟"، ليرد "كامل" بذات السؤال الذي فاجأها به أمس، قائلًا بسعادة بالغة: "إذن أنتِ موافقة؟"، لتومئ الفتاة برأسها بعد أن طغى الاحمرار على خديها، ليتنفس "كامل" الصعداء مستقبلًا إيماءة فاتنته، وكأنه غريق وجد جزيرة أمامه في عرض البحر، ويسألها بنبرة فرح احتلت صوته: "متى أتقدم لخطبتك؟"، لترفع "سلوى" صوتها بصعوبة، قائلة بنظرة عتاب: "عندما توقف

ضحكاتك مع صديقاتك"، ليرد الحبيب المصدوم: "لا تفهمي خطأ، صديقاتي مثل أخواتي وليس أكثر"، عندها وجهت "سلوى" نظرة ثاقبة اقتحمت قلب "كامل"، لتقول في ثبات: "قلت ما عندي، وأنت حر"، قبل أن تستأذنه لدخول المعمل، وتخطو مسرعة في اتجاه أبوابه.

وعلى مدار أسبوع، ظل العاشقان يتحدثان لدقائق داخل المعمل، بعدما لاحظت "سلوى" ابتعاد "كامل" عن مجموعة صديقاته من أعضاء اتحاد الطلبة، ليبقى بجانبها دائمًا داخل المحاضرات والمعامل والكافيتريا أحيانًا، إلى أن فوجئت به يومًا يطالبها بتحديد موعد مع والدها بداية الشهر المقبل؛ حتى يخطو رسميًا في خطوبتهما، إلا أن حادثًا كان ينتظر الحبيبين بعد ٣ أيام من طلبه، وبقدر ما استبدل هذا الحادث من حال العاشق الجريء، كان الأخير حريصًا على موعده مع والد "سلوى"، مهما كانت العواقب.

***

ميدان العباسية لم يشهد أول مطاردة حب بين "كامل" و"سلوى" فقط، بل كان مسرحًا لأول حادث قهري تشهده قصة العاشقين، فبالقرب من قلب الميدان، فقد الحبيب الجريء عينه اليسرى قبل ٤٦ عامًا، عندما كان أنشط أعضاء اتحاد طلاب كلية العلوم بجامعة عين شمس، وأمينًا للجنة الرياضية، لتنتظره كارثة على أبواب الكلية، عقب نزوله من "الترولل ي"، بعد أن رأى للمرة الأخيرة بقرنيته؛ قوات الشرطة تحاصر طلاب الجامعة، الرافضين لأحكام "محاكمة الطيارين" في عام ١٩٦٨، ليتقدم نحو زملائه ثائرًا وهاتفًا بشعاراته الثورية الموزونة المقفاة التي اشتهر بها، وعندها ضيّقت القوات حصارها على الطلاب محاولة فض تظاهراتهم، وسط حالة فوضى

عارمة لم تخل من كر وفر الجانبين، ليسقط عشرات المصابين في دمائهم، كان "كامل" أحدهم.

عن ملابسات فقدان الطالب الثائر عينه، ترددت روايات عديدة، لم يعرف هو نفسه الصادق فيها، حيث أرجع زملاؤه - ممن كانوا يتلقون علقة ساخنة بجانبه، خلال الأحداث - إصابته إلى شومة خشبية، اخترق طرفها عينه اليسرى ليصفيها، بينما أكد الأطباء أن الإصابة ناتجة عن إصبع اخترق قرنيته، إلا أنه لم يعر بالًا طويلًا للأسباب، فالعين ضاعت بلا رجعة، ولا تعازي، الأهم أنها تحولت إلى عائق منيع أمام قصة حبه الملتهبة لـــ"سلوى"، فلا ينسى "كامل" والد عاشقته مستقبلًا إياه على باب منزلها بملامح عابثة، أيقن منها العاشق الأعور أن قصة حبه باتت على وشك الانهيار.

يومها، طلب منه والد "سلوى" الجلوس إلى جواره، والإجابة عن سؤال واحد، بينما وقفت الابنة المنهارة وراء الستار الفاصل بين باب غرفتها والصالون، تتمنى أن تنشق الأرض لتبتلعها، كان السؤال: "قل لي.. إذا فاضلت بين مدرسين لابنتك، أحدهما بعينين، والآخر بواحدة فقط، من ستختار؟"، وقع السؤال على أذن الحبيب كالصاعقة، رغم أن إجابته هبطت على ذهنه من السماء، قالها مسرعًا متأنيًا في آن واحد، رافعًا صوته: "سأختار المدرس المستعد لمنحها عينه، حتى لو كانت واحدة".

مع انتهاء رد "كامل"، كانت الدموع تشق طريقها على خدي عاشقته، قبل أن يرد الأب بجملة زادت الإحباط يأسًا، إذ قال: "لا.. لن أختار

أحدًا، سأجلسها بجواري بلا تعليم"، ليرد الحبيب المصدوم: "لن تفعل، ستختار"، وبنبرة تحدٍ شرس سيطرت على صوت الجالسين كان هذا الحوار:

> الأب: هل ستجبرني على زواج ابنتي منك؟

- كامل: لا.. هي ابنتك، قبل أن تصبح زوجتي.

> الأب: أقرّرت أيضًا أنها ستصبح زوجتك؟

- بالطبع، أثق في الله.

> لكنني لا أثق بعينك الواحدة!

- هو قضاء ربي، وسأتحمله.

> الأب: من أين لك بهذه الثقة؟

- لأنني أعلم أنك ستختار الصواب.

> وما هو؟

- سعادة ابنتك.

> الأب: سعادتها بجواري!

- لكن "سلوى" لها رأي آخر.

> رأيي وابنتي واحد، احترم نفسك!

- يا عمي.. لا أقصد، ابنتك تحبني.

> الأب: أنت تجلس في بيت محترم، احترم نفسك!

- لا تغضب، أنا الذي أحبها.

> اطلع بره.. بره!!

وأمام صياح والد "سلوى"، أنقذ الحبيب ما تبقى من ماء وجهه، مسرعًا نحو الباب، قائلًا في عناد شديد بصوت أجش من أعلى الدرج: "لنا لقاء آخر"، لتشتعل ثورة الأب مغلقًا خلفه باب المترل بقوة كادت تحطم نافذته الزجاجية الصغيرة، ويخرج الحبيب المصدوم غير قادر على استيعاب ما حدث، ناعيًا حلمًا أصبح على حافة الهاوية، لا يستطيع الحفاظ عليه إلا بعودة الحياة إلى عينه اليسرى، ليركض خافيًا العين التي تبقت له من الزمن، أسفل نظارة سوداء تعود أن يرتديها، بعد أن أفاق من الحادث مصدومًا من شبح العوار، الذي بات يطارده للأبد.

***

ومن الخامسة حتى السادسة صباحًا، في يوم "سمر" الأول بعام الفراق الثاني، سردت "سلوى" لابنتها النهاية السعيدة لقصة عشقها، عندما أعلن "كامل" خطبتهما أمام آلاف الطلاب في أكبر مدرجات جامعة عين شمس، مجبرًا والدها على احترامه والموافقة على زواجهما، حيث لجأ العاشق الأعور – بعد أن رأى محبوبته تضيع من بين يديه – إلى حيلة شديدة الذكاء، كي يجبر والد "سلوى" على القبول به زوجًا لها، إذ طالبها بأن تدعوه إلى حفل الجامعة، الذي عُقد بحضور التشكيل الحكومي كاملًا، بعد أسابيع قليلة من أحداث الشغب الطلابي العارمة التي تلت أحكام "الطيارين"، حيث حاول الوزراء تهدئة الطلاب الثائرين خلال جولة جابوا فيها أرجاء الحرم الجامعي، قبل أن يدعوهم رئيس اتحاد الطلبة إلى زيارة المدرج الكبير، ليفاجئوا بالآلاف في انتظارهم، إلى أن أعلن أمين الاتحاد عن فتح باب النقاش حول أحداث الشغب التي اشتعلت بالبلاد.

لم يكن الحشد الطلابي، هو المفاجأة الوحيدة التي كانت في انتظار الوزراء، حيث فجّر رئيس الاتحاد – بعد دقائق من انتهاء النقاش المحتدم بين الطلاب والوزراء – مفاجأة مدوية، جاءت كالصاعقة على قيادات الجامعة، بعدما أعلن عن نقل الميكروفون لشاعر الجامعة الأول أحمد هاشم الرفاعي، ليلقي قصيدة باسم "سأظل أعطي"، لينقلب المدرج رأسًا على عقب؛ في انتظار أبيات الشاعر الملهم، كان من بينها ٦ أشطر كادت تطيح بكبار قيادات الحرم الجامعي، هي:

"حريتي ليست رغيفًا أسود .. يلقى إليّ كطالب الإحسان

حريتي هي أن أنام مدثرًا بالعطف .. لا بسلاسل السجان

حريتي هي أن أقول كما أرى .. لا أن أقول برؤية العميان"

وقعت الأبيات الثلاثة كالصاعقة على وزراء الحكومة، خاصة أن شاعر الجامعة الأول أشار بيده إلى شعراوي جمعة، وزير الداخلية الحديدي في هذا الوقت، وهو يقول: "سلاسل السجان"، بينما مرت سبابته على جميع أعضاء التشكيل الوزاري، عندما قال: "برؤية العميان"، ليُلهب حماس الطلاب، ويرددوا الهتافات المضادة للحكومة!

وعلى صوت ضحكات "سمر"، التي كانت ترى المشاهد وكأنها أمامها، واصلت الأم نقل مخيلة ابنتها إلى الستينيات، عندما أنهت وصفها لملامح وزير داخلية "عبد الناصر" وباقي أعضاء الحكومة، بعدما أشار لهم "الرفاعي" صراحة، لتُكمل "سلوى" بصوت أشعلته الحماسة: "عندها

أمسك والدك الميكروفون ليقول أمام الجميع إنه أصبح خطيبي رسميًا، قبل أن يحاصره زملاؤه مباركين خطوبته السعيدة، في الوقت الذي جلس فيه والدي بجواري في أحد أرجاء المدرج، ليقابل التهاني التي تنهال على ابنته المخطوبة بصمت قاتل، عندما أيقن أن الفأس قد وقعت في الرأس، ولا محالة من هذه الخطوبة، التي شهد عليها آلاف الطلاب".

وتحدثت الأم وهي تقرب ابنتها إلى أحضانها، عن تفاصيل اتفاق "كامل" رئيس اللجنة الرياضية باتحاد الطلاب وقتها، مع رئيس الاتحاد على المفاجأة غير المتوقعة، خاصة أن حبيبته لم تكن تعلم أن ذلك كله سيحدث، ولم تحاول سؤاله كثيرًا عن سبب إصراره على أن تصطحب والدها معها للجامعة في هذا اليوم، بعدما أجاب عن استفسارها ضاحكًا، معللًا رغبته بأنه يريد أن يفاجئ والدها بسيطرته العظيمة على أرجاء الجامعة.. وقد كان!

حكت "سلوى" أيضًا عن شبح العقم، الذي ظل يطارد الزوجين قبل أن تجيء إلى الدنيا، عقب ١٦ عامًا من زواجهما، تحملا فيها الكثير من الصعاب، هاربين من مصر، بعد أن لاحقتهما نظرات قاسية تتساءل عن سر تأخر إنجابهما، وعبارات تشفٍ من بعض الرافضين لزواج الأعور، إلا أنهما كانا متيقنين من رحمة الله، وموقنين بأن هناك معجزة تولد مع كل حب حقيقي، إلى أن رزقهما الله بها، بعد عودتهما من الخارج، لتكتب حياة جديدة لهما، فاقت سعادتها كل الفرحة التي شعرا بها في حياتهما.

***

# مدى الحياة

في السادسة من صباح أول أيام عام الفراق الثاني، كانت "سمر" تخطو في الطرقة الطويلة، التي تفصل بين غرفة الاستقبال وصومعتها، بعد أن صافحت والدها "سلوى" بقبلتين، وأمسكت سريعًا بهاتفها، لتتأمل الصورة من جديد، وعلى وجهها ابتسامة تذكرها بالمفارقة التي جمعتها بـــ"عمر" في احتفالهما بيوم الفلانتين المصري، بعد جلوسهما على شاطئ منيل الروضة، فثمة تشابه كبير بين والدها وحبيبها، في إتقان تفجير المفاجآت المثيرة.

ومع وصولها لصومعتها، استلقت "سمر" على سريرها، لتضم وسادة عاشقها إلى صدرها، وتتأمل ملامح "عمر" بالوسادة، لترتسم ضحكة على وجنتيها، وهي تستعيد المشهد الذي وجدت فيه حبيبها بين ١٠ أفراد شرطة، عندما ادعى الأمين – أمام الضابط – بعد توقف سيارة الشرطة على الكورنيش؛ أن الشاب المتشاجر كان يُقبِّل مرافقته، ليرفع "الجيولوجي" صوته متجهًا إلى الضابط، قائلًا: "مرافقتي طبيبة محترمة، ولا أقبل هذا الكلام"، ليرد الأمين المدعي حالفًا: "أقسم بالله رأيته يقبِّلها"، وفجأة قال الملازم لـــ"عمر": "اجلب لي بطاقة الطبيبة".

وبعد لحظات من التردد، خرج "الجيولوجي" عن الدائرة البشرية التي حاصرت سيارة الشرطة، متجهًا نحو "سمر" التي كانت قد أخرجت بطاقتها للتو، ليلتقطها حبيبها أمام نظراتها المفزوعة، قائلًا: "اطمني"، قبل أن يعطيها ظهره متجهًا إلى الضابط، ليفاجأ بالأمين يطالب الملازم بتحرير محضر يتهم فيه "الجيولوجي" بالتعدي عليه أثناء تأدية خدمته.

قابل "عمر" اتهام الأمين باتهامات متبادلة، حيث أكد للضابط – وهو يمد يده إليه بالبطاقة – أن المدعي طالبه بإخراج ما في جيبه، حتى يتركه وشأنه، ليرمق الملازم الأمين بنظرات شك، قبل أن يضع البطاقة بين يدي "الجيولوجي"، طالبًا منه إعادتها إلى الطبيبة، على أن يعود ليركب سيارة الشرطة في اتجاه قسم مصر القديمة، كي يعرضوا الواقعة على رئيس المباحث، وبعد الكثير من الشد والجذب، وجد الحبيب نفسه مضطرًا لمرافقة قوة الشرطة إلى القسم؛ لإنهاء الجدال الذي أشعله المحيطون به حول القُبلة المزعومة، ليخرج من الدائرة البشرية في اتجاه "سمر"، قائلًا: "اركبي تاكسي، وارجعي للعربية"، لتسأله: "رايح فين؟"، ويرد بصوت أجش: "القسم"، ويلتفت وراءه دون أن يمنحها الفرصة للرد، بعد أن رأى الدمع يزيد من لمعان عينيها، ليجد نفسه يعود للالتفات إليها، مكررًا كلمته: "اطمني".

ومع صعود "الجيولوجي" سيارة الشرطة، كانت الطبيبة تنهي جلستها متأملة عين حبيبها عن بُعد، ليرفع يده مشيرًا إلى تاكسي، كي توقفه "سمر"، لتستجيب الأخيرة بسرعة فائقة، وتستقل السيارة الأجرة قبل أن تتحرك

سيارة الشرطة، لتُجري اتصالًا بوالدها "كامل"، وتسرد له تفاصيل ما حدث بصوت مصدوم، حيث اطمأن الوالد على خروجها من دائرة الخطر، سائلًا إياها عن مكان سيارتها، لترد: "أمام المستشفى، بكلابش المرور"، لتزداد نبرة القلق في صوت "كامل"، وهو يقول: "انتظريني هناك".

وما أن عادت الطبيبة إلى سيارتها، حتى اتصلت بــ"عمر" لتطمئن على مصيره، ليؤكد لها أنه وصل للقسم، وسيظل في انتظار عودة رئيس المباحث، وهو ما ردت عليه "سمر" قائلة: "بابا في الطريق"، ليسألها "الجيولوجي" عن السيارة المكبلة، قبل أن يطالبها بالذهاب لبائع الورد، الذي اتصل به منذ دقائق، بعد أن حصل على رقم قائد الونش، كما نبهها "عمر" للعودة إلى المنزل سريعًا فور فك قيد السيارة، لتنهي الطبيبة المكالمة ناظرة إلى اللفافة الحمراء القابعة في مقعد سيارتها الخلفي، غير قادرة على النزول قبل أن ترى ما بداخلها.

في عجالة، فتحت "سمر" هديتها، لتجد الوسادة وبجوارها عطر "عمر"، وعلبة حمراء صغيرة، وسريعًا ما فتحت العلبة لتفاجأ بما تحويه، إنه الخاتم الذهبي، الذي راق للطبيبة كخاتم للخطوبة؛ خلال وقوفها مع "عمر" أمام فاترينة عرض للمجوهرات، بأشهر محال وسط البلد، عندما أخذا جولة في شوارع قلب القاهرة، بعد جلوسهما في مقهى "البستان" المفضل لــ"عمر"، قبل أيام ، لتخرج الحبيبة الشكلى من وجومها بسعادة بالغة، وترسم ابتسامة على وجنتيها وهي تمسك بمفاجأة عاشقها، لتعلم سر جملة

"اليوم فارق في حياتنا"، التي قالها الحبيب على الكورنيش، قبل أن ينهي أمين الشرطة جلستهما الهادئة، وتتذكر العاشقة ما قاله "عمر" عن إتمامه خطبتهما رسميًا بحصوله على عمل مناسب.

***

ظلت ملامح المفاجأة مرسومة على وجه "سمر" لدقائق معدودة، أنهتها بإعادة خاتم الخطوبة إلى العلبة الحمراء، لتجري اتصالًا بـــ"عمر"، الذي تيقن من كلماتها الأولى أنها فتحت هديته، وأن المفاجأة التي كان ينوي تفجيرها أمام عينيها قد ضاعت، حيث قالت الحبيبة بصوتها الحاني: "دائمًا مفاجآتك غير متوقعة"، ليرد "عمر": "المفاجأة ضاعت بوجودي في القسم"، لتعلو ضحكة "سمر" قائلة: "بحبك يا متهم"، ويستعيد "الجيولوجي" نبرة السعادة في صوته قائلًا: "المتهم يعشقك"، أما الطبيبة فرفعت صوتها داعية الله أن يبارك لهما ويجمع بينهما قريبًا.

وما أن أنهى "عمر" تأمينه على دعاء عاشقته، حتى سألها عن مصير السيارة، لترد الحبيبة بخجل: "سأذهب لبائع الورد حالًا"، قبل أن ينهيا المكالمة بالشهادتين، وتعبر "سمر" الطريق نحو محل الورد، مستفسرة عن رقم قائد الونش، حتى حصلت عليه من البائع، لتجري اتصالًا بشرطي المرور، تؤكد فيه أنها في انتظاره لفك قيد سيارتها أمام مستشفى قصر العيني، لتعود إلى السيارة، وتفتح العلبة الحمراء من جديد، متأملة الخاتم الذهبي بعين لامعة، لترتسم ابتسامة بنغزتيها، وهي تنظر إلى السماء داعية: "ربي لا يحرمني منك يا عمر".

وبعد عشر دقائق، قضتها "سمر" تقبض بأصابعها على الخاتم، وتقلبه أمام عينيها متذكرة أول لقاء جمعها بـــ"عمر"، وجدت الطبيبة رجلًا يطرق زجاج سيارتها، وخلفه ونش المرور، لتخرج في وجوم عاد لوجهها وهي تنظر إلى شرطي المرور، ولسان حالها يقول: "أنت السبب في كل ما حدث"، ليفك قيد السيارة سريعًا بعد تحصيله غرامة المخالفة من الطبيبة، التي وجدت اتصالًا من والدها يخبرها فيه بأنه وصل بالتاكسي إلى كورنيش النيل في منطقة مجرى العيون، لتطالبه "سمر" بانتظارها في مكانه، كي يذهبا إلى القسم، بعد إطلاق سراح سيارتها، إلى أن التقيا؛ ليستقل "كامل" سيارة ابنته في اتجاه مصر القديمة.

في الطريق، أجرى الوالد اتصالًا بصديقه "عمر"، يطمئن فيه على حاله، ليؤكد الأخير أنه ما زال يجلس في غرفة معاوني المباحث، في انتظار رئيسهم، بعد كتابته شكوى في الأمين، بينما يصر الأخير على تحرير محضر تعدٍ ضده، ليخبره "كامل" بأنه في الطريق إليه، رافضًا كل محاولات إثنائه عن قراره إلى نهاية المكالمة، ليفاجأ الوالد بعد غلق الخط، بابنته "سمر" تحمل العلبة الحمراء بين أناملها أمام نظارته السوداء، لينظر بعينه الواحدة إلى الخاتم، وتتعالى ضحكاته، قائلًا: "عملها المجنون"، لتعلم الحبيبة حينها، أن والدها كان على علم مسبق بالحادث الفارق الذي ينتظرها، وتبدأ في معاتبته لإصراره الدائم على الاتفاق مع "عمر" دون علمها، ليربت "كامل" على كتفها المجاور له، قائلًا: "ألف مبروك يا بنتي، أنتِ تستاهلي كل خير".

بعد دقائق معدودة من انتهاء مكالمة الجيولوجيين، وجد "عمر" خطيبته ووالدها يدخلان غرفة معاوني المباحث، ليصافحهما بضحكة تفاؤل، ويفاجئه "كامل" قائلًا: "ألف مبروك يا عريس"، وسط اندهاش الضباط، ليرد العاشق مبتهجًا: "الله يبارك فيك يا عمي"، حتى فوجئ المتحدثان بضابط يسأل بسخرية: "مبروك على دخوله القسم؟"، ليجاوب الأب قابضًا على يد خطيب ابنته؛ خوفًا من انفعال وشيك ظهر على ملامحه، قائلًا برصانة: "لا.. مبروك على خطوبته بابنتي، فموعدها الليلة"، ليقابل الضابط كلمات الوالد بابتسامة، قبل أن يترك مكتبه للخارج ممسكًا بهاتفه المحمول.

جلس الخطيبان والوالد على أريكة إلى يسار مدخل الغرفة، ليسأل "كامل" الضباط عن موعد حضور رئيسهم، وما إن أنهى الوالد سؤاله، حتى دخل الضابط الذي خرج توًا، قائلًا: "اتفضلوا روّحوا"، مؤكدًا أنه اتصل برئيس المباحث وأفهمه الموقف، وأن الأمين توقف عن تحرير المحضر، وانتهت المشكلة، ليخرج الخطيبان خلف خطوات "كامل"، الذي شكر الضابط باحترام، قبل أن تطأ قدما "عمر" خارج القسم وسط ضحكات متبادلة مع "سمر" ووالدها، فحالته الاجتماعية تحولت من أعزب إلى خاطب في غرفة المباحث!

***

وبعد ابتسامات رسمت ملامح الحب على وجنتي "سمر"، وهي تتذكر مشاهد قسم مصر القديمة، التقطت الحبيبة الشكلى زجاجة عطر "عمر"،

التي تبقت منها قطرات معدودة، رغم أنها كانت الزجاجة الخامسة التي تستهلكها "ناثرة العطر" خلال عام، في ظل حرص العاشقة على ملء غلافها الجوي برحيق حبيبها الراحل، لتنشره على الوسادة ليلًا، قبل أن تقربها إلى صدرها، لتشعر أنها بجانبه، وهو الإحساس الذي حاصر "سمر" بعدما احتضنت وسادة دموعها، لتتنفس عطر "عمر"، وتغمض عينيها وفي أذنيها صوته، وهو يطالبها في الهاتف الذي جمعهما ليلة خطوبتهما بعد عودتهما من القسم، بأن تنثر عطره يوميًا على الوسادة، حتى تشعر بأنها قريبة منه، مهما فرقت بينهما المسافات.

فما أن سمعت "سمر" طلب "عمر" في هذه المكالمة، حتى أمطرت الوسادة بقطرات العطر للمرة الأولى، بعدما قبضت بيدها على الزجاجة، ناثرة رحيقها في أرجاء سريرها، لتسمع صوت عاشقها يقول: "سأظل أحبك مدى الحياة"، قبل أن يبدأ في سرد نهاية الرواية التي انتهى من قراءتها مؤخرًا، إنها رائعة ماركيز "الحب في زمن الكوليرا"، ليحكي لها كيف فاز البطل العجوز بعشقه الأبدي؛ بعد انتظار دام ٥٣ عامًا و٦ أشهر و١١ يومًا، ليخطف محبوبته على ظهر سفينته الملكية، بعد أن بدأ لقيطًا في حبها، ويعيشا باقي أيامهما بالدنيا بين الأمواج في عرض البحر، يتحديان بعشقهما طغيان شيخوختهما، بعدما أمر العاشق المسن قبطان سفينته بأن يرفع الراية الصفراء؛ كدليل على وجود مريض بـــ"الكوليرا" على متنها، ليبحروا بلا توقف، ويعيش الحبيبان في مملكة عشقهما البحرية، مدى الحياة!

قال "عمر" لعاشقته بعد جملة "مدى الحياة"، التي انتهى بها عشق الكوليرا، أن حالهما لن يختلف كثيرًا عن العاشقين العجوزين، فمدى الحياة،

ستكون النهاية الطبيعية لعشقهما الأبدي، الذي لن ينضب، قبل أن يحدثها عن أحلام يراها فيها امرأة مسنة، تجلس بجواره، يناديان معًا أحفادهما من "آدم" و"حياة"، طفليهما اللذين أسمياهما غيبًا، منتظرين أن يضمهما في أحضانهما، ليمسك السكون بصوت "سمر"، راحلة مع عاشقها إلى حلم مترلهما الصغير، الذي سيظل هادئًا بمشيئة الله بعد أن وهبهما حبًا حقيقيًا، في زمن لم يخلق للعشق.

وقتها، قالت "سمر" لحبيبها إنها ترى ملامح "آدم" و"حياة" في ابتساماته ونظراته، وتشعر دومًا بأنهما قريبان منها، داعية الله أن يجمعهما تحت سقف واحد، حتى تعيش كل أيامها بجانبه، ليسألها الحبيب بنبرة لم تخلُ من المرح، قائلًا: "مدى الحياة؟"، وترد "سمر" بلا تردد: "حتى أموت داخل صدرك"، وكالعادة نهرها "عمر" بصوته، قائلًا: "قلت مائة مرة، لا تُخرجي كلمة موت من فمك"، لتقول الحبيبة مستوعبة خطأها المتكرر: "اتفقنا، لكن اكتب أنت نهاية مختلفة".

طلب منها العاشق حينها، أن تمسك بهاتفها الآخر الصغير، لتدون هذه الكلمات كبداية لرواية قرر أن يسرد فيها قصة عشقهما، تحت اسم "الحب في زمن الثورة"، لتضحك "سمر" في رقة فتانة، قائلة بلهجة يملؤها المرح: "الثورة دائمًا عامل مشترك، لا تنساها أبدًا"، ليقابل العاشق كلماتها بنبرة لا تخفي ضحكته المميزة، قائلًا: "ثورتي وحبك، عشقان في حب واحد، أعيشه معك ولك وحدك"، ثم طالبها بأن تكتب تلك الكلمات في تليفونها الصغير، الذي ضمته لتوها بيدها الأخرى، قائلًا: "حبيبتي.. هي

أنتِ.. ثائرة حد الشهادة.. مقاتلة حد الموت.. متفائلة حد الحياة.. جميلة حد الحور.. أيتها الملكة.. جئت شهيدًا لمحرابك.. هل تقبلينني فارسًا في مملكتك؟".

لم تصمت "سمر" كثيرًا، ردت في سرعة فائقة على تساؤل "عمر"، قائلة بإحساس العاشقة الصادقة: "أنت مملكتي"، ليجيب حبيبها على كلمتيها بكلمة واحدة، هي: "بعشقك"، التي قالها بصوت كاد يسمعه "أيوب" و"ناهد" – الجالسان بالغرفة المجاورة له – من شدة ارتفاعه، لتعلو تنهيدة عاشقته التي كثيرًا ما ألهبت مشاعره، ويمضي الحبيبان بضع ثوانٍ يتبادلان فيها أنفاسهما المتوهجة، انتهت بجملة قالها "عمر" أجبرت حبيبته على أن تشعر بوجوده بجانبها طوال الليل، قال: "تصبحي في حضني"، لترد الحبيبة الفاتنة بخجل احتل صوتها، قائلة: "تصبح على دقات قلبي"، ويختمان المكالمة الطويلة بكلمة واحدة، جمعت صوتهما، عندما قالا "بحبك" في آن واحد.

كلمتا "مدى الحياة"، لم يرتبطا في ذهن "سمر" بحديث "عمر" فقط، بل تحولتا مع الأيام إلى واقع رأته يتجسد أمام عينيها، بعد أن تحولت هاتان الكلمتان إلى نهاية سعيدة لقصة عشق "فاتن" أو "أم أحمد"، مثلما ظل الجميع يناديها طوال ربع قرن، حيث لا تنسى "سمر" قصة مربيتها، التي ظلت بجوارها منذ نعومة أظافرها حتى سفرها للعمل بمطروح، وكان لها دور كبير في رسم حياة مغايرة للطبيبة، بعد رحيل "عمر".

في الليالي القاسية التي قضتها "سمر" في أحضان والدتها، سردت "سلوى" حكاية العشق الأبدية التي جمعت "أم أحمد" بحبيبها، حتى بعد

رحيله عن العالم، حيث امتزجت دموع الابنة والأم؛ عندما أنهت الأخيرة وصف حال "فاتن" لمدة ٢٥ عامًا، ظل فيها الجميع يناديها بـ"أم أحمد"، رغم أنها لم تتزوج من الأصل، حيث لجأت الشابة الجميلة إلى إيهام رجال ٣ أجيال، ظلوا يتهافتون على زواجها، بأنها تعشق رجلًا كان قد غاب عن الدنيا في عز صباها، عندما تلقت صاحبة الـ١٧ ربيعًا مكالمة على هاتف الشركة التي التحقت بها مؤخرًا، يخبرها فيها رجل بدوي بأن حبيبها فارق الحياة إثر حادث مأساوي، لتخرج من باب عملها ولا تعود لمدة عام، قضته تضمد جراح مصابي الزلزال الذي ضرب مصر عام ١٩٩٢، وتسهر على راحة المسنات المنكوبات، علها تتبرك بدعائهن لتلحق بعاشقها في جنات الخلد.

وحكت "سلوى"، كيف عادت "فاتن" إلى عملها بالشركة بعد عام من وفاة عاشقها، لتضع دبلة ذهبية في يدها اليسرى، معلنة زواجها ومعللة اختفاءها خلال هذه الفترة بالسفر إلى مسقط رأس زوجها، لقضاء الشهور الأولى من الزواج بين أهله، حتى حاصرتها استفسارات زميلاتها بالعمل؛ عن سر تأخر إنجابها بعد عام من زواجها الوهمي، لتواجه "فاتن" هذه الاستفسارات بادعاء اكتشافها حملها في شهره الثاني، وتلجأ إلى وسادة صغيرة وضعتها أسفل ملابسها بعد الشهر الرابع، حتى تُظهر حملها الكاذب، ومع مرور الأشهر كانت الوسادة تزداد قطنًا، إلى أن جاء الشهر الثامن، لتختفي الحامل من الشركة، مؤكدة ذهابها لوضع وليدها في بلد زوجها، وتعود بعد ٣ شهور كاملة، مؤكدة أن الله رزقها بـ"أحمد"، ليناديها العاملون في الشركة باسم "أم أحمد"، طوال ٢٥ عامًا.

سردت "سلوى" لابنتها تفاصيل من حياة "فاتن"، قبل الكارثة الأليمة، عندما بدأت العمل في شركة الأزياء العريقة، تزامنًا مع عمل والد "سمر" بها، بعد عودته من الخارج مع بداية التسعينيات، إثر قرار أصدره "كامل" بإنهاء غربته في الدويلة الصغيرة، التي ظل يدرس لأبنائها نحو ١٣ عامًا، قضاها في غربة اختيارية دفعته لها أمور عدة، أهمها الحفاظ على حب "سلوى"، الذي تكاتفت الأيام محاولة قتله، فضلًا عن الهرب من شبح المهانة، الذي بات يلاحق المُعلم منذ بداية سبعينيات القرن الماضي.

***

# عناق على الشاطئ

في التاسعة صباح اليوم الأول لذكرى رحيل "عمر"، وبعد ساعتين من الدموع، قضتهما "سمر" بسريرها، إثر ساعة أولى من الذكريات، اتخذت الحبيبة الثكلى قرارًا لم تُقدم عليه طوال عام مضى، بعدما تذكرت الليلة الأليمة التي سردت فيها والدها قصة "فاتن"، عقب عودة الطبيبة من مرسى مطروح؛ في اليوم الأربعين لاستشهاد "عمر"، واضعة نهاية لأسبوع أسود قضته اضطراريًا بعملها الجديد، هربًا من كلمات المواساة التي كادت تخنقها؛ فور إفاقتها من الغيبوبة المودعة لعاشقها.

عادت الطبيبة من مطروح ظهر يوم الأربعين، لتركض إلى منزل "عمر" وترى والدته "ناهد" غريقة في بحر من الدموع، لتفاجأ الأم الثكلى بخطيبة ابنها الراحل، ترفع لها علبة فضية، وتفتحها أمام عينيها، لترى "ناهد" مصحفًا كبير الحجم، قبل أن تقول لها "سمر" بصوت حانٍ: "كل سنة وأنتِ طيبة يا ماما"، فبالمصادفة تزامن عيد الأم في ٢٠١٣؛ مع أربعين "عمر"، لتقضي "ناهد" يوم ٢١ مارس تنعي ابن عمرها، الراحل بلا عودة.

إلا أن قصة الحب الخيالية التي سردتها "سلوى" في هذه الليلة، كي تُضمد آلام ابنتها العائدة من منزل حبيبها، كان لها وقع السحر على

"سمر"، لتمنحها أملًا في غد يمكن أن تعيشه لعشق حبيبها الراحل فقط، بعد أن كادت الابنة تختنق يأسًا،وإحباطًا، ففي هذا اليوم كانت الطبيبة قد عادت إلى القاهرة محملة بهموم عدة، خاصة أنها باتت مضطرة إلى قضاء فترة طويلة بعيدًا عن منزلها، في عملها الجديد بالمدينة الساحلية.

كانت الطبيبة قد تسلمت خطابًا من وزارة الصحة، صباح الليلة التي وقف فيها "عمر" متغنيًا بأشواقه أسفل الشجرة بشارع مصطفى النحاس، في الساعة الأولى من ٣٠ يناير ٢٠١٣، قبل ١٢ يومًا من سقوطه وسط دمائه، لتُصدم "سمر" بعد فضها المظروف بمكان استلامها العمل الجديد، في مستشفى حكومي بمدينة مرسى مطروح، بعدما أنهت فترة الامتياز في شهر أغسطس الماضي.

ورغم رفض الطبيبة استلام العمل بناء على تكليف الوزارة، الذى وصل إلى منزلها في خطاب أول، بعد أيام من وداعها "الحاج محمد" بصحبة "عمر"، داخل مستشفى قصر العيني، في شهر نوفمبر الماضي، عقب اكتشافها أن التكليف سيرمي بها في إحدى المناطق النائية، لتقرر مواصلة تدريبها في مستشفيات القصر، إلا أن الخطاب الثاني الذي وصلها من الوزارة، كان مصحوبًا بالتهديد والوعيد، حيث حذرها من استمرار تجاهلها العمل، وطالب إياها بضرورة الحضور إلى مكان عملها الجديد خلال أيام قليلة، وإلا ضاعت وظيفتها.

ومع استلامها خطاب التكليف الأخير، كادت ثورة الطبيبة المصدومة أن تُسفر عن تحطم هاتفها، عندما ألقته على الأرض لاعنة اليوم الذي

دخلت فيه كلية الطب، إذ لا مفر من الذهاب إلى المستشفى، فلا أعذار متاحة عن عمل الطبيبات بالأماكن النائية سوى عقد زواج؛ يثبت إقامتها بجانب زوجها في مدينته الحضرية، ما يعني أنها باتت على وشك منفى لا تستطيع الإفلات منه، إلا بزواجها من عاشقها الذي لم يزل يدبر نفقات الزواج، بعدما التحق بالعمل في الشركة الثالثة بسيناء، منهيًا عقده مع شركة التعدين في العين السخنة.

ورغم الصدمة القوية، اتخذت الطبيبة قرار السفر لسببين، أولهما وعد "عمر" لها في مكالمة تليفونية أيقظته بها بعد دقائق من تسلمها الخطاب؛ بأن يرافقها في زيارتها الأولى لمطروح، حتى يجوبا معًا الشواطئ الساحرة التي يحفظ ملامحها عن ظهر قلب، إذ كان الجيولوجي قد أعد دراسة بحثية حول الألغام، التي تملأ أراضي الساحل الشمالي الغربي، قضى لإنجازها نحو ٣ أشهر – بداية من مارس وحتى يونيو ٢٠١٢ – أمضى أيامها يتفحص الشواطئ الممتدة من مرسى مطروح إلى السلوم، ويقتحم حقول الألغام بجسارة بالغة، محترقًا من نار شوق تلهب قلبه احتياجًا لرؤية ابتسامة "سمر" الطفولية.

كان "عمر" يحرص في الشهور التي قضاها بمطروح، على مكالمة يومية طويلة تجمعه بحبيبته ليلًا، يحكي فيها نوادر رحلته، ويربطها دائمًا بحلم لم يفارق مخيلته، يرى فيه عاشقته تمسك بيده على كل شاطئ يخطوه، قبل أن يركض وراءها على آثار خطاها التي تسبقه، لتشتعل غيرته من الهواء الذي يداعب شعرها الناعم، وهي تسرع أمامه على الشاطئ، محاولة الهروب من حضنه المشتاق لضمتها الحانية، وهو الحلم الذي تحقق على أرض الواقع، بتلاقي العاشقين على شواطئ مطروح، بأمر وزارة الصحة!

في يوم استلام الطبيبة الخطاب الثاني من وزارة الصحة، أنهى "عمر" مكالمته معها سريعًا، بعدما علم أن أمامها ٣ أيام كي تتسلم عملها بالمستشفى الحكومي، ليتصل بصديقه البدوي "حمزة" ابن مطروح، ويخبره بأنه سيكون على أرض محافظته خلال ٤٨ ساعة، مطالبًا إياه بإعداد برنامج لرحلة قصيرة يستغرق فيها يومين مع خطيبته.

وبعيدًا عن "عمر"، كان السبب الثاني الذي دفع الطبيبة إلى قبول الغربة المصغرة، هو تسلم "شيماء" خطابًا مماثلًا – قبل أسبوع – للعمل في ذات الإدارة الصحية، لتسافر تاركة صديقتها في وحدة تامة، إذ كان "الجيولوجي" قد سافر إلى سيناء متسلمًا عمله الجديد، بينما انشغلت صديقة طفولتها "مني" في الاستعداد للزواج، بعد خطبتها على الطريقة التقليدية بضابط في القوات المسلحة، وتركها العمل بالمدارس الخاصة.

***

وفي الواحدة ظهر ٢ فبراير ٢٠١٣، وبعد سفر ٦ ساعات من القاهرة إلى مرسى مطروح، كانت "شيماء" تستقبل صديقتها و"عمر"، بسعادة غامرة أمام باب المستشفى برفقة أطبائه وأعضاء هيئة التمريض، لتكسب الطبيبة الشابة ود واحترام زملائها في العمل منذ اليوم الأول، بعدما رأوها تستأذن خطيبها في مكتب استعلامات المستشفى، حتى تركض وراء عامل بسيط دخل لحظتها غرفة الاستقبال مصابًا بكسور حادة؛ إثر سقوطه من الطابق الثالث في عقار تحت الإنشاء، باذلة كل ما أوتيت من علم؛ كي تضع حدًا لآلامه، ليتابع الأطباء اهتمامها بالمريض عن كثب، محاولين مساعدتها في إنقاذه بكل الطرق.

وبعد تفقد الطبيبة مكان إقامتها الجديد في استراحة الأطباء بمرسى مطروح، لتعلم أنها على أبواب سجن حقيقي؛ يخلو من أبسط وسائل الرفاهية؛ ولا يضم سوى أسرة متهالكة، أخذ "عمر" عاشقته في جولة صغيرة إلى شاطئ المدينة الساحلية، ليجلسا على الكورنيش، يتحدثان عن الورطة التي تحاصر "سمر"، ليطمئنها الحبيب بأنها ستقضي أيامًا معدودة في هذا المكان، إلى أن يتم زواجهما المحدد في مايو المقبل، مطالبًا إياها بأن تفيق من حزنها، حتى يرى ضحكاتها التي تمنحه سعادة الحياة، ليقفز الحبيب بصورة مفاجئة راكضًا نحو مياه البحر، بحثًا عن الصدف، ويعود مسرعًا ممسكًا بين أصابعه صدفتين، وسط نظرات أحاطتها ابتسامة الطبيبة الطفولية، ليرى جمال نغزتيها، وهو يفتح يدها واضعًا صدفة على راحتها، ويطالبها بالهمس معه في ذات اللحظة إلى الصدفتين، بأمنياتهما التي طال انتظار تحقيقها.

ومع تلامس الشمس لمدى البحر معلنة غروبها، أمسك "عمر" يد معشوقته، مؤكدًا أن حلمه بأن يركضا معًا على شاطئ البحر بات وشيك التحقق، بعد أن اتفق مع صديقه القعيد "حمزة" على أن ينطلقوا في رحلة حتى السلوم، مع الساعات الأولى من صباح الغد، حتى ترى الطبيبة روعة شواطئ مصر، وأبناءها من البدو ذوي الحياة البسيطة المبهجة، التي حكى "الجيولوجي" بعضًا من ذكرياتها، أثناء إعداده دراسة الألغام، ليترك الحبيبان الشاطئ مع بدء "عمر" استعادة ذكرياته، التي استكمل سردها في الطريق من الكورنيش إلى استراحة الأطباء، قبل أن يودع عاشقته على أبوابها، على أمل لقاء خيالي يجمعهما صباح اليوم التالي.

وفي التليفون، تحدثت "سمر" لعاشقها نحو ساعة، بعد ذهابه إلى منزل شقيق "حمزة"، لقضاء ليلته الأولى في مطروح، حكي فيها عن صديقه القعيد الذي سيرافقهما في رحلة الغد، بعد أن استطاع تدبير سيارة بسائق للتنقل بين أجمل شواطئ مصر، منذ الصباح وحتى العودة من السلوم، ليزيد "الجيولوجي" من شوق الطبيبة للرحلة، واعدًا إياها بتناول الغداء بين أسرة بدوية في عمق الصحراء.

وتزامنًا مع دقات التاسعة من صباح اليوم التالي للرحلة الخيالية، كانت السيارة تقف أمام استراحة الأطباء، بعد أن وقف "عمر" على بابها في انتظار "سمر"، ليصافحها ويعرفها على "حمزة"، قبل أن يستقلا السيارة في اتجاه مدينة النجيلة، لترى الطبيبة في الطريق؛ حطام زراعات التين – التي حرمها الجفاف من الحياة – تفصل بين تجمعات بدوية صغيرة، تضم بضعة منازل ذات طابق واحد مقام من الطوب اللبن، والتي أشار إليها القعيد بيده عبر نافذة الباب الأمامي للسيارة، من مقعده بجوار السائق، ليبدأ في وصف الحال المأساوي الذي يعيش فيه سكان هذه المنازل، المحرومون من أقل المرافق والخدمات، الفائزون فقط بخط كهرباء، يربط مصابيحهم الصغيرة بالتيار، من وسط ثورة البنية التحتية التي شهدها الساحل.

كشف "حمزة" للجالسين في المقعد الخلفي للسيارة، عن تخصيص نتاج المشروعات الخدمية القومية – المقامة في مطروح – للمشروعات السياحية وحدها، التي تهتم بها الحكومة، غير معيرة بالًا لباقي المجالات، رغم أن أبناء مدن الساحل يعتمدون بشكل أساسي على النشاط الزراعي والرعوي،

لتجف الزراعات في ظل مخاصمة الأمطار الساحل طوال السنوات الماضية، ولا تجد الإبل ما تأكله من عشب، وتُغتال ثروات المنطقة يومًا تلو الآخر، مع معاناة أبنائها من البطالة الدائمة، خاصة مع خروج جميع الاجتماعات الحكومية، التي عُقدت لبحث التنمية بالساحل الغربي، بقرار واحد غير معلن، هو ترك المنطقة للأجيال القادمة، لتظل المسافة الواقعة بين مرسى مطروح والسلوم بطول ٢٠٠ كيلو متر؛ صحراء جرداء يعيش سكانها حياة بدائية.

وبعد نحو ٧٠ كيلومترًا، وصلت السيارة إلى مدينة النجيلة، والتقى "حمزة" صديقًا له كان في انتظاره، أوصاه القعيد بأن يعد لضيوفه مأدبة غداء بدوية، ليستقل الصديق المقعد الخلفي بجوار "عمر" و"سمر"، متجهين إلى عمق الصحراء، وحولهم الرمال الشاسعة، والزراعات الجافة، حتى وصلوا إلى تجمع للمنازل البدوية، ليتركوا السيارة، ويستعدوا لصعود هضبة صغيرة، عاون "الجيولوجي" صديقه القعيد على صعودها، دافعًا كرسيه المتحرك ومتحديًا الصخور حتى وصل إلى قمتها، لتسير الطبيبة برفقة "عمر" وهو يُمسك بكرسي "حمزة"، وترى فراغًا ممتدًا إلى البحر، ترسم السحب نهايته بتلاقيها أعلى الشاطئ.

وبمجرد صعودهما للهضبة، استغل "عمر" انشغال القعيد بصديقه الذي كان ينتظره بالأعلى، ليهمس في أذن حبيبته قائلًا: "أحبك بعدد رمال الصحراء وقطرات البحر"، لترد "سمر" بصوت حانٍ: "أحبك قدر اشتياق الصحارى للمطر"، ولم تنه الحبيبة كلماتها حتى فوجئت بعاشقها يُمسك

بيدها، لينطلقا مسرعين نحو أسرة بدوية صغيرة صعدت توًا إلى الهضبة، ليجدا رجلًا بسيطًا وامرأة متنقبة، يستقبلاهما بحفاوة بالغة، ويدعواهما إلى الجلوس في دائرة حول حفرة صغيرة جوّفها طفلاهما الصغيران بين الرمال.

وما أن جلس الحبيبان حول الحفرة، حتى أشعل رب الأسرة البدوية النار في كمية من الحطب، قبل أن تُمسك امرأته بطاولة حديدية كبيرة غطتها بأوراق حرارية، لتضعها فوق النار التي بدأت في التأجج، حتى لحق بها الزوج ليساعدها في دفنها بالرمال، ليقول لضيوفه مبتسمًا: "حضّرنا لكم، المدفونة"، وهي الكلمات التي استقبلتها الطبيبة بابتسامة دهشة، لتسأل المرأة البدوية عن سر الوجبة المنتظرة، وتشرح الأخيرة طريقة عملها، بوضع اللحوم بين الخضروات الطازجة، ودسها تحت الرمال، ليخرج الخليط الشهي بعد ١٥ دقيقة، بنكهة الصحراء المميزة.

وحول الطعام طيب المذاق، تحدث المجتمعون في أمور كثيرة، ليعلم "الجيولوجي" و"الطبيبة" أن أبناء البادية على استيعاب تام بما يدور بأرجاء البلاد، ويستمعا أيضًا إلى كمّ المعاناة التي يعيشها البدو وسط الصحراء، في ظل الجفاف الضاري، الذي يقتل أراضي المراعي الأفضل في مصر، بسبب التباطؤ في حفر آبار المياه، لتصبح الثروة الحيوانية التي يعتمد عليها أبناء الساحل في خطر، إلى أن انتهى الحديث بعد دقائق من تناول الضيوف الشاي المغلي على الحطب؛ في إناء نحاسى فخم مخصص للضيوف، ليترلوا سريعًا من الهضبة، بعدما أكد "حمزة" أن سفرًا طويلًا ينتظر ضيوفه حتى السلوم.

عاد الحبيبان وبرفقتهما "حمزة" وسائقه إلى السيارة، لينطلقا إلى الطريق الساحلي في اتجاه مدينة براني، وسرعان ما ألقت "سمر" رأسها على كتف "عمر" في المقعد الخلفي، ليُمسك العاشق بيدها، ويشعر بأنفاسها بين هواء شهيقه، قبل أن يحدثهما "حمزة" مشيرًا بيده إلى الشاطئ الممتد على يمين الطريق، وواصفًا مشاهد رائعة تحويها شواطئ المنطقة الفاصلة بين النجيلة وبراني، والتي حرمها بُعدها عن القاهرة من مشروعات سياحية عملاقة، وأهملتها الحكومة، لتترك أراضيها بلا حماية أمام عمليات سلبها واقتناصها.

وبعد ٧٠ كيلومترًا أخرى على الطريق الساحلي، وصلت السيارة إلى "براني"، ليجد "عمر" عاشقته قد نامت على كتفه، ويقبض على أناملها بحنان محاولًا إيقاظها، متأملًا عينيها الملائكيتين، ورموشها الكحيلة، ليتخيلها تستيقظ بجواره في عشهما الهادئ، وهو الإحساس الذي انتاب "سمر" أيضًا مع فتحها عينيها أمام نظرات عاشقها الحانية، لتزيد من احتضانها ليده، إلى أن فتح "الجيولوجي" الباب المجاور له، ليخرج مساعدًا عاشقته على اللحاق به، ويجدا مياه البحر الصافية على بعد أمتار قليلة منهما، قبل أن يصعدا سريعًا على التلال الصغيرة، ويهبطا منها إلى الشاطئ، ليتلاقى ظلاهما على الرمال، كالمتعانقين.

نأت "سمر" بظلها رويدًا رويدًا، لتحقق حلم عاشقها في الركض وراءها على شاطئ البحر، لتُسرع فجأة تاركة آثار قدميها أمام "عمر"، الذي خطى عليها مسرعًا حتى اختفت الحبيبة وراء تل صغير، وجدت فيه ساترًا من شوق حبيبها المتزايد، لتفاجأ بالأخير يظهر خلفها، رافعًا ضحكته بعدما

رآها تخفي وجهها بثوب الحرير الذي تعودت أن تبقيه أعلى كتفيها، لتبدو كالمقعنة أمام حبيبها، قبل أن تركض مسرعة نحو البحر، وتتبلل قدماها بالأمواج الهادئة، وعندها، كان الحبيب قد أزاح الشال الخفيف من أعلى كتفيه، ليلفه حول رأسه، ويظهر هو الآخر مقنعًا، راكضًا وراء جميلته التي تزايدت ضحكاتها، بمجرد أن لحق بها، ليجذب يديها ويدخلها سريعًا في صدره، قائلًا من خلف قناعه: "أخيرًا تحقق الحلم".

قال "عمر" هذه الكلمات، وهو يقبض على يدي عاشقته، قبل أن يدور معها في دائرة مفرغة رسمتها آثار قدميهما، ليلتقيا في منتصفها فجأة، وتجد الحبيبة شفتيها تلامس شفتي العاشق من خلف الحاجز الحريري القماشي، في عناق استمر لحظات قليلة، وانتهى بإفاقة "سمر" من غيبوبة القبلة الأولى في حياتها، على ثورة عارمة، ليجد الحبيب يدي معشوقته تضرب كتفيه بشدة، متهمة إياه بالجنون، وأمام غضب العاشقة الفاتنة، لم يجد "عمر" أمامه سوى رفع صوته حد الهتاف، قائلًا "بحبــــك"، ليفيق العاشقان على صوت "حمزة" يناديهما من أعلى التل البعيد، منهيًا واقعهما الخيالي، وتنظر "سمر" إلى عاشقها في خجل بالغ، في ظل تيقنها بسماع القعيد هتاف الحب الأخير، إن لم يكن رأى القبلة الخاطفة، ليجذب "عمر" يدها ضاحكًا، وهو يقول: "اطمئني، حمزة يشعر بنا، هو عاشق يتعذب من الأشواق مثلنا"، لتبتسم الطبيبة الخجولة وتطالبه بعدم تكرار مواقفه الجنونية، حتى في الصحراء!

وسرعان ما عاد الحبيبان إلى "حمزة"، الذي كان قد أنهى توًا زيارة لصديق مقرب له، قبل أن يأخذهما إلى بيته على بُعد خطوات من الشاطئ،

لترى "سمر" مشغله البدوي المتواضع، الذي يصمم فيه الملابس، ويجلس العاشقان نصف ساعة في ساحة المترل، أشار فيها القعيد إلى استراحة الأطباء المقابلة لبيته، قبل أن يعود برفقة ضيفيه للسيارة، حتى يلحقوا بغروب الشمس على هضبة السلوم، لينطلقوا في اتجاه المدينة الحدودية، ويرى الحبيبان على جانب الطريق مياه البحر الزرقاء، تتلألأ كالماس، مزينة أمواجه الهادئة.

ومع تأمله للمياة الصافية ضامًا يد حبيبته، سأل "عمر" صديقه القعيد عن عمليات الصيد الجائر، التي سرد له الأخير تفاصيلها خلال زيارته لمطروح قبل عام مضى، ليبدأ "حمزة" في الحديث عن الجفاف الذي وصل للبحر، بعد انخفاض المخزون السمكي في شاطئ السلوم بنسبة تصل إلى ٩٥%، رغم أنه كان يعد من أغنى شواطئ مصر، قبل أن يصاب بفقر سمكي، مع استمرار بعض الصيادين في استخدام الديناميت والسم؛ للحصول على كميات أكبر من الأسماك.

وبطريقة الخبير، ظل "حمزة" طوال ٤٥ كيلومترًا تفصل بين مدينتي براني والسلوم، يشرح كيف تسبب استخدام الديناميت في الإخلال بالتوازن البيئي للمنطقة البحرية، ما أدى لانتشار أسماك القراض السامة بشكل كبير في السنوات الأخيرة، حيث تضاعفت أعدادها مئات المرات وتزايدت أحجامها، ليصل طول السمكة الواحدة إلى ٥٠ سنتيمترًا، مع انقراض الأسماك المفترسة التي كانت تتغذى على القراض.

***

وبانتهاء حديث "القعيد" عن تسبب انخفاض المخزون السمكي في توقف العديد من مراكب الصيد، واضطرار الصيادين إلى البحث عن مهن أخرى للحصول على لقمة عيش تسد رمق أبنائهم، كانت السيارة تعبر بوابة "السلوم"، ليرى العاشقان الهضبة الشاهقة أمامهما، تحاصرها مياه البحر، حتى وصلا إلى بدايتها مرورًا بمنطقة السوق التجاري، وميناء الصيد، لتسير السيارة في أول منعطف خطر بين منعطفات الهضبة، وتتجاوز الثاني، إلى أن أصاب عطل مفاجئ مكابحها، ليحاول السائق جاهدًا إيقافها، ويبدأ فزع "سمر"، خاصة أنه لا نهاية أمام عينيها للمنعطف سوى مياه البحر، ليرتفع صوتها كلما اقتربت السيارة من الحافة، التي ترتفع عن سطح البحر مئات الأمتار، ليقبض "عمر" على يدها بشدة، إلى أن استطاع السائق إيقاف السيارة بأعجوبة، بعدما رفع مكابح اليد متعمدًا العبور فوق الصخور، ليهدئ السرعة، حتى نجح في الانعطاف يسارًا، والوقوف في بداية المنعطف الرابع.

خرجت "سمر" من السيارة مفزوعة، ليلحق بها "عمر" مسرعًا رابتًا بيده على كتفيها، طالبًا منها التقاط أنفاسها، إلى أن أفاقت ناطقة بكلمتيها المشهورتين: "حرام عليك"، ليرد العاشق ضاحكًا: "قلت لك ألف مرة، لا تقلقي وأنا بجانبك"، قبل أن يُمسك بيديها ويذهبا في اتجاه حافة الهضبة، ليُخرج "الجيولوجي" هاتفه من جيبه؛ ويضعه بين يدي سائق السيارة، بينما كان "القعيد" يجري اتصالًا بأحد أصدقائه المقيمين بالسلوم، كي يعاونه على إصلاح السيارة، تزامنًا مع مطالبة "عمر" السائق بأخذ صورة له مع "سمر" على حافة الهضبة، لتضاف صورة القلب المرسوم بأصابع الحبيبين بين جبال

وأمواج السلوم، إلى ألبوم الذكريات الذي طالما رافق الحبيبة الثكلى في لياليها الطوال.

وبعد ساعة ونصف توقفت فيها السيارة؛ لإصلاح مكابحها التي لم تتحمل الضغط مع المنحنى الشديد، كانت الشمس تلامس مياه البحر، لتتداخل أنامل الحبيبين في عناق طويل، جمع يديهما خلال تأملهما لحظة الغروب، ليهمس "عمر" في أذن عاشقته قائلًا: "مع كل غروب، أحبك"، وترد الحبيبة بنظرة حانية: "مع كل شروق وغروب، أدعو الله أن أعيش بجانبك للأبد".

ومع آخر ضوء للشمس الراحلة، كان صوت محرك السيارة يعلو، منبهًا الحبيبين إلى بداية رحلة العودة لمرسى مطروح، ليركضا نحو المقعد الخلفي، وينطلق السائق مراقبًا بقلق نهاية المنعطفات حتى لا يفاجأ بسيارة في الاتجاه المقابل، فمازالت الهضبة التي تعتبر خط الربط البري الأول بين مصر وليبيا؛ تعتمد على طريق ضيق منفرد، تسير فيه الشاحنات العملاقة ذهابًا وإيابًا دون فاصل خرساني، وبسبب الذعر الذي كان يصيب "سمر" مع كل منعطف، وجدت الأخيرة نفسها تضع رأسها على كتف عاشقها، إلى أن وصلت السيارة لمستوى الأرض، لتغمض الفتاة عينيها كالملاك أمام عيني "عمر"، وتدخل في نوم عميق، ويلحق بها عاشقها، مائلًا برأسه ليلامس شعرها المنهمر على كتفه، حتى أيقظهما "حمزة" قبل أمتار من استراحة الأطباء في المدينة السياحية، رافعًا صوته بحمد الله على وصولهم سالمين.

صافح الحبيب عاشقته أمام باب الاستراحة، منبهًا إياها للاستيقاظ مبكرًا حتى يعودا إلى القاهرة قبل غروب شمس اليوم التالي، لتودّعه "سمر" بنظرات تنعي اليوم الخيالي المنتهي، وإيماءات استجابة لتنبيهه، ويعود العاشق إلى استقلال السيارة في طريقه إلى منزل شقيق "حمزة"؛ لقضاء ليلته الثانية والأخيرة في مطروح، ليلة تحقيق حلمه الأول، بعناق "سمر" على شاطئ البحر، بل وتقبيلها.

***

# زواج مفاجيء

في التاسعة والربع صباحًا، وبعد ساعتين من البكاء، صباح ١٢ فبراير ٢٠١٤، اليوم الأول لعام الحرمان الثاني، كانت "سمر" قد اتخذت أولى خطوات تنفيذ القرار الصعب، الذي لم تقدم عليه منذ عام مضى، لتترك سريرها سريعًا، وتبدأ في الاستعداد ليوم حافل بالمهام، فبجانب تنفيذ قرارها، عليها الذهاب إلى أحد الاستوديوهات، كي تطبع صورها مع "عمر" على شاطئ المنيل بحجم كبير، فضلًا عن احتياجها إلى التسوق؛ لشراء باقي مستلزمات رحلتها الخيالية غدًا إلى نقطة انطلاق حبها الأبدي.

كل ذلك مع اضطرارها للذهاب إلى المستشفى العام الذي نُقلت إليه مؤخرًا، لتُنهي- مع بداية يناير الماضي - غربتها في مطروح، بعدما انعزلت عن العالم لمدة ٨ أشهر، قضتها على أجمل شواطئ مصر، تتابع الأحداث المشتعلة عقب ثورة ٣٠ يونيو عن بُعد، غير معيرة بالًا لصفحتها على "فيس بوك"، خاصة بعد اطمئنانها على رحيل الإخوان بلا رجعة، لتبقى منتظرة القصاص لدماء الشهداء من ضحايا جرائم الجماعة، ومنهم "عمر"، حتى عادت للقاهرة، عقب نجاح "كامل" في إطلاق سراح ابنته من سجن التكليف.

ومع عودهما لمنزلها، فتحت الأخيرة عينيها صباح ليلتها الأولى، مستيقظة على دوي القنابل، لتهرول مسرعة إلى الشرفة، وترى قنابل المولوتوف بحوزة ميليشيات الجماعة، انتظارًا لبدء لعبة "الكر والفر"، التي تشاركهم فيها قوات الأمن بالغاز المسيل للدموع، في ذات الشوارع أسبوعيًا، وربما يوميًا، إذا أرادت تلك الميليشيات الخروج من المدينة الجامعية للأزهر؛ لرؤية جميلات عباس العقاد ومصطفى النحاس يركضن بأبنائهن فزعًا من أصوات القنابل، إلى أن يتساقطن اختناقًا بأدخنة الغاز، أو إذا طغت على الإرهابيين رغبة المشاركة في حفل "لمس المؤخرات"، التي ترعاها "حرائر الجماعة" على أسوار كليات الجامعة، بحثًا عمن يساعدهن في تسلقها، ليحرقن ما يشأن ويتعدين على أعضاء هيئة التدريس والإداريين، لدرجة التجريد من الملابس.

***

وبعد ارتدائها ملابسها السوداء، احتضنت "سمر" والدها في الغرفة المجاورة لصومعتها، لتُفجر مفاجأة بالكشف عن قرارها الصعب، قائلة لـــ"سلوى": "سأزور بيت عمر اليوم، للاطمئنان على ماما ناهد"، وهي الكلمات التي لم ترد عليها الأم بالسلب أو الإيجاب، بعد أن أومأت برأسها عائدة لعناق ابنتها، لتقول بصوت حانٍ: "خلي بالك من نفسك"، وتغادر الابنة حضن والدها، في اتجاه باب المنزل، حتى وصلت لسيارتها مرورًا بالدرج، لتنطلق إلى المستشفى العام بمنطقة المطرية، للحصول على إجازة ٤ أيام، حتى تستمتع برحلتها المرتقبة.

وسرعان ما أنهت الطبيبة إجراءات إجازتها، لتغادر المستشفى في طريقها للمقطم، وبينما كانت "ناهد" تقرأ القرآن على روح نجلها - التي صعدت إلى السماء حاملة الشهادة - وسط أمطار الحزن المتدفقة بين جفنيها، سمعت الأم خطوات تقترب من باب منزلها، أعقبتها طرقات خجولة، لتغلق مصحفها وتمسك بصورة نجلها وتقبّلها، وتتساقط دموعها ما بين "البرواز"، قبل أن تتركه جانبًا، وتسابق خطواتها، وأصابعها تجري وراء دمعها؛ مجففة مجراه فوق خديها، إلى أن فتحت الباب؛ ليرتجف قلبها وتعود زخات الدمع في التساقط على وجنتيها، فأمامها خطيبة "نجلها"، التي لم ترها منذ ذكرى أربعين الشهيد، المتزامنة مع عيد الأم في العام الماضي، بعد أن تعمدت أن تقطع اتصالها بالفتاة، حتى تعطيها الفرصة إلى النظر للحياة، دون أن تتواصل معها لتذكرها بجراح الماضي، وتؤجج نار حب "عمر" في قلبها، فرغم تأكد الأم أن عقل "سمر" سيأبى نسيان عشقها الأبدي، الذي رأته في عينيها المنتحرتين منذ رحيل نجلها، إلا أنها فضّلت أن تترك الطبيبة بعيدًا عنها، ربما يمنحها الله غدًا أفضل تستحقه.

الأم التي لم يطرق بابها سوى بعض الصحفيين بعد استشهاد "عمر"، ولأيام معدودة، وجدت نفسها تحتضن "سمر" بلهفة شديدة، وكأنها تشعر في صدرها بدفء احتضانها نجلها الراحل، لتدخل في فرحة غامرة تجلّت على ملامحها، وهي ترحب بالفتاة كمن وجدت ضالتها، شاكرة الله أنها رأتها بعد هذا الغياب الطويل، لتتأكد أن الأيام لم تقهر حب "عمر" في قلب الحسناء الحانية، قبل أن تجذبها بيدها نحو الأريكة سريعًا، متخبطة من فرط إحساسها بالسعادة، رغم انهمار دموع الاثنتين.

بادرت الأم بسؤال "سمر" عن حال حياهّا بعد لقائهما الأخير، محاولة عدم ذكر اسم "عمر" حتى لا تزيد من دموع الحبيبة الثكلى، التي جلست بجوارها متشحة بالسواد، تحاول الإجابة دون أن تشعرها بما يجتاحها من ألم، بعدما لمحت عيناها صورة حبيبها الراحل معلقة أعلى الأريكة قبل جلوسها، لتتجنب الثبات أمامها، مبعدةً عينيها عن ملامحه، حتى لا تنهار بين يدي أمه.

حبست "سمر" أنفاسها، تحاول كتم آهاهّا التي تصرخ للخروج من صدرها المعتل حزنًا، مجيبه عن سؤال "ناهد"، قائلة: "الحمد لله، بخير"، لترد الأم بحماس: "أنتِ تستاهلي كل خير"، ثم ذكرت الطبيبة فضل الله عليها بعد سفرها عقب ذكرى الأربعين إلى مطروح، بعدما رزقها بأسرة صغيرة، عاشت بينها، تقدم المساعدة لضحايا الألغام، وتشرف على متابعة حالاهّم الصحية، كما حدثتها أيضًا عن المعجزة، التي جعلتها تشعر بأن حياهّا لها معنى بعد رحيل "عمر"، لتقطع الأم حديثها، حتى تقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة.

"ناهد" اضطرت لوقف جراح "سمر"، التي بدت على ملامح الأخيرة بعد ذكرها اسم عاشقها الراحل، لتبدأ الأم بعد قراءهّما الفاتحة؛ في شد الحديث إلى جانب آخر، علّها تُخمد نيران الحزن التي تحرق الطبيبة الشابة، لتحدثها عن معجزة ثانية، كان بطلها زوجها "أيوب"، بعدما عوّضه الله بالخير الكثير، على إخلاصه في عبادته ورفضه المال الحرام، حيث سردت "ناهد" تفاصيل النقلة الكبيرة، التي صححت مسار حياة زوجها المهنية، بعدما أسس شركة لمحركات الطائرات، بعد عام عمل فيه مديرًا إقليميًا

لشركة عالمية في مجال صناعة الطائرات، بصدفة بحتة؛ ليكون عبرة من آيات الخالق العظيم؛ عندما يجازي عباده الصالحين.

وشرحت الأم للطبيبة الشابة؛ كيف التحق "أيوب" بالعمل الجديد، عندما أرسل خطابًا للشركة العالمية، التي أعلنت عن حاجتها لمديرين إقليميين في إفريقيا وآسيا، ليتقدم مهندس الطيران بأوراقه محاولًا الخروج من المنزل، الذي مكث فيه ٦ سنوات تحت الإقامة التعسفية، منفقًا ما يملكه حتى يحافظ على مستواهما المعيشي، في ظل المعاش الضئيل الذي عانى منه طويلًا، ليحدث أمر استثنائي، إذ وقعت أوراق "أيوب" بين يد نائب رئيس مجلس إدارة الشركة، ليعينه في الحال؛ لما عرفه عنه من أمانة وعبقرية مهنية.

ظل مهندس الطيران يعمل بدأب لمدة عام، حتى نجح في بناء علاقات مع أباطرة الملاحة الجوية، ليترك منصبه في الشركة العالمية، مؤسسًا شركته المستقلة، التي ساهم في رأس مالها أكبر رجال الأعمال، إلى أن فوجئ ذات صباح، برجل يطرق بابه ليدخل مسرعًا، لينظر رئيس الشركة الجديدة متأملًا ملامح الرجل، التي لم تمح من ذاكرته منذ ٧ سنوات، إنه صاحب "المعطف الأنيق"، الذي ألقى المظروف ذا الـ٢٠٠ ألف دولار على مكتب المهندس بشركة الطيران، التي استبعد منها الأخير تعسفيًا، وسرعان ما صافح الرجل "أيوب"، معتذرًا له عما حدث بالماضي، وأخبره بأنه هو نفسه نائب رئيس مجلس الإدارة، الذي عينه بالشركة العالمية قبل أن يترك منصبه بأيام، وكانت المفاجأة!

وبانتهاء الأم من سرد قصة العمل الجديد لزوجها، رمت "سمر" نظرها إلى نهاية الطرقة المقابلة لها، حيث حجرة "عمر" التي لم تدخلها ولو مرة واحدة، إلا أن عينيها عادت لتتأمل الكرسيين المجاورين للأريكة، التي جلست على أحدهما بجوار حبيبها، أثناء زيارتها الأخيرة لمنزله، عندما أقام "أيوب" مأدبة عشاء كبيرة، بحضور الأهل والأصدقاء، احتفالًا بخطوبة نجله إلى الطبيبة الجميلة، بعد يومين من مشاجرة الكورنيش الشهيرة، التي انتهت في قسم مصر القديمة.

سريعًا ما وجدت "سمر" نفسها تتجرأ بشدة، وتطلب من "ناهد" اصطحابها إلى غرفة نجلها الراحل، التي تُركت مغلقة بعد استشهاده، إلا إذا قررت الأم فتحها حتى تمحو آثار الأيام من أركانها، لتغرق دموعها أثاث الغرفة أثناء تنظيفها، قبل أن تقف لدقائق أمام صورته، حتى تضطر إلى الجلوس على سريره فجأة، عندما تعجز قدماها عن حملها.

فوجئت الأم بالطبيبة تطلب منها اصطحابها إلى غرفة "عمر"، علها تلامس المفروشات التي قضى عليها حبيبها ليلته الأخيرة، عندما كانا يتحدثان عن ترتيبات زواجهما الوشيك، حيث طالبها وقتها بأن تكف عن القلق، الذي انتابها بعد علمها بالموعد الجديد لعقد قرانهما؛ بسبب عدم شرائها باقي مستلزمات الزواج، الذي كان مقررًا له شهر مايو بالأصل.

وسرعان ما استجابت "ناهد" لنداء عاشقة نجلها، لتمسك بيدها وتسيرا نحو الغرفة الصغيرة؛ أما "سمر" فكتمت أنفاسها متأهبة للحظات قاسية، تنتظرها داخل الحجرة، خاصة أنها تعلم جيدًا أنها لن تصمد أمام كم

الذكريات، الذي سيجتاحها بين جدرانها الأربعة، لتزداد دقات قلبها ضجيجًا مع فتح الأم الباب، وتطأ قدماها مملكة "عمر" وسط نظرات تتفحص أركانها.

***

لم تكن الحبيبة الثكلى تعلم أن ثمة كنوزًا تنتظرها داخل الغرفة، بعدما وقع نظرها على المكتب الصغير، الذي كان يجلس إليه "عمر" ساعات طويلة أثناء وجوده في القاهرة، لإنهاء أبحاثه العلمية، لتجد كنزًا ثمينًا أعلى المكتب في انتظارها، وُضع على ورقة كُتب عليها "الحب في زمن الثورة"، حيث كان والد "عمر" قد احتفظ بدبلة خطوبة نجله، ليضعها أعلى تلك الورقة بعد أن قرأ ما فيها، إذ كتب العاشق الراحل كلماتها بعدما سرد لـ"سمر" نهاية رواية "الحب في زمن الكوليرا" ليلة خطوبتهما، إلا أنه أضاف فقرة واحدة على الكلمات التي أملاها لحبيبته، حتى تكتبها على هاتفها الآخر، تلك الفقرة المضافة ستظل في ذهن الحبيبة حتى يومها الأخير.

التقطت "سمر" الدبلة التي جمعت بينها وبين عاشقها بصورة رسمية، في يوم وداعهما الحاج محمد الأبيض بمستشفى قصر العيني – الذي انتهى بالعاشقين في القسم – لتتأمل العاشقة خاتم خطوبتها، قبل أن ترفع يدها إلى وراء رقبتها، وتفك بأناملها عقدها الذهبي، لتستأذن الفتاة الباكية والدة خطيبها، كي تُدخل الخاتم في السلسلة، ليكون قريبًا منها دائمًا، وهو الطلب الذي وافقت عليه "ناهد" بإيماءة أسقطت دمعها المتجمع على وجنتيها، لتضع "سمر" الخاتم بجانب القلب الصغير، الذي أهداه إليها

"عمر" بعد عودتهما من مطروح، وتركض مندفعة إلى خارج الغرفة، تحاول إخفاء ملامحها عن أعين الأم، رافعة يدها بورقة "الحب في زمن الثورة"، حتى لا ترى "ناهد" بحر الدموع، الذي تدافعت أمواجه على خدي خطيبة ابنها الراحل.

لم تلتفت العاشقة المعذبة للوراء، حتى وصلت إلى الأريكة، لتقف أمام صورة "عمر"، في نظرة عشق أبدية، أذابت فيها الدموع ثليج عينيها، لتزيد من لمعان حدقتيها السوداوين، إلى أن رفعت الورقة التي مسكتها برفق لمستوى رأسها، ناظرة إلى ملامح حبيبها في الصورة، لتقرأ بصوت خافت الفقرة التي أضافها "عمر" على كلماته الساحرة في الهاتف ليلة خطوبتهما، كانت عبارة عن إهداء، بدأ به الكاتب الورقة الأولى من روايته التي لم تكتمل، كاتبًا بقلمه - باعتبار ما سوف يكون - تلك الكلمات: (إلى زوجتي التي ملكتني بعشقها، أكتب كلماتي لك وحدك، محاولًا الوفاء بوعدي، في أن أجد نهاية لقصة عشقنا، تفوق في سعادتها وأملها؛ كلمتي "مدى الحياة").

وبانتهاء "سمر" من قراءة إهداء "عمر"، كانت "ناهد" قد وصلت إلى جوارها، لتمسك يدها المرفوعة بالورقة، وتنحيها جانبًا قبل أن تعانقها بشدة، قائلة: "ربنا يصبرنا على فراقه يا سمر"، لتزيد الحبيبة الثكلى من عناقها لوالدة عاشقها، وتبدأ في الابتعاد عنها رويدًا رويدًا، بعدما وجدت نفسها على شفا حالة بكاء هيستيرية، في ظل عدم استطاعتها وقف جريان دموعها على خديها، لتقول الفتاة المنهارة محاولة السيطرة على كلماتها:

"أشوفك على خير يا ماما، عن إذنك"، ورغم تمسك "ناهد" ببقاء الحبيبة الباكية في منزلها حتى تتناولا الغداء معًا، إلا أن الأخيرة أصرت على الرحيل، لتعانق والدة حبيبها أمام باب المنزل، متجهة نحو سيارتها سريعًا، وممسكة بالورقة الباقية من حطام حبها الضائع، حتى استقلت السيارة، لتقف خمس دقائق، في تمام الثالثة عصرًا، ناظرة إلى مدخل منزل "عمر"، تستعيد مشهد لقائهما الأخير في ذات المكان والزمان، قبل أن يفصل بينهما الموت للأبد.

***

في صباح يوم الوداع، أو صدور حكم إعدام أحلام "عمر" و"سمر"، استيقظ الحبيبان مبكرًا ليبدآ الحشد عبر صفحتهما على "فيس بوك"، ليوم عاصف جديد ينتظره المصريون مع الاحتفال بذكرى "تنحي مبارك"، بعدما أعلنت القوى الثورية استعدادها للزحف على قصر الاتحادية - عصر ١١ فبراير ٢٠١٣ - لإسقاط حكم محمد مرسي، أو تكرار "سيناريو التنحي"، في ظل غضب شعبي عارم يرفض بقاء الإخوان على رأس السلطة، حيث كان "الجيولوجي" قد نسّق مع زملائه في ١٣ حركة وحزبًا سياسيًا؛ لتنظيم ٤ مسيرات تخرج من دوران شبرا، ومساجد الفتح والسيدة زينب ومصطفى محمود تحمل أسماء "الحرية"، و"الكرامة الإنسانية"، و"العدالة الاجتماعية"، و"العيش"، لتلتقي في ميدان التحرير استعدادًا للزحف إلى "الاتحادية".

وقتها، كانت تحاصر "عمر" التزامات كثيرة، خاصة أنه قرر في مساء اليوم السابق - بالاتفاق مع "كامل"، وبعد ٥ أيام من عودة الحبيبين من مطروح - أن يعجل بخطوة الزواج من "سمر"؛ ليعقدا قرانهما بعد ٤٨ ساعة في يوم ١٢ فبراير، على أن يسافرا يوم عيد الحب الذي يتبع زواجهما بيومين إلى المكان الأسطوري، الذي انطلقت منه قصة حبهما في نفس اليوم من العام السابق، هذا المكان الذي تستعد "الحبيبة الثكلى" للسفر إليه يوم "الفلانتين".

في ليلته الأخيرة، قرر "عمر" تقديم موعد الزواج، الذي كان مقررًا له شهر مايو، حتى يقي عاشقته شر الاغتراب في مطروح، خاصة أنه كان قد التحق بالعمل في الشركة الجديدة، ليكون قادرًا من خلال راتبه شبه المناسب على الوفاء بالتزامات عش الحب الأبدي، في ظل اتخاذه قرارًا بالاعتماد على نفسه بعيدًا عن والده "أيوب"، بعدما جار الزمن على الأخير.

وبالفعل، حصل "الجيولوجي" على موافقة "كامل"؛ كي يتم الزواج مطلع شهر مارس، عندما يُكمل شهرين في شركته الثالثة، حتى يحصل على إجازة طويلة، تكفيه للاستمتاع بأحلام العشق التي طالما راودته في عواصف شوقه لمحبوبته، قبل أن يعاود السفر إلى سيناء للعمل أسبوعين، على أن يعود بعدهما إلى بيت الزوجية لقضاء أسبوع إجازة، قبل ذهابه لأرض الفيروز مرة ثانية.

قضى العاشق ليلته الأخيرة، يسأل نفسه محدقًا في سماء غرفته، راسمًا ملامح عاشقته في مخيلته، ماذا سيكون حاله عندما يترك "سمر" الزوجة، مسافرًا إلى الجبال!، بعد أن بات معها في بيت واحد، ليشعر بدفئها، ويقترب من أنفاسها التي تشعل أرجاءه كلما حلم بأنها ستلامسه قريبًا، ليلهب شهيقها وزفيرها أركانه وهي في أحضانه، يداعب شعرها الناعم بأنامله، ويرسم بشفتيه قلوبًا من قبلات على وجنتيها، لتلامس أنفاسه نغزتيها.

وفي الثالثة من عصر اليوم التالي، كانت سيارة العاشقة تقف أسفل منزل "عمر" بالمقطم، استعدادًا للانطلاق إلى التحرير، ليخرج "الجيولوجي" في ثانية وصولها، راكضًا نحو بابها الأيمن، قبل أن يفتحه ليحتضن بيده أنامل "سمر" الرقيقة، متحدثًا عن أشواق ظل يدخرها طوال الليل، في انتظار دخولها إلى أحضانه بعشهما الصغير، الذي سيوضع حجر أساسه بعد ساعات، بعقد قرانهما في مسجد الفتح بـــ"رمسيس"، وسط الأهل والمئات من أصدقاء النضال الثوري في الميدان، إلا أن الحبيبة كانت تحمل له عتابًا منذ اليوم السابق، لأنه فاجأها – كالعادة – بتقديم موعد الزواج بالاتفاق مع والدها.

وبعد أن أخذت الأشواق حدها المسموح بين الحبيبين، سامحت "سمر" حبيبها على مفاجأته غير المتوقعة، ليمسك يدها ويقربها إلى شفتيه، واضعًا قبلة على راحتها اليمنى، ثم بدأ العروسان في تنحية فرحتهما بيوم زواجهما جانبًا، بعدما أفاقا من لحظات التلاقي والعتاب على عناوين نشرة الأخبار،

التي انطلقت من راديو السيارة، لتلهب حماسهما بصورة كبيرة، خاصة أنها تضمنت عدة معلومات تؤكد وصول مسيرات القوى الثورية إلى ميدان التحرير بكثافة، قبل بدء الزحف نحو القصر الرئاسي.

انطلقت سيارة الحبيبين في اتجاه التحرير، وبمجرد وصولهما ميدان السيدة عائشة، التقيا صديقهما الثوري "زياد"، الذي كان يعاونهما في إدارة صفحة "أكاذيب القتلة" على موقع التواصل الاجتماعي، بعد أن اتفق معهما على انتظارهما ليذهب بصحبتهما إلى الميدان، ليصافحهما مهنئًا على عقد قرانهما، بعد أن أبلغه "عمر" بموعده القريب جدًا في الليلة الماضية، ليدعو لهما صديقهما ضاحكًا بأن يقيهما الله شر الإخوان، قبل أن يتحدث مستقلو السيارة عن إراقة الجماعة للدماء، واستمرارها في المتاجرة باسم الدين للحصول على أكبر المكاسب السياسية.

الأصدقاء الثلاثة تذكروا حالهم عندما نزلوا إلى ميدان التحرير، في ٢٥ يناير – قبل عامين – هاتفين بشعارات العيش والحرية والعدالة الاجتماعية، ناقمين على نظام تصوروا أنه يتعامل مع مصر على أنها من أملاكه الخاصة، إلا أنهم لم يتوقعوا أن تتمخض هذه الانتفاضة الشعبية – التي نادت بإنقاذ المصريين من الفقر والفساد وقهر الأمن – لتلد فراغًا أمنيًا وملعبًا واسعًا للفوضى، يلهو فيه الإرهابيون كيفما شاءوا، حارقين ومقتحمين الأقسام والسجون، تحت مسمى "الثورة السلمية".

تحدثوا أيضًا عن المؤامرة الإخوانية، التي بدأت باندساس أعضاء التنظيم بين صفوف المتظاهرين صباح ٢٨ يناير، بعد ٣ أيام بُحت فيها أصوات

المصريين هتافًا ضد أركان النظام، حيث لم يتصور الأصدقاء الثلاثة أن الإخوان كانوا قادرين على إثارة الثوار الحقيقيين، إلى الحد الذي يجدون فيه أنفسهم فرحين بركض أفراد الشرطة أمامهم، ومهللين باحتراق الأقسام، ومحايدين غير قابلين أو رافضين لاقتحام السجون، أو حتى متسائلين عن القوة الخفية التي استطاعت أن تخرج قيادات الجماعة الإرهابية من غياهب الزنازين المظلمة.

***

# جهاد النكاح

في الثالثة وخمس دقائق، كانت "سمر" تنطلق بسيارتها، تحاول السيطرة بيد واحدة على عجلة قيادتها، بينما تتحرك يدها الأخرى على خديها لمحو الدموع، قبل أن تمتد لفتح راديو السيارة، لتسمع نبأ القبض على أعضاء خلية إرهابية بفندق شهير، من بينهم "علي" ابن الجهادي المتطرف مجدي عبد القادر، الذي حكى "عمر" عنه كثيرًا خلال نقاشه مع حبيبته حول قسم "السمع والطاعة"، الذي يصبح مؤديه بموجبه عضوًا في جماعة الإخوان، ليكون ملتزمًا بالطاعة العمياء لمرشد القطيع الذي ينتمي إليه.

كان "الجيولوجي" قد تحدث مع "سمر" عن أفكار حسن البنا صانع التكفير فى القرن العشرين، وأول من وضع ملامح المجتمعين، "مجتمع الإيمان الصحيح" – وهو المجتمع الإخواني – و"مجتمع الباطل" الذى يعيش فيه باقي المسلمين بما فيهم العلماء والفقهاء، وأشار "عمر" أيضًا إلى جانب من مظاهر تشدد "سيد قطب" خليفة "البنا"، ساردًا ما قرأه في كتاب "معالم على الطريق"، ومؤكدًا لها استمرار جاره الكيميائي "علي" في السير على النهج القطبي، إلى أن تولى الإخوان الحكم في البلاد، جانيًا من ورا وصولها للسلطة مكاسب عديدة، خاصة بعدما أصبح قياديًا بارزًا بـ

صفوف شباب الجماعة، بفضل نشاطه ودخول والده القيادي في الدائرة الاستشارية للرئيس الإخواني.

كشف "عمر" لـــ"سمر" عن دور نجل القيادي المتطرف في الحشد للمظاهرات التي تنظمها جماعة الإخوان لمواجهة معارضيها، ليظهر "علي" في مشهد تعذيب المواطنين الأبرياء بالخيام الدموية، التي نصبتها "ميليشيات الجماعة" على أبواب القصر الرئاسي، كي يجبروا متظاهري الاتحادية الرافضين للإعلان الدستوري، على الاعتراف بأنهم خرجوا في اتجاه القصر؛ بتحريض من أعضاء الحزب الوطني المنحل، باذلين في سبيل ذلك كل أشكال الإيذاء الجسدي، إلى أن خرج متظاهرو الاتحادية ناجين من شبح الموت الذي كان على مقربة منهم، في ظل تعمد شباب الجماعة الذين تولوا مهمة التعذيب، الضرب في أماكن خطرة، حتى يكسروا ضلوع المحتجزين.

وبعد سماعها نبأ القبض على الإرهابي "علي"، تذكرت "سمر" الخبر الذي قرأته وسط متابعتها لتطورات ثورة ٣٠ يونيو – خلال وجودها في مطروح– حول هروب والده المتطرف "مجدي" إلى دويلة صغيرة منبوذة من جيرانها، تلك الدويلة التي عاش فيها والدا الطبيبة سنوات طويلة، إذ غادر "الجهادي البارز" القاهرة قبل أيام من اندلاع الثورة ضد الإخوان، بعدما وجد البساط ينسحب من تحت أقدام الجماعة الحاكمة، مصطحبًا معه "رانيا" مذيعة قناة "البصيرة"، التي تُبث من عاصمة القُطر الصغير، بعد أن وصلت علاقاتهما مداها غير المسموح.

***

قبل أسابيع قليلة من هروب "مجدي" إلى الدويلة، تزوج ابنه "علي" من ابنة أحد قيادات الإخوان، ليتركا منزلهما بعد ثورة ٣٠ يونيو، ويقيما في اعتصام رابعة العدوية، ومع عصر يوم فض قوات الأمن الاعتصام، سكنت رصاصة صدر زوجته، بعدما اتخذها أحد مسلحي الجماعة ساترًا أثناء تبادله إطلاق النار مع القوات، ليركض المسلح وراءها، وتسقط زوجة "الكيميائي" في الحال، وسط زخم الرصاص المتبادل بين المعتصمين المسلحين، وقوة الفض التي بدأت بإطلاق النار، عقب سقوط ضباطها في دمائهم جراء رصاص الإخوان الغادر، الذي أطلقه المسلحون مع أول النداءات المطالبة للمعتصمين بإخلاء الميدان.

ومع فض الاعتصام، بقي "علي" في كنف والد زوجته، الذي استغل عقليته الكيميائية ليجد له دورًا جديدًا، حيث انضم "الكيميائي" إلى خلية إرهابية أُسست على الفكر التكفيري والدموي، لتزرع القنابل هنا وهناك في سبيل ترويع المصريين الآمنين، وسرعان ما أصبح الأرمل مشرفًا على معمل تصنيع المتفجرات، بعد أن أبهر أعضاء الخلية، بقدرته الكيميائية الفذة، صانعًا القنابل من مواد ومركبات بدائية في معمل صغير، حيث نجح في إنتاج البارود من خلال تفاعل نترات الأمونيوم مع البوتاسا الكاوية أو "البوطاس"، ليضيف إلى العبوة الناسفة، كميات من المسامير والكور الحديدية الصغيرة، حتى تُحدث أكبر ضرر جراء انفجارها.

تطور "الكيميائي" مع مرور الوقت، إلى أن استطاع إنتاج الديناميت أو مادة "TNT" شديدة الانفجار، جراء تفاعل البنزين العطري مع غاز

الميثان منتجًا مركب "الطولوين"، ليتفاعل المركب الأخير مع حمض النيتريك، وعندها تكون المادة المتفجرة جاهزة في انتظار جهاز "مفجر" صغير، لتحوّل ما حولها بعد انفجارها إلى أشلاء، وهو ذات الأثر الذي أنتجه "علي" بعد أن مزج بين مادة "الجلسرين" وحمض النيتريك، لينتج عبوة ناسفة تنفجر بمجرد ارتطامها بأي مكان أو شخص، قبل أيام من إلقاء قوات الأمن القبض عليه ضمن أفراد الخلية الإرهابية، بعدما حددت مكان إقامتهم بفندق شهير في القاهرة، ليحالوا إلى محاكمة عاجلة.

***

"رانيا" هربت مع "مجدي" إلى الدويلة، بعد شهور قليلة من بدء علاقتهما، حيث خرج الجهادي المتطرف من أول لقاء جمعه بالمذيعة في استوديو "الحقيقة"، ليتلقى اتصالًا من قيادي إخواني كبير، يهنئه فيه بمنصب مهم، بات على قرب خطوات منه، ويطالبه بأن يتوجه إلى مكتب إرشاد الجماعة، حتى يلتقي أحد القيادات ليشرح له ماهية المطلوب منه خلال الشهور المقبلة، وهو ما حدث، إذ فوجئ "مجدي" بقرار تعيينه ضمن الهيئة الاستشارية للرئيس؛ مكافأة له على استماتته في الدفاع عنه بالمحافل التليفزيونية، ليلتقي المذيعة بعدها بأيام بسيطة داخل الاستوديو للمرة الثانية، لكن بمسمى وظيفي جديد.

ومع السرعة التي اتسع بها دور القيادي الجهادي، ليكون أحد المقربين من رئيس البلاد، ومع نظراته الثاقبة المتفحصة للمذيعة خلال حوارهما، علمت "رانيا" أن الدنيا تضحك لها مرة أخرى، لتحرص بعد انتهاء الحلقة

على تهنئة "مجدي" على المنصب الجديد، وبخبرته النسائية تيقن القيادي أن نظراته نجحت في طرق باب المذيعة، خاصة أن نظراتها هي الأخرى كانت تفتح له هذه الأبواب على مصاريعها، ليتبادلا أرقام الهواتف، استعدادًا لجولة ساخنة من التواصل، قبل أن يتصافحا؛ ليقبض "مجدي" بشدة على يدها، في اختبار لصحة ظنونه، ليجد ابتسامة رضا على وجه المذيعة، ويعلم من نظراتها الحانية أنها استوعبت ما يريد، ويتركها على باب الاستوديو، في انتظار تواصلهما الساخن.

كانت "رانيا" في هذا اليوم تنعي "مدحت"، الذي مات بين أحضانها فجأة قبل ٢٠ يومًا، نتيجة جرعة زائدة من "الكوكايين"، امتزجت بالمواد الفاعلة لكبسولات المقويات الجنسية؛ وكمية الكحول المنتشرة في دمائه، بعد زجاجة شربها بجوار فاتنته، ليلفظ أنفاسه في الحال، قبل أن يهم بالعشيقة الصغيرة، وتُطلق الأخيرة صرخة قوية، فقدت على أثرها النطق لدقائق، حاولت فيها تحريك جسد الميت من أعلاها، بعدما أكدت كل العلامات رحيله عن الحياة، لتبدأ في اللطم على خديها، مستدعية كل المواقف الصعبة التي مرت على حياتها، خلال رحلاتها إلى الشقق المفروشة، علها تجد مخرجًا من ورطتها، لتكتم أنفاسها في هدوء، وترتدي ملابسها بتخبط، وتركض نحو باب الشقة، التي لا يعلم مكانها سواها وبعض الساقطات.

ونجحت المذيعة في الوصول إلى سيارتها الصغيرة، دون أن تعبأ بمصير جثة "مدحت"، لتتحرك في اتجاه شقتها بالمعادي، غير قادرة على القيادة من هول الصدمة، إلى أن وصلت بأعجوبة، في رحلة استمرت نحو ساعة، كانت تقف فيها لدقائق في كل منطقة آمنة؛ لتلتقط أنفاسها التي كانت

تختنق مع مرور الوقت، خوفًا من مصير حياتها دون "مدحت"، الذي عثر جيرانه على جثته بعد نحو أسبوع من هذه الليلة، بعدما انبعثت رائحة كريهة من داخل الشقة، ليقتحموها، واجدين جثة متعفنة.

ظلت "رانيا" منذ موت "مدحت" وحتى لقاء "مجدي"، تبحث وسط ضيوف برنامجها، عن رفيق جديد يضمن لها الحماية من ضربات الزمن الموجعة، برعايته وأمواله، مقابل أن تقدم له كل ما أوتيت من جنس صاخب، وبالفعل نجحت في اصطياد ٤ زبائن من النوع الثمين، لتبدأ معاشرة كل منهم، في أقل من ٤٨ ساعة من لقائها الأول به، باذلة في سبيل ذلك كل الحيل المثيرة، بداية من استقلال السيارات برفقتهم، مستجيبة لكل تحركات أياديهم على جسدها، التي كان يبدأها مرافقوها من باب جس النبض، وجس أشياء أخرى إذا استجابت المذيعة الفاتنة.

وقبل منتصف الليلة التالية لحوارهما التليفزيوني، فوجئ "مجدي" باتصال من المذيعة، تؤكد فيه أن كارثة بدأت تعصف بمستقبلها المهني، مع إصرار صاحب القناة على استبعادها من قائمة البرامج، ليطالبها القيادي بأن تهدأ حتى يدبر وقتًا يستطيع فيه لقاءها في اليوم التالي، أما "رانيا" فتعمدت استثارة رجلها الجديد من خلال حديثهما، لتُخرج عدة آهات ساخنة، في غير موضعها بالمرة، في سبيل الإجابة عن أسئلة السياسي البارز، بينما كان الأخير يقابل آهاتها بضحكات تتعالى رويدًا رويدًا، باديًا إعجابه بمفاتن صوتها الصافي، ومحاولًا إفهامها أنه استوعب غايتها، ليسير معها في ذات الدرب، قائلًا: "آهاتك تمس كل أركاني"، وهو ما قابلته المذيعة بضحكة

مارقة، ألهبت حماسة السياسي الساخن، ليحاول اكتساب أرض جديدة، قائلًا: "لا أعلم ماذا سأفعل عندما أسمع هذه الآهات وأنتِ بجانبي"، لتزيد "رانيا" من ضحكاتها المثيرة، ويتم الإيجاب والقبول في عقد المتعة المحرمة.

وفي مساء اليوم التالي، كان أول لقاء جمع طرفي العقد خارج القناة، بعدما اتصل "مجدي" بالمذيعة في الواحدة ظهرًا، ليخبرها بأن هناك فرصة للتلاقي بالسابعة مساءً، وأنه سيرسل سائقه بسيارته؛ كي يحضرها من المعادي إلى التجمع الخامس، ليجلسا في حديقة فيللته الأنيقة، وهو الأمر الذي استجابت إليه "رانيا" بكل سرور، مؤكدة أنها ستكون على استعداد تام منذ السادسة والنصف، في انتظار سائقه، قبل أن تجذب الحديث مرة أخرى إلى تعنت صاحب القناة معها، بعد موت شريكه صاحب الفضل في إلحاقها بقائمة المذيعين، وكرد فعل منه على رفضها الاستجابة لمطامعه الشخصية.

والحقيقة أن صاحب القناة لم يحاول الاقتراب منها نهائيًا، خاصة أنه كان يرى الجميع يشكرون حُسن أخلاقها وتدينها، إلا أن الرجل فوجئ بعد موت صديقه "مدحت" بواحد من الزبائن الأربعة الجدد للمذيعة، وأحد أصدقائه السياسيين المقربين، يخبره ضاحكًا بأن قناته تضم أكثر المذيعات إثارة، ليحكي له عن الساعات الساخنة التي قضاها مع المذيعة رانيا، ويستقبل رجل الأعمال الكبير الحكاية مقررًا استبعاد المثيرة من قائمة مذيعي قناته المحترمين.

وفي السابعة والربع مساءً، كانت قدما "رانيا" تطآن فيللا "الجهادي" للمرة الأولى، بعدما تركها السائق على بابها، مشيرًا للحارسين بيده لفتح البوابة الكبيرة، لتجد المذيعة "مجدي" ينتظرها على بعد خطوات قليلة بالحديقة الفسيحة، مادًا يده وفي عينيه نظرة إثارة بالغة، حيث تعمدت الفتاة العشرينية أن ترتدي رداءً مثيرًا للغاية، أظهر ثلثي ساقيها ونصف صدرها اليانع، وأمام كل هذا، وجد الرجل نفسه يتقدم نحو المذيعة قابضًا على يدها بقوة، مبديًا إعجابه الشديد بأناقتها الفاتنة، قبل أن يجذبها بيديه إلى أحد الكرسيين المتقابلين، ليجلسا بجوار حمام السباحة الصغير، وباستمالة "رانيا" للجلوس، رأى "مجدي" – عن كثب – نصف صدرها المتبقي، ليطلق نظرة ساخنة، وباكتمال جلوسها على الكرسي، انحسر الرداء القصير عن ساقيها، ليصل الرجل الساخن بخطوة واحدة إلى كرسيه المقابل، ويجلس موجهًا حدقتيه إلى النصف السفلي للجالسة أمامه، ليرى ملابسها الداخلية السوداء، في المسافة التي تعمدت المذيعة تركها بين ساقيها بعد جلوسها.

وقتها، استقبلت "رانيا" نظرات الرجل المستشار بضحكة أكثر إثارة، معلنة إضافة بنود أخرى على عقد المتعة، الذي أبرماه بهاتف الليلة الماضية، ليبدأ "مجدي" في سؤالها عن أحوالها، بطريقة: "أنتِ بخير؟"، وتجاوب "المذيعة" بآهة مثيرة أكملت اشتعال جسد الرجل، ليحرك يده نحو جلبابه، شادًا قماشه بين ساقيه، محاولًا ستر استثارته، وكبح جماحها، حتى لا تلاحظ الجالسة أمامه ارتباكه، ليبدأ في طمأنتها على مستقبلها التليفزيوني، مؤكدًا أنه أجرى اتصالًا بأحد قيادات قناة "البصيرة" – المتحالفة مع التيارات

المتشددة – واصفًا كيف مدح لباقتها وذكاءها إلى محدثه، حتى اتفقا في النهاية على ترتيب موعد في مكتب القناة بالقاهرة؛ كي يلتقي المسئول الكبير بالمذيعة اللبقة.

وجدت "رانيا" الجهادي يقدم لها طبقًا من ذهب، فهي تعلم أن مذيعي تلك القناة – التي تُبث من ذات الدويلة الصغيرة المنبوذة – يتقاضون آلاف الدولارات، لتقرر المذيعة أن تمنح الرجل درسًا مغايرًا في الجنس تلك الليلة، حتى تتشبث بالطبق الذهبي، وتحقق كل أمانيها، التي كان من بينها الانتقال إلى شقة فاخرة في مدينة نصر، وتغيير سيارتها الصغيرة بأخرى فارهة، حتى تخطو خطوة أخرى تجاه حياة الثراء الفاحش، التي حلمت بها منذ أن تلقاها "مدحت" بين أحضانه، لترى الشقق الفاخرة بأثاثها الفرنسي، والستائر المزينة بماء الذهب، والأسرّة الدائرية المستفيضة، ذات المفروشات الحريرية مبهجة الملمس.

***

المذيعة تشبثت بالطبق الذهبي، مثلما تشبثت بجملة "وماله، مش بيدينا فلوس؟"، التي أطلقتها "سوسو" كإشارة البدء لشهوة ابنتها الشاذة، والتي أخذت الأخيرة بمقتضاها سبيلًا آخر لإفراغ شهوتها، يبعدها عن القلق والخوف، وإن كان فيه بعض الألم، الذي تحوّل مع مرور الوقت إلى لذة بالنسبة لـــ"رانيا"، بعدما عوّدها "مدحت" في الجلسات التي كان يحرص عليها أسبوعيًا مع فاتنته الصغيرة، على التلذذ حد الألم، باذلًا في سبيل ذلك الكثير، بداية من ضربها رويدًا رويدًا، حتى إيلامها بعنفه الزائد على الحد، إلى أن تحولت ملامح البراءة البسيطة التي تبقت في وجه الفتاة، بعد

التحاقها بدروس العشة، إلى ملامح شهوانية بحتة، تُعبر فقط عن رغبتها التي تأججت يومًا بعد يوم.

كان "مدحت" يُجلس الفتاة بجواره على الأريكة أمام شاشة التليفزيون، واجدًا فيها جسدًا يافعًا يشكله على يده، ويعوّده على رغباته الشاذة، ليبدآ كل حفل جنسي بعرض فيلم بورنو عبر جهاز الفيديو، لتحفظ الصبية الساخنة أوضاعه بأدق تفاصيلها، قبل أن تصاحب رجل الأعمال إلى غرفة النوم، لتدخل في امتحان عملي، تتذكر فيه جميع أوضاع الجماع - خاصة الشاذة - التي رأتها توًا بالفيلم، ليساعدها الرجل الثائر في تطبيقها بحذافيرها، باذلين ما في وسعهما للوصول إلى ذروة الاستمتاع، ليضيف "مدحت" الجديد يومًا بعد يوم، حتى أقدمت الفتاة على شرب الخمور، التي كان يُخفف الخبير الجنسي من تركيزها بالمياه الغازية، إلى أن تفوقت على جزعها، لتشربها "سك" مع مرور الأيام!

واستمر تلاقي الرجل والفتاة أسبوعيًا لمدة ٣ أشهر، في الشقة الفخمة التي خصصها الأول لملذاته، ليحدثها عن جولاته المكوكية حول العالم، والعجائب التي رآها في كل عاصمة، حيث كانت "رانيا" تستمع إليه بفم يتسع ثانية تلو الأخرى، وعلى ملامحها علامات اندهاش لا توصف، كالقروية الساذجة التي وجدت نفسها فجأة في مركبة فضائية، وتزايد هذا الانبهار بعدما بدأ معلمها الجنسي في اصطحابها معه إلى أحد الفنادق المطلة على النيل، التي كان يجامع فيها الأجنبيات، خاصة الروسيات، بعد أن يتفق معهن على مقابل الليلة في قاعة الرقص بالفندق ذاته، لتشعر الفتاة بأنها

تنتقل إلى عالم آخر، مليء بالمفاجآت والشهوات، خاصة بعدما فوجئت بـــ"مدحت" ذات ليلة يصطحب عاهرة روسية إلى الغرفة، ليبدأ الثلاثي حفلًا جنسيًا جماعيًا صاخبًا!

وبعد الـــ٩٠ يومًا، سافر "مدحت" بشكل مفاجئ إلى إحدى الدول الأوروبية، مؤكدًا للفتاة أن موعد عودته لا يزال مجهولًا، لتشعر بأنها فقدت حياتها الجديدة، وتعود للانضباط في دروس العشة، إلا أنها قد أصبحت مُعلمة، توجه ابن عمها إلى حيث شاءت رغبتها، ليلبي نداءات جسدها، مندهشًا من التطور السريع الذي طرأ على استجاباتها وانفعالاتها وتأوهاتها، إلى أن لحق الحبيب الأول بالمعلم الأول، مسافرًا إلى ليبيا ليعمل مع شقيق "رانيا" في المعمار.

وبعد رحيل والدتها "سوسو"، متأثرة بحروق من الدرجة الأولى إثر انفجار أسطوانة غاز بالمطعم المجاور لمنزلها في دار السلام، عندما كانت تطل من نافذة غرفتها بالطابق الأرضي، نازعة آخر قطعة ملابس تبقت على أحبال الغسيل، استعدادًا لليلة جديدة من الفجور، حيث كان الحال قد تبدل كثيرًا بالأم، لتدمن المخدرات بجانب الشهوة، وتؤجر شقة خاصة تستقبل بها زبائنها، بعيدًا عن خطر الشقق المفروشة، خاصة بعدما تلقت علقة موت في إحدى السهرات، عندما جلبها أحدهم إلى منزله لتجد ٧ رجال في انتظارها، قبل أن يجبروها على إعطائهم حقهم في جسدها الرخيص، واحدًا واحدًا، ولم تقصر "سوسو".

وقع هذا الانفجار بعد عامين من كبح "رجل الأعمال" عجلات سيارته في المعادي، وزفرة "رانيا" الساخنة خلف المقعدين الأماميين تزامنًا مع وصول "سوسو" لشبقها، قبل أن تلقى مصيرها لتلحق بزوجها، الذي لم يكن يظهر بين أبنائه سوى نصف ساعة يوميًا، بعد مجيئه فجرًا لينام حتى المساء، ومن ثم يستيقظ مداعبًا زوجته ليخرج من باب الغرفة في الرابعة عصرًا، إلا يوم الخميس العظيم، الذي يقضيه بين تأوهات زوجته المثيرة حتى مطلع الفجر، غير متسائل عن سر الأموال التي تنفقها زوجته هنا وهناك، رغم أن كل ادعاءاتها كانت بلا منطق، ليقبض الله روحه في ذات اليوم العظيم، تاركًا خلفه أبناءه الثلاثة، الذين أكملوا تعليمهم المتوسط بفضل جهود "سوسو" المضنية في خدمة رغبات عملائها، إلى أن تزوجت شقيقة "رانيا" الكبرى تاركة دار السلام إلى البدرشين، وذهب الابن للعمل بالمعمار في ليبيا، لتخلو الغرفة على الأم والابنة التي كانت قد التحقت بالثانوية العامة، قبل أيام من وفاة والدها.

***

وباحتراق "سوسو" إثر انفجار الأنبوبة، كانت "رانيا" قد جامعت عشرات الشباب، بعد أن تعدت مرحلة العشة بكثير، خاصة مع استمرار غياب "مدحت"، واتساع ثقبها الأسود، لتحذو حذو أمها، وتترك جسدها لالتهام كلاب الشوارع، ذائقة كل أنواع الجنس - عدا الطبيعي - إلا أن شهوتها لم تنضب يومًا واحدًا، لتشتعل حارقة من تجده أمامها، إلى أن سمعت ذات صباح، طرقًا على نافذة غرفتها بالطابق الأرضي، لتفتحها وتجد خادمة "مدحت" أمامها، تستدعيها إلى سيدها سريعًا، بعد عودته من السفر بساعات.

وبخبرة رجل الأعمال الطويلة، أدرك من اللقاء الأول، أن قطته الصغيرة أصبحت ذات أنياب، وأن الأيام قد أكسبتها العديد من المهارات الجديدة، ليقرر أن يبدأ فتحًا جديدًا في سجل فتوحاته الجنسية، ويُفقد "رانيا" عذريتها في لحظة شهوة غادرة، صرخت على أثرها بشدة، غارزة أظافرها في ظهره، قبل أن تدخل في عويل يعزي ما فقدته، ليضمها "مدحت" إلى صدره بقوة، ويفهمها بصوت عاقل، أن ٣ آلاف جنيه تعيدها كما كانت، وأن ما فُقِد يمكن أن يعود، وبسهولة بالغة.

مُفقِد الفتاة عذريتها، قرر أيضًا أن يخضعها مرة ثانية إلى ملكيته الخاصة، لينفق عليها ببذخ، ويخصص يومين كاملين أسبوعيًا للقائها في شقة الهرم، متناولًا كل ما أوتيَ من مقويات جنسية، حتى تتخطى معه ما وصلت إليه مع الآخرين، حيث أدرك الرجل جيدًا أن الشهور الطويلة التي قضاها في الخارج، جعلت احتياج الفتاة الدائم يرمي بها في بحر العاهرات، إلا أن ذكاءها ومهارتها الدائمة في تنفيذ رغباته، وذوقها المثير في اختيار ملابسها الساخنة الذي كان يرتقي يومًا بعد الآخر، دفعه إلى أن يقبض عليها بيده وشهوته، باذلًا في سبيل ذلك الكثير من ماله وصحته!

انتشل رجل الأعمال الثري "رانيا" من أزقة دار السلام، ليستأجر لها شقة في منطقة حدائق المعادي، بعد أن خلت غرفتها الصغيرة ببيت العائلة من والديها وأشقائها، ليقيم معها بصورة شبه مستمرة، منبهًا إياها بأن تُركز في دراستها بالثانوية، حتى لا تقضي عمرها في الشارع، وواعدًا بمكافآت مثيرة تنتظرها في حالة تفوقها، وموفرًا لها المدرسين – إذا استدعى

الأمر درسًا خصوصيًا في المواد التي تستعصي عليها - إلى أن نجحت بتفوق، لتلتحق بكلية الإعلام، وتحدث طفرة في مظهرها، بل وجميع أمورها الحياتية والجنسية.

وطوال سنوات الكلية، كان "مدحت" يتحدث مع الفتاة بعد لقاءاهما الساخنة في حال الدنيا، وكيف يمكن للإنسان أن يتستر تحت رداء الفضيلة، واهمًا من حوله بأنه قدوة حسنة، ومتلذذًا في الوقت ذاته بكل متع الحياة، لتنتهج "رانيا" هذا النهج، وتكون اللعوب الفاضلة، القادرة على إيهام كل من حولها في الكلية بخلقها وتدينها، إلا إذا وجدت شابًا وسيمًا بجانبها، لينقلب ظاهرها رأسًا على عقب، وتبدأ في التقرب منه، وتستدرجه لبحر شهوتها، إلى أن يحدث مرادها.

استمرت اللعوب في حياتها على هذا النحو بعد التخرج، باذلة ما في وسعها لخدمة جسد "مدحت"، الذي كان يقابل سعيها بزيادة تملكها، حتى استطاع أن يوفر لها فرصة عمل في قناة يشارك فيها أحد أصدقائه من رجال الأعمال، لتلتحق "رانيا" بقناة "الحقيقة"، وتبدأ في إخضاع بعض رؤسائها في العمل الجديد لمفاتن جسدها، لكن بكل كتمان، متعمدة أن تظهر أمام زملائها بصورة الفتاة المتدينة ذات القدر الكبير من الاحترام، جانية من وراء كل ذلك مكاسب عديدة، للدرجة التي جعلتها تشارك في تقديم البرنامج الرئيسي للقناة، لتأخذ حياتها منحى مصيريًا جديدًا.

وهو ذات الاتجاه المصيري الذي اتخذته حياة "رانيا"، مع قرارها بتلقين السياسي البارز "مجدي" درسًا صاخبًا في الجنس، فعندها بدأت ساقاها في

الاتساع مرة أخرى، وسط نسيم حديقة الفيللا، أمام أعين "مجدي" الذي كان يرى مفاتن ثناياها، عبر الملابس الداخلية شبه الشفافة، التي تجسد ما وراءها؛ مثلما يجسد الزجاج ألسنة الشموع، لتغزو عيناه أركانها، معلنًا عن بدء معركة جهاد نكاح جديدة، غير مبالٍ بملاحظتها استثارته، ليستمرا في الحديث الذي تصاحبه دائمًا آهات "رانيا" الساخنة، إلى أن تشجع السياسي البارز ليبدأ في رفع جلبابه ببطء ضامًا قدميه، حتى بدت أعضاؤه تحت الجلباب في كامل توهجها، وهو ما لاحظته المذيعة لتزيد من آهاتها وكلماتها ذات الصدى الساخن.

وسرعان ما كشف "مجدي" عما تحت جلبابه، لترى "رانيا" ما لم تره بين أجساد زبائنها القدامى، وتفاجأ بفحولة غير معهودة، جعلتها تضع يدها على عينيها سريعًا، لتتعالى ضحكاتها التي تتهمه بالجنون، وسط ضي طلاء أظافرها الوردي العاكس لإضاءة حديقة الفيللا، حتى أنهى القيادي ضحكاتها بابتسامة شهوة فجة، سائلًا إياها: "ندخل الفيللا، أحسن؟"، ليرى إيماءة موافقة من الفتاة الحسناء، ويمد يده لالتقاط يدها، قبل أن ينهيا جلستهما، مترجلين بسرعة فائقة إلى باب الفيللا، إلا أن ما حدث بالداخل سيكون سببًا في معاناة أبدية لـــ"مجدي"، سيعيشها الأخير ما تبقى من عمره.

***

# الأستاذ المتحرش

اجتازت "سمر" جاهدة، المنعطفات الخطرة في جبل المقطم بعد خروجها من شارع "٩" الرئيسي، لتتذكر ملامح "ناهد" التي ودعتها قبل دقائق على باب منزلها، وتقبض بيدها على عجلة القيادة، في اتجاهها إلى مدينة نصر، للتسوق بحثًا عن مستلزمات رحلتها، وتكبير صورها على النيل مع "عمر" بأحد الاستوديوهات، لتفاجأ العاشقة المعذبة بصوت هاتفها يُخرجها من شرودها، بعد أن وجدت اتصالًا من "غادة" تدعوها فيه إلى حفل خطوبتها الأسبوع المقبل، مؤكدة أن الله جمعها بمدرس مساعد في كليتها، رأى فيها مثالًا للفتاة الشريفة المحاربة؛ بعد معركتها الطاحنة مع الأستاذ المتحرش، لينتشلها من فقرها المدقع، الذي عاشت فيه نحو عام ونصف العام على مساعدات أعمامها، عقب وفاة والدها "الحاج محمد"، بعد يومين من وداعه الطبيبة وعاشقها داخل عنبر مستشفى قصر العيني، قبل أن تُجرى له العملية التي كان ينتظرها لاستئصال الورم الخبيث، الذي أصاب عموده الفقري.

قابلت "سمر" النبأ السار بوابل من التهاني الحارة، داعية الله أن يوفق الشابة المجتهدة في زواجها، رغم اعتراضها على أن يتم ذلك خلال العام

الأخير لها في دراستها، حتى لا يشغلها عش الزوجية عن تميزها الدراسي، وهو ما ردت عليه "غادة" بضحكة تفاؤل، قائلة: "لا تقلقي، سيذاكر لي دروسي"، قبل أن تشكرها على وقفتها معها، وتُعلمها أن مجلس الجامعة قرر – أخيرًا – استبعاد الأستاذ المتحرش من هيئة التدريس، بعد عام ونصف العام من واقعة تحرشه المشهورة.

الطبيبة تذكرت بعد انتهاء المكالمة، تفاصيل كفاحها ضد د.وليد شاكر، بمشاركة صديقة طفولتها "منى"، التي لولا وقوفها بجانب الفتاة لضاع مستقبلها، حيث جابت الصديقتان مكاتب مسئولي الجامعة بحثًا عن مُنقذ للطالبة، التي تقدمت بالعديد من الشكاوى ضد أستاذها، بعد أن اختلى بها في مكتبه، ليحدث ما لا تتخيله.

كانت "سمر" قد اتصلت بالفتاة بعد يوم واحد من وداع والدها في المستشفى، هذا اليوم الذي سرد فيه الحاج "محمد الأبيض" قصة معاناته، التي بدأت في منتصف التسعينيات، بعدما فوجئ ذات صباح بمسئولي الوحدة المحلية في قريته بإحدي مراكز القليوبية؛ يطالبه بسرعة إخلاء مزرعته الكبيرة من الماشية والمحاصيل المُخزنة، لتنفيذ القرار الحكومي الذي يقضي بنزع ملكيتها لصالح الدولة، استعدادًا لمد طريق يربط القرية بأقرب نقاط الطريق الزراعي، وخلال أيام، كان "الأبيض" يخرج بخفي حنين من مزرعته، تاركًا الأرض التي أفنى فيها سنوات عمره، ليُصبح على وشك إفلاس تام، خاصة مع تأخر مبلغ التعويض الزهيد الذي حصل عليه من الحكومة، لتثبت الأيام أن الطريق شُق كي يخدم شخص واحد فقط، حيث

صمم أحد الوزراء على مده؛ ليصل من الطريق الزراعي إلى أبواب قصره العملاق بالقرية في بضع دقائق، وفي مقابل تلك الدقائق القليلة، عاش "محمد" و ابنته "غادة" سنوات من الفقر المدقع، بعدما أنفق الأب مبلغ التعويض خلال عامين من البطالة، ليُجبَر على الانضمام إلى عمال التراحيل، حتي يستطيع الإنفاق على تعليم ابنته، قبل أن يصاب عموده الفقري بالورم، ليعيش على إعانات أشقائه.

وفي الهاتف، سردت "غادة" لــ"سمر" العديد من الحكايات الغريبة، كان بطلها المدرس المتحرش، بعد أن دأب على إخضاع الطالبات لرغباته، عن طريق تهديدهن بعدم اجتياز مواده مدى حياته، في حال رفضهن لقاءه خارج أبواب الكلية، حيث حكت الطالبة الضحية لــ"الطبيبة" ما حدث داخل المكتب، بعد أن ذهبت إلى المدرس لتستعيد بطاقة هويتها الجامعية، لتجلس أمامه، وبعد فاصل من التوبيخ، فوجئت به واقفًا قبل أن يدور حول المكتب، في اتجاهها، ليقترب أكثر وأكثر، إلى أن لامس كتفها بجانبه أثناء جلوسها على أحد المقعدين المقابلين لمكتبه، ليضع يده فوق حجابها، قبل أن يحرك جسده ربع دائرة، ليسيطر الفزع على الفتاة التي هرولت نحو الباب، على صوته يكرر كلمة: "هتندمي"!

وبعد يومين من الواقعة، عادت الطالبة إلى كليتها ليناديها الأستاذ بالاسم في محاضرته، ويبدأ مسلسل من التعنت الصارخ، مهددًا إياها أمام جميع الطلاب بفشل ينتظرها في امتحاناته، لتركض الفتاة إلى مكاتب المسئولين، لكن بلا جدوى، حيث كانوا يؤكدون لها أن الدكتور يتمتع

بكل حصانات الدنيا، ولا يستطيع أحد اقتلاعه من مكانه مهما حاول ذلك، ورغم تعاطف أستاذة فاضلة مع الفتاة، بعدما تلقت شكاوى مماثلة من طالبات أخريات، لتطرق جميع الأبواب، إلا أن كل التحركات فشلت في أن تزحزح المدرس من موقعه، ليستمر في إسقاط ضحايا جديدات لتحرشه.

كل هذا دفع "سمر" إلى اللجوء لصديقتها "منى"، خاصة أن والدها كان يشغل منصبًا مهمًا في وزارة التعليم العالي وقتها، حيث اصطحبت "الطبيبة" الطالبة الضحية إلى والد صديقتها، لتحكي له مأساتها، ويتحرك جديًا في مواجهة المدرس، مطالبًا رئيس الجامعة وعميد الكلية باتخاذ اللازم نحوه، ليبدآ في تضييق الخناق على الأستاذ غير الفاضل، الذي وجد نفسه فجأة محالًا إلى مجلس التأديب، ليقدم طلب إجازة بحجة العمل بإحدى الدول العربية، سافر على أثرها ولم يعد حتى قرر المجلس استبعاده، لتعود الطالبة إلى دراستها، وتحصل على تقدير امتياز لعامين متتاليين.

***

"سمر" وصلت إلى استوديو تصوير شهير في مدينة نصر، واتفقت على تكبير صورها مع "عمر" على أن تتسلمها ظهر الغد، قبل انطلاقها من مطار القاهرة إلى المدينة السياحية الخيالية، وبعد ٣ ساعات من التسوق في "سيتي ستارز"، اشترت فيها العاشقة المسافرة مستلزمات رحلتها، عادت إلى سيارتها في السابعة مساء، متحسسة خاتم خطوبتها، الذي اختفى أسفل دائرة فستانها – بعد أن أذنت لها "ناهد" بوضعه فى عقدها – لتقبض عليه بأصابعها، وتنهمر دموعها من جديد، إلا أنها كانت تصبّر نفسها، بتخيل مشاهد رحلة الغد التي ستراها بعين "عمر"، مثلما كان يصفها بجانبها،

عندما ذهبا معًا إلى ذات المكان، في اليوم الأول لتبادل العاشقين كلمة "بحبك".

وما إن وصلت العاشقة المعذبة إلى منزلها، حتى عانقت والدها "سلوى" بقوة، مخرجة السلسلة الذهبية من أعلى صدرها، لترى الأم دبلة "عمر" المميزة، قبل أن ترفع "سمر" الورقة الواحدة التي عادت بها للمنزل، بعدما تركت مستلزمات سفرها بالسيارة، لتجد الأم الورقة أمامها، وتقرب عينيها لتقرأ كلماتها بصعوبة، وتبتسم محاولة إخفاء حزنها على حال ابنتها، قائلة بصوت عالٍ: "ربنا يرحمك يا عمر".

أنهت "سمر" عناق والدها، منطلقة إلى صومعتها، لترمي جسدها على سريرها، وسط شلال الدموع الذي انهمر على خديها، لتقرّب الوسادة إلى صدرها، وتحتضنها بشدة، إلا أنها أفاقت سريعًا من نوبة بكائها، عندما وجدت والدها، يطرق باب صومعتها، ليدخل في هدوء، ويجلس بجانبها على السرير، محاولًا الاطمئنان عليها من خلال نظراته المتفحصة لوجهها، فالأب لم يعد يراها إلا صدفةً بين طرقات منزلهما الواحد في أيامها القليلة بالقاهرة، إذا خرجت من صومعتها الصغيرة في اتجاه الشرفة – حتى تقف نصف الساعة المقدس – بعد أن تعبر ثلاثة تجمعات للأثاث تحتل مدخل المنزل، وتنتهي بطرقة صغيرة في آخرها حجرة نوم والديها، التي تطل على الجانب الخلفي للعمارة، وقبلها صومعتها المطلة على حديقة صغيرة، خصصها جيرانها في العقار المجاور لرعاية بعض الزهور النادرة.

كانت العاشقة المعذبة تخرج إلى الشرفة الصغيرة أحيانًا، لتتأمل أوراق شجرة أصابها الجفاف، ليعري فروعها يومًا بعد الآخر، حتى تبقت ٤ أوراق أبت الهزيمة أمام عواصف وأمطار فبراير، التي اجتاحت القاهرة قبل

ذكرى استشهاد "عمر" بيوم واحد، لترى العاشقة المعذبة الأوراق المتبقية مزينة بقطرات المطر، بعد خروجها للشرفة مساء أمس الأول، كي تبلل الأمطار وجنتيها، وتذكّرها بركضها وعاشقها على ظهر إحدى المراكب تحت أمطار غزيرة، عشية ليلة قمرية قضيا نصفها وسط مياه النيل، قبل أيام من سفره الأخير إلى سيناء.

***

وحتى تُطمئن "سمر" والدها، بعد أن رأى الدموع تنهمر من عينيها، قالت له بصوت حاولت إضفاء السعادة عليه: "هذه الورقة وجدها في منزل عمر اليوم، هيا نقرؤها معًا"، ليقابل "كامل" حديث ابنته بابتسامة حانية، شارعًا في قراءة الإهداء والفقرة الأولى بالرواية التي لم تكتمل، ليرفعا صوتيهما في آنٍ واحد، قائلين بإحساس عميق انتباهما: (حبيبتي.. هي أنتِ.. ثائرة حد الشهادة.. مقاتلة حد الموت.. متفائلة حد الحياة.. جميلة حد الحور.. أيتها الملكة.. جئت شهيدًا لمحرابك.. هل تقبلينني فارسًا في مملكتك؟").

انتهى الأب من قراءة الكلمات في ابتسامة هزمت دموع عينه الواحدة، قائلًا بصوت ضاحك: "وهل تقبلينني فارسًا يا أميرتيَ الصغيرة؟"، لترد الابنة بضحكة زادت من بريق عينيها اللامعتين، قائلة: "أنت فارس كل العصور"، ليضحك الاثنان قبل أن يغير "كامل" مسار الحديث، ويطالبها بالحذر في رحلتها غدًا، خاصة مع تزايد التهديدات الإرهابية باستهداف المدن السياحية، لتُطمئنه ابنته قبل أن تجذب إليها حاسبها الآلي الصغير، وتبدأ تشغيله في محاولة لزيادة طمأنة والدها، حيث أكدت له أنها

ستتابع الأحداث عبر المواقع الإلكترونية، ومستجدات الأوضاع في صفحتها الثائرة على "فيس بوك"، التي لم تعد تتابعها منذ أسابيع طويلة.

وتزامنًا مع خروج والدها من صومعتها، كانت "سمر" تقرأ بعض الأخبار، التي تؤكد تصاعد حدة التحريض الإخواني على هدم مصر، حتى وجدت أمامها فيديو يجمع المذيعة "رانيا" بأحد أئمة الإرهاب في العالم الإسلامي، تم عرضه ضمن عدة حلقات أجرت فيها المذيعة حوارًا مع الشيخ المتطرف منذ أسبوعين على قناة "البصيرة"، إذ واصل حملته الشرسة على مصر الثورة، عن طريق فتاوى تُحرض الجنود المصريين على عدم طاعة القيادات العليا بالجيش، في إطار مساندة جماعة الإخوان الإرهابية، حيث بذل إمام التكفيريين كل ما حرمه الله من إفك وتضليل وتكفير، في سبيل تنفيذ مخطط الدم، الذي ترسخه الجماعة بمصر.

تعجبت "سمر" كثيرًا لأمر هذا الشيخ، الذي نال رضا المصريين سنوات طويلة، أخفى فيها وجهه القبيح تحت قناع السماحة، هو يونس الفرماوي؛ الذي تحول إلى إمام أكبر لذات الدويلة الصغيرة - التي هرب إليها المتطرف مجدي عبد القادر ورفيقته "رانيا" - ليأمر وينهى من أعلى منابرها كيفما شاء، تحت ستار الدين، بعد أن وصل إلى أرضها قبل ثلاثين عامًا تاركًا مصر، هربًا من فشل بات يطارده لعجزه عن نيل المكانة الدينية التي حلم بأن يصل إليها؛ بصعود أهم منابر مدينة الألف مئذنة، حيث كاد هذا الحلم يتحقق مرة واحدة، عندما حاول مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين، إعادة إحياء شعبية "الفرماوي" التي انحسرت في مصر منذ زمن

بعيد، ليجيئوا به من الدويلة، ويصعد منابر "القاهرة الظافرة" خاطبًا وهاتفًا باسم "التنظيم"، عله يعالج ولو قدرًا صغيرًا من صورة الجماعة، التي كانت تتشوه مع مرور الأيام قبل إزاحتها من سُدة الحكم.

لم تجد الطبيبة بدًا من أن تسأل والدها "كامل" عن "الفرماوي"، خاصة أن الأب ظل يدّرس لأبناء تلك الدويلة نحو ١٣ عامًا بعد هروبه من مصر، عقب سنوات قليلة من تخرجه في كلية العلوم، وتلقيه خطاب تعيينه مدرسًا نهاية الستينيات، إلا أن المدرس الهارب أدرك سريعًا أن الهرم التعليمي في مصر أصبح على وشك الانهيار، غير ملتفت للهجوم الشرس الذي لاحق مسرحية "مدرسة المشاغبين"، باعتبارها سببًا – في عيون البعض – فيما وصلت إليه مكانة المعلمين، حيث كان "كامل" يعلم جيدا أن المسرحية لم تجسد سوى واقع، بدأ يستشري كالسرطان في المدارس مع بداية السبعينيات، تزامنًا مع بدء بعض المدرسين في مد أيديهم إلى الطلبة، خاصة في سنوات النقل بالتعليم الأساسي، مستغلين توليهم مهمة وضع الامتحانات بجانب التدريس؛ لابتزاز التلاميذ ومن قبلهم أولياء أمورهم، بإجبارهم على الذهاب إلى فصولهم الخاصة داخل منازلهم، مقابل ١٠ قروش ورقية يطويها التلميذ في يده، لتلتقطها أصابع المدرس بشغف.

لذلك فضّل الوالد الاغتراب على أن يجد نفسه معرضًا للمهانة في وطنه، بعد أن رأى عدة مشاهد هزلية ضربت قيم المُعلم، أبطالها زملاء له تخرجوا في دفعته، وحوّلتهم ظروف المجتمع خلال سنوات الانكسار إلى مصاصي دماء التلاميذ، بعدما باتت الـ٢٠ جنيهًا التي يحصلون عليها كراتب لوظيفة مدرس غير كافية لسد احتياجات الحياة، فبدءوا يرهبون

تلاميذهم تارة، ويرغبوهم تارة أخرى، كي يطرقوا أبوابهم بحثًا عن الدروس الخصوصية، لتتحول سُبة الدرس الخاص التي كانت تلاحق التلاميذ – باعتبارهم "أغبياء" لا يفقهون شيئًا في مدارسهم – إلى أمر تقليدي، يحدث بعيدًا عن معدلات الذكاء، ويفعله المئات حتى يتقربوا من معلميهم ليمرحوا معهم داخل الفصول، أو يقلدوا زملاءهم الذين رأوا المدرسين يعاملوهم بتميز، بعدما انضموا إلى فصولهم الخاصة، أو خوفًا من بطش مدرس يريد إجبارهم على طرق بابه لأخذ حصة مدفوعة الأجر.

***

"سمر" حملت الـ"لاب توب" تاركة صومعتها في اتجاه غرفة أبيها، وفي ذهنها فكرة أخرى طرأت بصورة مفاجئة؛ وهي تقلب بين صفحات "فيس بوك" قبل أن تنهض قاصدة "كامل"، حيث تذمرت لدقيقتين من كم تهديدات الإخوان للمصريين؛ بأن تسيل دماؤهم كالبحور، بعد أن وجدت تلك التهديدات تملأ منشورات أعضاء التنظيم على مواقع التواصل الاجتماعي، وبلهجة مستفزة للغاية.

كانت الطبيبة الثائرة متيقنة أن العزة المزعومة للإرهابيين، أثناء توليهم إدارة شئون مصر قد أخذتهم بالإثم، ليتصوروا أن دم الشعب المقاتل – في ٣٠ يونيو – سيسيل بين أيديهم دون رادع، ويعلنون الجهاد المتطرف على أرض الوطن، ويهللون مكبرين عندما يسقط ضابط أو جندي في دمائه، فمنذ فض اعتصامي "رابعة العدوية" و"النهضة"، قرأت "سمر" في الصحف – التي تقع بين يديها بالصدفة في مطروح – عناوين شبه يومية، عن قتلى

هنا وجرحى هناك، جراء عمليات خسيسة بدأ الإخوان في تنفيذها على نطاق واسع، بقصد إرهاب المصريين الثائرين.

عن مغزى تلك التهديدات الإخوانية، تمتمت "سمر" قليلًا في طريقها إلى والدها، عابرة الطرقة الطويلة، ليستقبلها "كامل" في غرفته التي خصصها لنفسه بعيدًا عن العالم، ليرسم فيها ملامح عمر يوقن أن نهايته أوشكت، إذ رأت ابنته على يمين أبواب الغرفة حامل اللوحات، الذي يحمل دائمًا لوحة غير مكتملة الملامح، يعود إليها والدها الفنان بين حين وآخر، ليستكمل الصورة الساكنة في مخيلته، حيث كان يؤكد لها دومًا أن اللوحة كلما وصلت حد الكمال، ضاعت رتوش شخصيتها الخيالية.

وجدت الابنة والدها يجلس كالعادة على الأريكة، مستمعًا إلى أنغام روائع أم كلثوم، وهو يلاحق صوتها محاولًا الإمساك بالكلمات؛ كي يدندن تلك المقاطع التي نقشت على جدار ذاكرته مشاهد عديدة، حيث كانت الابنة تشاهد ملامح والدها المتأثرة بروائع "سيدة الغناء العربي" الموسيقية واللغوية، قبل أن يصف الأب العجوز لابنته في جلساتهما الهادئة، صورًا من مجتمع راقٍ عاش فيه المصريون قبل عقود عدة، عندما كانت الفتاة تسير بالشوارع مرتدية "ميني جيب" يظهر ساقيها الفاتنتين كاملتين، دون أن يتلفظ عابرٌ - رجلًا كان أو صبيًا - بعبارة واحدة تخدش خجلها، عندها كان "كامل" يضرب كفًا بكف، متسائلًا عن سر الكبت الذي أفضى إلى شهوانية همجية، أصبحت تخرج من أعين البعض كالشرر، بمجرد مرور فتاة

أمامهم – أيًا كان ما ترتديه – في شوارع لا تخرج منها النساء سالمات، حتى المتنقبات منهن.

استقبل "كامل" ابنته بفرحة عارمة اجتاحت قلبه، عندما رآها تتسلل إلى غرفة الرسم التي لم تدخلها منذ شهور طويلة، لتقابل "سمر" ابتسامة الرضا الموسومة على وجنتي والدها بقبلتين حانيتين، وتجلس بجواره على الأريكة التي تزينها عدة زهور، وضعت أعلى قطعة رخام ثمينة، في ٣ فازات لامعة أهداها له أحد أمراء الدويلة التي كان يعمل بها، محاولًا إرضاءه بعد صفاقة صدرت على لسان نجله أشعلت نيران غضب المدرس، ليلقنه درسًا لن ينساه، بين دروس أخرى عديدة حقق المعلم إعجازًا بإدخالها إلى ذهن تلميذه شديد الغباء.

كان "كامل" قد تعرض لكثير من الحرج حتى وافق على شرح المنهج لابن الأمير، لكن بالمجان، مع إصرار والده على أن يُنقذ المدرس ابنه من فشل دائم في مادة الكيمياء، إذ طلبه بالاسم بعد أن ذاع صيته كأفضل معلم للعلوم، وظل يطارده طوال أسبوع، باعثًا له أهم رجال حاشيته، كي يقنعوه بأن الطلب الأميري أسمى ما يتمناه مدرسو المملكة، ليوافق المدرس في النهاية بعد صدمة أصابت الأمير، عندما قوبلت عروضه المالية بالرفض القاطع من المعلم المصري، الذي شعر بالندم كثيرًا على قرار الدرس الخاص المجاني، تزامنًا مع اكتشافه أن والد التلميذ الغبي فعل كل ذلك؛ حتى يتفوق نجله على ابن امرأته الثالثة التي تزوجها مؤخرًا، بعدما عايرته بتخلف نجله عن ابنها بخطى كثيرة، رغم أنهما يجلسان على مقعد واحد بالمدرسة، إن استدعت خطة لهوهما اليومية الذهاب لها.

سيسرد الوالد كل ذلك، بجانب الواقعة الوقحة للتلميذ الغبي، والرد القاتل الذي أخرسه به، بعد دقائق من مكوث ابنته إلى جواره على الأريكة، مقربة الشاشة الصغيرة للحاسب الآلي من العين الواحدة، التي تبقت لـ"كامل" في زمن الثورة، متسائلة عن "الفرماوي" الذي يظهر في الفيديو مع المذيعة الشابة "رانيا"، إلا أنها فوجئت بوالدها يطالبها بأن تنحي حاسبها جانبًا؛ ليحكي لها قصة أحد الأفلام الوثائقية التي امتنعت ذات القناة –البصيرة– عن إذاعتها، علها تأخذ منها عبرة تُكمل بها قناعتها المنقوصة عن شيخ الإرهاب، وهو ما قابلته الابنة بموافقة صريحة طبعت بمقتضاها قبلة جديدة على وجه الأب الضاحك، مع شوقها البالغ لسماع والدها ساردًا لها عجائب الكون بأسلوب العلماء الأجلاء، الذي لا يخلو من الانبهار بمعجزات الله في أرضه وخلقه، ولا تنقصه أيضًا قصص الحب الأسطورية، وتضحيات أبطالها من ملائكة البشر.

***

# الانتحاري الكافر

مع صدى دقات الساعة الذى سيطر على أرجاء الغرفة، معلنًا ملامسة عقاربها للعاشرة مساءً، ارتمت رأس الابنة على كتف أبيها، ناثرة شعرها الناعم ليلامس أنفاسه المتدفقة مع كلماته التي يستهل بها نوادره دائمًا، قبل أن يستفيض في سردها، قائلًا: " يحكى أنه في مطلع الثمانينيات"، لتتسع عيون "سمر" بمفعول ضحكة وردية، وهي تسمع باقي كلماته: "كان ينقص جبلاية حديقة الحيوان في دويلة منبوذة، قرد من قرود الجيل الجديد التي تمتاز عن مثيلتها من الجيل القديم بذيل قوي، قادر على تسلق الأشجار والتعلق بفروعها، فغالبًا ما تحتاج قرود هذا الجيل القديم ذات الذيول القصيرة الضعيفة نموذجًا من القردة المطورة، حتى تعاونها في جلب الثمار من الفروع المرتفعة، ناهيك عن دورها الأساسي في حشد أبناء الجبلاية، بعد اتخاذها أعلى نقطة في الأشجار منبرًا تنادي عبره على من تشاء، لتجمعهم أسفل هذا المنبر متى تشاء".

انتظرت "سمر" بشغف باقي كلمات والدها، ليكمل ساردًا: (وبالفعل.. استعانت تلك الدويلة بقرد من الجيل الجديد ذي ذيل طويل، حتى يكون "كبير الجبلاية"، جاءت به من الجزائر، بعد أن انتقل إليها هربًا من موطنه

الأصلي مصر، عندما شعر بأن نوعيته من القردة باتت على وشك الانقراض في أرض الكنانة، ليستجيب بسرعة البرق لنداءات حاكم الدويلة، تاركًا زوجته التي تصغره بأكثر من ٥٠ عامًا في العاصمة الجزائرية، حتى بات القرد المطور يأمر وينهى ويقول ما يشاء من أعلى منبر الجبلاية، ليستطيع في بضع سنوات أن يُخضع عقول جميع أفراد "مملكة القرود" إلى سمعه وطاعته، للدرجة التي دفعته إلى الانقلاب على حاكم "حديقة الحيوان" هناك، بعد أن حشد القردة المتشددين ضده، مستعينًا بنجل هذا الملك حتى يساعد كل منهما الآخر في الوصول إلى مآربه).

أنهى الوالد حكايته الشيقة ناظرًا إلى عين "سمر"؛ ليعلم إلى أي مدى استوعبت الحكمة التي قصدها من وراء قصة الجبلاية، بعدما استقبلت الابنة نظرته بابتسامة المستوعب قبل أن تنظر إلى عينه بعاطفة كبيرة، قائلة بحنان: "كم اشتقت لنوادرك"، وهي الجملة التي استقبلها "كامل" بسيل من القصص، بعد إنقاذ "سمر" إحدى الفازات الثمينة، كادت توقعها، ويدها تترك كتف والدها الآخر في اتجاه الـ"لاب توب" حتى تضعه فوق قطعة الرخام، قبل أن ترتمي فى حضن والدها، معلنة بداية ليلة من حكايات الزمن الجميل، التي تعودت سماعها منه أسبوعيًا في جلسة مسامرة، حرصا عليها ليلة كل خميس منذ نعومة أظفارها، بيد أن السفر إلى مطروح منع الابنة من تكرار تلك الجلسات، إلا مرات قليلة، آخرها كان قبل ١٨ يومًا من جلستهما هذه، وبعيدًا عن ليلة الخميس، عندما جلسا عشية السبت ٢٥ يناير المنصرم يتحدثان عن إبهار المصريين للعالم، بعدما نزلوا إلى الميادين مستأسدين أمام أنياب الإرهاب، رافضين الرجوع خطوة واحدة للوراء في طريق الثورة، ليتحدوا دعاوى الاقتتال التي حرضت عليها الجماعات المتطرفة قبل هذا اليوم، تحت شعار "اللهم بلغنا ٢٥ يناير".

التقطت يد الابنة "الفازة" لتنقذها من السقوط، فهي تستوعب إلى أي مدى يحرص الأب على هذه الفازات، حيث كان يتعامل معها باعتبارها ذكرى تجسد أمامه سنوات طويلة، قضاها مغتربًا يكافح على عدة جبهات، وبعد لحظة من إنقاذها الزهرية، تبسمت "سمر" راسمة ملامح ضحكتها الطفولية على وجهها، لتسأل والدها بذكاء لم تخفه فكاهتها، قائلة: "بمناسبة الجبلاية.. متى ستحكي لي قصة الزهريات؟"، قال الأب ضاحكًا بعدما استوعب فطنة ابنته: "أقول لك"، ثم اتسعت ضحكته قائلًا: "في منتصف الثمانينيات، ابتلاني الله بتلميذ غبي لا يفهم الفارق بين الألف والواحد الصحيح، كنت أعيد شرح الدرس له ٤ مرات، حتى يخطو خطوة واحدة نحو استيعابه، إلى أن بدأت أشك في قدراتي التعليمية، إلا أنني تعاملت مع حالته كمن يتحدى المرحلة الأخيرة في أي سباق طويل، وجاهدت في سبيل إفهامه ما استعصى على عقله، طوال عامين قضاهما في سنة دراسية واحدة، إلى أن اجتاز موادها العملية، لينتقل إلى فرقة أخرى بعد نجاح أبهر جميع من حوله، وأبهرني شخصيًا عقب يأس جم من عقله ذي السراب الشاسع".

أكمل الوالد بلهجة انتقلت من اليأس الضاحك إلى بدايات الغضب، قائلًا: (وفي إحدى الحصص، فوجئت بالغبي، ابن الدويلة التي أنقذ البترول أقدام مواطنيها من الحفاء، يطالبني بأن أقول له إحدى النكات، مثلما يفعل معه الأستاذ "عصام"، ذلك المدرس المصري الذي وصل معي في ذات اليوم إلى مطار العاصمة، وتفرغ لمنح الدروس لأبناء الأسرة الحاكمة، تاركًا زوجته في مصر حتى جمع الملايين، إلا أن أمواله لم تشفع له أمام عقاب الزمن له على جشعه وبيع مبادئه، بعدما وصل معه الأمر إلى إعطاء

التلاميذ أسئلة الامتحان، الذي يضعه بنفسه، بل إجاباتها، حتى يجني من ورائهم ثروته الحرام، لتنتهي به الحال حبيسًا بين أسوار مستشفى الأمراض العقلية في مصر؛ مع بداية الألفية الجديدة، إثر جريمة قتل بشعة أقدم عليها مع سبق الإصرار والترصد؛ للخلاص من زوجته وعاشقها المتنقب، الذي ظل لمدة ١٥ عامًا يتردد على منزله، متخفيًا تحت النقاب خلال اغترابه، ليلقن زوجته دروسًا جنسية على فراشه).

استكمل "كامل" بصوته الغاضب حكايته مع التلميذ طالب النكات، الذي عنّفه في انفعال ضارٍ، كاد يصل إلى حد السباب، بعدما قال له الطالب إن أستاذه المهرج يسرد له فكاهات مصرية لا يستطيع فهمها إلا بعد ٣ أيام، ليرد المعلم الفاضل بحدة قائلًا: "فعلًا.. نكات المصريين لا تفهمها عقول البقر"، قبل أن يقف ليأمر تلميذه بأن يمهد له طريقًا في منزله؛ كي يغادره بلا رجعة، فالعلم في مبادئه لا يكيّل إلا بميزان الاحترام بين حامله وطالبه، بعيدًا عن طرق الترهيب والترغيب التي يبذل بعض المعلمين في سبيلها الكثير، بداية من تعليق طلاب علمهم على "الفلكة" وشبح أرجلهم بالخيزران، ومرورًا بالهرج والمرج الذي يسمحون به داخل الفصول؛ لتشجيع التلاميذ على زيارة فصولهم الخاصة، ونهاية بالتجبر في معاملة طلبة العلم من البسطاء، حتى يخضعوا لأطماعهم في درس خاص، يمدون لهم فيه أياديهم بأموال أولياء أمورهم المعدمين من الفقر والمرض.

شرح "كامل" – المدرس المثالي على مستوى الدويلة الصغيرة في أيام غربته – كيف أجبر الأمير على تهذيب نجله أمامه، عندما ناداه الأخير لإنقاذه من إصرار المدرس على إنهاء الحصة باعتبارها الأخيرة، ليفاجأ

المدرس بالأب يقتحم عليهما الغرفة الفسيحة، وفي يده فخذ مشوي لتيس صغير يأكل منه بنهم مقزز، وهو يستفسر من ابنه عن سبب غضب معلمه، ليضحك بعبث بالغ، محاولًا تحريك الملامح العابثة للمدرس بدفعها إلى التبسم، لكن هيهات، فقد ظل أستاذ العلوم ممسكًا بحدة غضبه وثبات انفعاله، متهمًا الأمير بتشجيع ابنه على الهرج بتلك الضحكات العالية التي يصدرها، ومعتذرًا عن عدم استكمال باقي الحصص التي اتفقا على عددها، بعد أن وافق اضطراريًا على منحها لنجله.

استقبل الأمير اعتذار المدرس باستنكار تام، انصب على ولده سبًا ولعنًا قبل أن يطرده من الغرفة بفجاجة حادة، وقتها هدأت ملامح المعلم من تأججها، إلا أنه أصر على إنهاء العقد الشفوي، الذي ما زال يربطه بوالد التلميذ، رغم أن الأخير اعتذر - على استحياء - عن ضحكاته المستفزة وسخافة نجله، ليبدأ في شد المدرس إلى ساحات أخرى للنقاش، محاولًا إنهاء الأجواء المتوترة التي سيطرت على المشهد، ليناقشه حول الانقلاب الذي شغل جميع سكان الدويلة في هذا الوقت، وكان يشبه إلى حد كبير نهاية قصة "الجبلاية"، التي سردها "كامل" لـــ"سمر" قبل دقائق، حيث انتهى مصير الحاكم الأب لهذا القُطر سجينًا في معتقلات ولده.

مع نهاية كلمات المعلم عن هدية الاعتذار، التي كانت في انتظاره من الأمير بعد انتهاء حديثهما عن الانقلاب، مشيرًا بإبهامه إلى حاملات الزهور التي تحتضن الورود خلف قامتيهما، لمحت "سمر" عقارب الساعة تتجه نحو ثلثها الأيسر، تحذرها من اقتراب موعد إمساكها بقلمها، لتسجل سطورها المعهودة مع بداية اليوم الجديد، حيث وجدت نفسها تحتضن والدها بشدة،

طالبة منه أن يكون في وداعها عصر الغد، قبل أن تستقل طائرتها في اتجاه رحلتها الخيالية المنتظرة، مناشدة الله ألا يحرمها أبوته الحانية، ليردد الأب دعاءً راجيًا الله أن يحفظها ويعيدها سالمة إلى أحضانه.

طبعت الابنة قبلة الوداع على جبين "كامل"، لتخرج من الغرفة غير عابئة بالحامل الخشبي، الذي يخفي لوحة تحت غطائه، فقد تعودت ألا تكشف صورة دون أن تنتهي مراسم حفل صغير، يعلن فيه والدها عن إطلاق رائعته الجديدة؛ مثلما كان ينعت لوحاته، بعد أن يزين ستائر الحامل بالشرائط الذهبية والورود، لتقص ابنته شريطًا أنيقًا يحيط باللوحة، ويرى الحاضرون من أصدقائه القدامى روعة النتاج الجديد لريشته، ويتحدثوا بعدها في حفل شاي حول أحوال البلاد والعباد، على أنغام الموسيقى العالمية لـــ"بيتهوفن" و"زامفير"، وهى الجلسات التى حضر "عمر" بعضًا منها.

عبرت "سمر" إلى الطرقة الطويلة دون أن تلتفت يمينًا أو يسارًا، تفكر فيما ستدونه في مذكرتها الصغيرة، التي ضمت خواطر الرثاء والدموع والحنين إلى العاشق الراحل، وعدة سطور سياسية أخرى عما يدور في مصر، وتضمنت أيضًا كلمات لاذعة كانت تصف بها المتشددين على صفحتها بموقع "فيس بوك"، وترصد فيها جرائمهم البشعة ضد الإنسانية والمجتمع، بجانب عدة مظاهر تصف بها حال المواطن المصري، الذي ما زال يعاني من الفقر والبطالة والمرض، بعد ٣ سنوات من ثورة نادت بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية.

كتبت الطبيبة أيضًا كلمات مقتضبة، نعت بها حال الطبيب في مصر، كان معظمها في رثاء صديقتها الثائرة "شيماء"، التي لفظت أنفاسها بين

يديها – بعد أشهر قليلة من استشهاد "عمر" – داخل أحد مستشفيات الدولة في مطروح، إثر إصابتها بعدوى فيروس إنفلونزا الخنازير، في ظل افتقاد المستشفى أدنى متطلبات الوقاية الصحية، لتموت بلا ذنب سوى محاولتها إنقاذ مريض؛ وصل إلى غرفة الاستقبال يصارع الموت، حتى لحقت به، بعدما يئست أنفاسه من نيل علاج يُبقي شهيقه وزفيره.

***

ومع عودتها لصومعتها، عابرة نصف الطرقة الطويلة عقب خروجها من غرفة الرسم، عادت فكرة التهديدات الإخوانية إلى ذهن "سمر"، بعد أن توارت أمام ذكريات والدها الشيقة، لتمسك بقلمها استعدادًا لكتابة كلماتها، وتتذكر دماء المصريين التي سالت إثر القنابل التي زرعها الإرهابيون هنا وهناك، عقب ثورة ٣٠ يونيو، وملامح الجنة التي ارتسمت على وجوه شهداء الواجب من الضباط والجنود، وذكرتها بملامح "عمر"، وهو يلفظ أنفاسه قبل أن تصعد روحه إلى السماء.

كانت الطبيبة قد عايشت جرائم التنظيم في الواقع، مع حرصها الدائم على المشاركة بجميع الفعاليات الثورية، التي هبت ضد الإخوان قبل إزاحتها من الحكم، بل ومشاركتها في الحشد للمظاهرات المناهضة للجماعة، عبر صفحتها "أكاذيب الإخوان" على موقع التواصل الاجتماعي، بعد يقين تكون داخلها عقب ١٠٠ يوم من تولي محمد مرسي رئاسة مصر، يؤكد أنه جاء إلى السلطة كي يمنح مقاليد الأمور لمرشده، حتى تدخل البلاد في القبضة الحديدية الدموية للجماعة، خاصة أن الوعود التي تعهد "مرسي" بتنفيذها خلال تلك الفترة، لم يتحقق منها شيء على أرض الواقع، بينما انصبت كل قراراته في صالح جماعته، بعدما شكّل

حكومة إخوانية بحتة، وبدأ في تنفيذ خطة لأخونة جميع قطاعات الدولة، إلا أن صاحبة الصفحة غيرت اسمها إلى "أكاذيب القتلة"، بعدما رأت الجماعة تضع خططًا ممنهجة لتصفية معارضيها، لتطارد كل من يخالفها الرأي، أو يخرج للتعبير عن رفض سياستها في الميادين، ومنهم الشهيد "عمر"، الذي قُتل على يد الميليشيات المسلحة للإخوان، أمام عينيها بدم بارد.

عبر هذه الصفحة، نشرت "سمر" عدة معلومات مهمة، بعد شهر من استشهاد "عمر"، لتؤكد أن الشهيد جابر صلاح أو "جيكا" أدمن صفحة "معًا ضد الإخوان"، الذي سقط قتيلًا في الذكرى الثانية لأحداث شارع محمد محمود، ليس آخر ضحايا أدمن الصفحات المعارضة للإخوان على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك"، أو ضحايا مناهضة الجماعة بشكل عام، بعد أن انضم إليه – منذ يناير ٢٠١٣ – ثلاثة معارضين آخرين، سقطوا في ظروف غامضة خلال أحداث العنف التي شهدها محيط قصر الاتحادية وميدان التحرير، هم محمد حسين أو "كريستي" أدمن صفحة "إخوان كاذبون"، ومحمد الجندي وعمرو سعد عضوا التيار الشعبي، ليلحقوا بشهيد الصحافة الحسيني أبو ضيف، الذي سقط أثناء توثيقه جرائم مذبحة الاتحادية.

أكدت "سمر" في تدوينات لها بصفحتها الثائرة، أن معارضي الإخوان سقطوا قتلى بـــنفس الأسلوب – حسب تقارير الطب الشرعي – الذي أرجع أسباب الوفاة إلى اختراق الرصاص أو الخرطوش لرءوسهم وصدورهم، بعد إطلاقه "من مكان قريب"، ما يكشف أن "لهوًا خفيًا" كان يستهدف مناهضي الإخوان، سواء على مواقع التواصل الاجتماعي أو عبر الحركات الثورية، حيث نشرت الطبيبة التقرير التشريحي لـــ"جيكا"، الذي

أكد أن إطلاق النار جاء بشكل أفقي وعلي مسافة لا تتعدى ١٠ أمتار؛ مما يثبت التعمد.

عرضت "سمر" أيضًا تقرير الطب الشرعي لـ"كريستي"، الذي أثبت أنه قُتل برصاصة في الصدر أُطلقت من الأمام، وهو ذات اتجاه إطلاق النار على "سعد" ليموت متأثرًا بطلقات نارية في الصدر والرقبة، بينما لفظ "الجندي" أنفاسه بعد اختفاء دام ٤ أيام، إثر تعرضه للتعذيب القاتل، لذلك توصلت الطبيبة الثائرة إلى أن جماعة الإخوان بدأت قبل إزاحتها عن الحكم، في حملة اغتيالات واسعة لتصفية معارضيها.

لكن ثمة قناعة تكونت في فكر "سمر" حول مغزى الإرهاب، بعد سماعها تهديدات الإخوان بحرق مصر، قبل خروجها من صومعتها في اتجاه غرفة "كامل"، هذه القناعة كانت مغايرة إلى حد ما، إذ توصلت "الثائرة" إلى أن الإرهاب ليس تدميرًا أو تفجيرًا، بل حالة يزرعها المتطرفون في الشعوب، وبقدر تضاؤل شعور أبنائها بالأمان، يزداد نجاح القتلة في الوصول للهدف، فالفكر المتطرف ليس هدفه الرئيسي الثأر لنفسه من العسكريين، إنما زعزعة الأوطان بزرع "الرهبة" فيمن يعيشون على أرضها، لذلك يلجأ الإرهابيون إلى القتل والدمار لهدف واحد، أن يصبح لون الدم سيد الموقف بلا منازع في الشوارع والميادين والطرق، ليتحول نبأ سقوط قتلى أو مصابين إلى أمر عادي، يمر على المسامع باكتراث لحظي لا يدوم طويلًا في انتظار الخبر التالي المشابه، وهذا ما يحاول العدو الإرهابي ترسيخه، بأن يصبح مشهد الدم عاديًا، ليشعر العُزل الجالسون في منازلهم برهبة مستمرة.

إلا أن المشاهد التي مرت بها "سمر" في الأسابيع الأخيرة، كانت دليلًا على فشل القتلة في زعزعة نفوس المصريين، حيث تذكرت منها الطبيبة يوم الاستفتاء على دستور الثورة - ١٤ يناير ٢٠١٤ - عندما كتب ٢٠ مليون مصري شهادة وفاة الإرهاب الأسود، وأحبطوا محاولاته البائسة في إضعاف نفوسهم، بعد أن خرجوا إلى لجان الاستفتاء في مشهد سيقف أمامه التاريخ طويلًا؛ مفتخرًا ومتباهيًا بنيران إرادة هذا الشعب الثائر، التي لا تنطفئ مهما حاولت قوى الشر إخمادها، لتمتد حارقة الإرهابيين في عرس ديمقراطي حقيقي، أصم ضجيجه آذان كل الحاقدين بالداخل والخارج.

تبسمت الطبيبة، عندما رأت ملامح "الحاج صلاح" المنفعلة تعود إلى ذهنها، وهو يحاول نزع أنبوبة الأكسجين، الواصلة بين أنفه وجهاز التنفس في قسم العناية المركزة بالمستشفى العام، الذي انضمت لقائمة أطبائه مؤخرًا بعد عودتها من مطروح، حتى يهرول إلى لجنة الاستفتاء كي يصوِّت بـــ"نعم" على المواد الجديدة، التي سمع بعضًا منها ليلة التصويت، بعدما رفعت "أم تامر" - الأمية البسيطة التي تتلقى العلاج معه في قسم الصدر - صوتها من أعلى سريرها، مطالبة إحدى الممرضات بأن تقرأ لها مواد الدستور، عقب ٣ أيام عنفت خلالها نجلها لتباطئه في جلب نسخة من المسودة النهائية للمواد.

كان "تامر" يرفع حاجبيه مستغربًا من حرص والدته، الذي يخالف أميتها المتأصلة بداخلها منذ ٥٥ عامًا، إلا أنه أراحها في النهاية، ليسمع "الحاج صلاح" المواد قبل أن يُنقل إلى العناية المركزة في ذات الليلة، متأثرًا بأزمة صدرية ضارية، أفاق منها يحاول نزع الأسلاك التي تكبل رأسه ويده

بالأجهزة الطبية، صارخًا في وجه الجميع حتى يذهب إلى صندوق الانتخابات، وهو الأمر الذي ساعده فيه نجله، عندما زاره عصرًا ليفاجأ به يهب من سريره نازعًا إبرة المحلول، ويطالبه بأن يرافقه إلى مدرسة مصطفى كامل الابتدائية حتى يدلي بصوته، وبعد شد وجذب بين المريض والأطباء انتهى لصالحه، خرج "صلاح" من باب المستشفى، وخلفه نجله يحمل أسطوانة الأكسجين حتى وصل إلى اللجنة الانتخابية!

الأسطر التي حوتها ورقة المذكرة الصغيرة، بعدما شرعت "سمر" في كتابتها وملامح المريض المستأسد تسيطر على قلمها، كانت: (أيها الانتحاري الكافر، الذي تدفع حياتك ثمنًا لحفنة دولارات تضمن وصولها إلى أسرتك شهريًا، بعد أن يتحول جسدك إلى أشلاء.. أيها الانتحاري الفاجر، الذي تتصور أن الدين هو تكفير لأبناء وطنك وتفجير لأرضك، بعدما جندك الكفرة مستغلين جهلك وفقرك، حتى تفوز بـــشهادة يتبرأ منها الإسلام.. اعلم أن هناك ٩٠ مليون مصري مستعدون لدخول جنة الخلد في دار الحق، دافعين أرواحهم ثمنًا لهذا الوطن؛ لأنهم يعلمون أن الله الحق معهم ضد أيادي الباطل.. اعلم أن التاريخ سوف يكتب بعد سنوات طويلة، أن المصريين سحقوا الإرهاب بإرادتهم.. اعلم أن بارئ السماوات والأرض، قال في كتابه "ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاء اللّهُ آمِنِينَ".. وستظل آمنة بإذنه ليوم الدين).

***

"سمر" كتبت تلك الكلمات، ثم نحّت مذكرتها جانبًا، لتمسك بورقة "الحب في زمن الثورة"، وتقرأ كلماتها من جديد، وأخذت تفكر، عسى أن تكتب نهاية تفوق "مدى الحياة" في سعادتها وأملها، لتنفذ الوعد الذي قطعه "عمر" على نفسه في إهدائه، وتمسك بمذكرتها من جديد، باحثة بين كلماتها عن جملة تصلح نهاية لرواية عن قصة عشقها، لتجد فقرة كتبتها يوم سفر "عمر" إلى سيناء – في يناير ٢٠١٣ – كانت كلماتها: "حبيبي المسافر، تعاهدنا على أن نعيش معًا مدى الحياة، لتبقى أنفاسنا شاهدة على عشقنا حتى خروج الزفرة الأخيرة من رئاتنا، ثق أنه لا شيء على الأرض قادر على تفرقة روحنا الواحدة، سأشعر بك بجانبي، مهما فرقتنا المسافات، ومهما فصلت بيننا الصحاري، فأنفاسي منك، ولك، حتى آخر العمر".

قرأت "سمر" تلك الكلمات بعين دامعة، لتستغرق نصف ساعة تكتب عدة جمل، تبحث بينها عن جملة واحدة، تكتبها تحت إهداء "عمر"، حتى تُنفذ وعده، الذي لم يمهله القدر الوفاء به، لتكتب: "حتى نفسي الأخير" و"إلى نهاية أنفاسي"، و"بانتهاء دقات قلبي"، إلا أنها لم تجد جملة واحدة قادرة على وصف ما بداخلها، أو حتي ترجمة بعض من مشاعر الحب الأبدي إلى كلمات، حتى فوجئت بنغمة هاتفها تنبهها بموعد نصف ساعتها المقدسة، لتركض إلى الشرفة في الواحدة إلا الربع، من صباح ثاني أيام عام الفراق الثاني.

وضعت "سمر" سماعات الأذن أسفل شعرها المنسدل على كتفيها، لتبدأ في سماع مكالمة "عمر"، والكلمات التي وصف بها أشواقه وأحلامه، إلى أن بدأ الفاصل الغنائي، لتسمع حبيبها الراحل يغني أغنيته المفضلة بإحساس لا

يوصف، وكأن كلماتها تخرج من بين ضلوعه، وتُترجم دقات قلبه المشتاق إلى عزف فريد على أوتار صوته، وهو يشدو مع أنين آلة صديقة "صقر" البدوية وسط الصحراء، كلمات رائعة محمد عبده "الأماكن"، مغنيًا بصوت عذب: "الأماكن كلها مشتاقة لك، والعيون اللي انرسم فيها خيالك، والحنين اللي سرى بروحي وجالك، ما هو بس أنا حبيبي، الأماكن كلها مشتاقة لك".

مع انتهاء سماعها الأغنية، كانت الدموع تجري على وجنتي "سمر"، وسط محاولات من عينها الملبدة بالغيوم لبلوغ الشجرة، والنظر إلى العشب الذي رسم عليه "عمر" القلب بالورود، في شارع مصطفى النحاس، لتدخل راكضة نحو صومعتها، في انتظار ليلة جديدة من الألم.

***

# مفتي الدمار

مع سماعه صوت ارتطام نوافذ الشرفة، بعدما أغلقتها "سمر"، وسط السكون الذي ملأ غرفته عقب انتهاء رائعة زامفير "**Love story**"، التي كان يسمعها ممسكًا بريشته المتمايلة برفق على أركان لوحته الجديدة المنتظرة، عاد "كامل" بهدوء إلى الأريكة؛ حتى يمدد ساقيه ليريحهما من ألم يوم عمل شاق، أنجز فيه رسومه على نحو ٢٠ قطعة ملابس راقية، إذ كان قد اتفق مع سيدة الأعمال صاحبة الشركة، التي يعمل بها مديرًا فنيًا، على أن ترسل له الموديلات الجديدة من الملابس النسائية إلى منزله، قبل طرحها في الأسواق، ليضع عليها لمسته الفنية الأخيرة، خاصة أن تلك اللمسة هي سر رواج منتجات الشركة، التي بدأت في تصدير الملابس لبعض الدول الأوروبية، حيث كان "كامل" يتعامل مع قطعة الملابس وكأنها عمل فني، ليزينها بالورود تارة، وبالقلوب والتكوينات الشجرية وملامح البشر تارة أخرى، مستخدمًا خلفيته الكيميائية في خلط الأحبار وتثبيتها ببراعة، ليصبح منتج الشركة العريقة مميزًا بهذا الطابع الفني الفريد.

كانت ريشة "كامل" قد أنهت لحظتها رسم العين اليسرى لبطل لوحته الجديدة، قبل أن ينتقل إلى الأريكة، ليتذكر الحادث الأليم الذي يحتل ذهنه

مع كل عين يرسمها، إلا أن عينه الواحدة وقعت على الفازات الثلاث، التي أهداها له الأمير؛ ليتأمل الورود المعطرة بذكريات يوم تاريخي لن ينساه، ارتبطت أحداثه بالزهريات اللامعة، خاصة أنها أنقذته من مصير مجهول كان ينتظره، باعتباره يرتبط بصداقة فنية وثقافية بروائي مصري، بدأت تتوطد عقب أيام من وصول مدرس العلوم إلى الدويلة في السبعينيات، هاربًا من جحيم كان يطارده في مصر.

الروائي هو "راجح النقراشي"، الذي لمع نجمه بالدويلة في هذه الفترة، بعد أن باتت كتاباته محل اهتمام قطاع كبير من العرب، حتى الليلة المشئومة التي خرج فيها "كامل" من قصر الأمير، وخلفه اثنان من أفرد الحاشية الأميرية يحملان الفازات، أمرهما والد التلميذ الغبي بأن يصلا بها إلى باب مترل المدرس، قبل أن تقطع مجموعة من الإسلاميين المتشددين طريق السائرين الثلاثة، وتصب غضبها على "كامل" باعتباره من الشيوعيين!

يومها، تجمع مواطنو الدويلة الذين كانوا يرتدون رداءً متشابهًا دائمًا، طويلًا وأبيض ومتسعًا، ليحاولوا معرفة سبب الصوت المرتفع الذي يصدر من تجمع زاد عدد أفراده بصورة مفاجئة، في يوم كان فيه الجميع يتحدث عن الانقلاب المفاجئ، الذي نفذه نجل "الحاكم" في مواجهة والده، بعدما زج به في السجون بتهمة دعم الشيوعية، إذ لم يتصور أحد أن الروائي المصري سيكون سببًا مباشرًا لهذا الانقلاب، بعدما شن الشيخ "يونس الفرماوي" – الذي كان قد سبق "الروائي" إلى الدويلة – حربًا ضروسًا

على "النقراشي"؛ إثر نار حقد كانت تحرقه كلما ازدادت شعبية كتاباته، لتدفعه غيرته القاتلة إلى حد إصدار فتوى بتكفير المصري بدعوى أنه "شيوعي"!

تأمل "كامل" الفازات الثلاث التي أهداها له الأمير، عقب انتهاء نقاشهما حول فتوى "الفرماوي"، التي أشعلت فتيل أزمة طاحنة في تلك الدويلة، بعدما بذل الشيخ الحاقد كل ما في وسعه لإقناع أبناء المملكة عبر المنابر، بأن "النقراشي" يسعى في الأرض فسادًا، ليتمكن في النهاية من جمع تأييد التيارات المتشددة ضد الروائي، إلى أن أقنع نجل الحاكم بالانقلاب على والده، مُصدرًا فتوى بجواز خلعه من الحكم واعتقاله وسجنه، بتهمة التشجيع على الكفر؛ لموافقته على بقاء "الروائي المصري" على أرض مملكته، وهو ما نفذه الابن بالفعل!

تذكر "كامل" كل ذلك، قبل أن يومئ برأسه غير مستغرب من الهجوم، الذي يشنه صاحب فتاوى التكفير على مصر الثورة، خاصة أنه احتل موقع "مفتي الدمار" لسنوات طويلة، كان فيها الإسلام لا يمثل له سوى وسيلة يصل بها إلى غاية الغنى الفاحش، ويضرب بها من يحاول الاقتراب من خزائن ثروته الحرام، ليتحول الدين إلى مجرد كارت يلعب به في وجه الجميع، مستغلًا كتاب الله وسنة رسوله الكريم للوصول إلى مآربه الشيطانية، مستترًا وراء "عمامة" تخفي "إمعة" لا تنتج سوى الفتن.

لم يستغرب الفنان أيضًا من أبناء "الفرماوي" الخمسة، الذين ساروا على نهج أبيهم، ضاربين عرض الحائط بمصريتهم، ليرى فيهم "كامل"

برهانًا على قول الله تعالى "إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا" ، بعد أن كشفت الأيام عوراقم أمام أعين الكثير، ليروا أطماعهم، ويرصدوا جرائم والدهم، الذي وصلت ثرواته إلى مليارات الدولارات من وراء إباحة دماء المسلمين.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه والد "سمر"، خلال مداعبته أوراق الزهور التي تخرج من الفازات، قبل أن يضرب كفًا بكف، متعجبًا من الفتاوى التي كان يصدرها "الفرماوي" للرؤساء والملوك حتى تتسع خزائنه، بعد أن يمنحهم لقبًا يُدخلهم ضمن زمرة أمراء المؤمنين وخلفاء المسلمين، ناهيك عن وصلات النفاق التي كان يكيلها لزوجات هؤلاء الملوك، حيث أفتى بأنه يجوز مصافحة إحداهن باعتبارها "أم المؤمنين"، حتى يهرب من سيل الاتهامات التي طاردته عقب تقبيله يد زوجة هذا الملك، التي أنفقت الملايين على تجميل مؤخرها، لتحقيق حلمها بأن تصبح الملكة المثيرة.

لم يندهش "كامل" كذلك من حشد "الفرماوي" لمتشددي العالم الإسلامي، من أعلى منابر الدويلة لتنفيذ مخطط لا يعلم أهدافه سواه، حيث كان الأب على قناعة بأن الشيخ الإرهابي يجاهد في سبيل نصرة أعداء الإسلام، بكل ما أوتيَ من علم، مستغلًا رياح "الربيع العربي" لجمع أكبر قدر من الثروات في خزائنه، فلا ينسى "المدرس" عندما سمع "الفرماوي" يشكر بعض دول الغرب، باعتبارها تُجاهد في سبيل الله بعد إمدادها الإرهابيين بالمال والسلاح، بجانب فتاوى القتل والتخريب التى أصدرها ضد الدول الثائرة على الإرهاب.

كاد الغضب الذي امتد إلى يد والد "سمر" أن يزيح إحدى الفازات، عندما وقف مسرعًا لبدء صلاة قيام الليل، لِيُثَبّت الأب الفازة في مكانها شاكرًا تجمع الزهريات على إنقاذه من يد المتشددين، الذين حاصروه على بعد عشرات الأمتار من قصر الأمير، مطالبين إياه بالسير معهم إلى جهة ما، للتحقيق معه باعتباره صديقًا للروائي الشيوعي، لينفجر جدل واسع بين المواطنين – الذين طوقوهم بسلسلة بشرية طويلة – حول الانقلاب و"النقراشي"، إلى أن أنهى رجال الحاشية الأميرية الموقف سريعًا، بالتأكيد على أن "المدرس" كان ضيفًا لأميرهم، وله الأمان حتى يصل إلى منزله، ومعه الزهريات الثلاث التي أهداها له صديقه الأمير، وقد كان.

خرج "الأب" من غرفته قاصدًا دورة مياه منزله للوضوء، متمتمًا بكلمات الله تعالى: "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون"، ثم سكت قليلًا ولسان حاله يقول: "لا.. الفرماوي يعلم أنه غير مصلح، متناسيًا عقاب الواحد القهار"، لتعيد شفتاه التحرك ببطء قائلة كلمات الله تعالى: "ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي"، إذ رآها أكثر تشابهًا مع حالة مفتي الفتنة، قبل أن يرفع يديه إلى السماء داعيًا: "اللهم أرنا آية في هذا العالم الفاسد".

* * *

# الطبيب الضحية

بعد دقائق من غلقها نافذة الشرفة، ووصولها مسرعة إلى صومعتها في الواحدة والنصف صباحًا، ثاني أيام الذكري الأولى لموت أحلامها، استسلمت "سمر" للنوم لتنهي يومًا شاقًا، بعدما احتضنت الوسادة الصغيرة، وحاصرت أنفاسها بعطر "عمر"، الذي نثرت منه كمية غير قليلة على وسادها، لتغمض عينيها على عدة مشاهد احتلت ذهنها، كان أشدها ألمًا مشهد عناق حبيبها على شاطئ براني في مطروح، فكلما عاد هذا المشهد إلى عقل الحبيبة، يتأصل إحساسها بنار فراق تحرق أركانها، ووحدة قاتلة حاصرها بعد رحيل "عمر"، ومن بعده صديقتها "شيماء".

كثيرًا ما تذكرت "سمر" المشهد الأخير الذي رأت فيه صديقتها تصارع الموت بين يديها، أثناء محاولات إنقاذها من الفيروس الخطير، قبل أن يتمكن من الطبيبة ليفتك بها داخل غرفة العناية المركزة، رغم إعطائها جرعات مكثفة من عقار "التاميفلو"، يومها صرخت "سمر" منادية باسم رفيقتها الراحلة، ليرج صدى صوتها أرجاء المستشفى، معلنة لحاق صديقتها الوحيدة – بعد السفر إلى مطروح – بحبيبها "عمر"، الذي رحل قبل ذلك

اليوم بـــ٤ أشهر، قضت منها "سمر" شهرين في المستشفى، تنعي مع الرفيقة الرقيقة في كل ليلة حظهما البائس في الحب والعمل.

في هذه الليالي، أغرقت دموع الصديقتين وسادتي سريريهما داخل مبيت الأطباء بمطروح، حيث قضتا ساعات طويلة ترثيان ما وصل إليه حالهما، خاصة بعدما فتحت "شيماء" قلبها لـــ"سمر" لتحدثها عن غدر "عادل فهيم" – الذي التقته في جمعية "رحالة الخير"، لتحكي لها عن المكالمات العديدة التي جمعتهما بعد تركها الجمعية الخيرية، وكيف فوجئت بمنسق القافلة الطبية المجانية إلى منطقة "عزبة النخل"، يتصل بها بعد أسابيع قليلة من مغادرتها القافلة، ويؤكد إعجابه الشديد بها، وبثقافتها وحرصها على الحد من آلام المرضى البسطاء، طالبًا منها تحديد موعد مع والديها، كي يتقدم لخطبتها، وهو الطلب الذي ندمت "شيماء" كثيرًا على تلبيته.

سردت الطبيبة الشابة لـــ"سمر"، كيف جاء "عادل" إلى منزلها بعد أيام معدودة، ليتفق مع والديها على إتمام الخطوبة خلال شهر، على أن يصطحب والديه معه إليهما بعد أسبوعين، كي يتعرفا على "شيماء" قبل الخطوبة، ليغادر "عادل" منزلها ويظل على اتصال دائم بها لمدة ٤ أسابيع، التقيا خلالها خارج المنزل مرتين، بعد إلحاح شديد منه، عقب أيام قضاها يتحدث عن الحب الذي ألهب قلبه بمجرد رؤيته لها في "رحالة الخير"، لتشعر الطبيبة المقبلة على الخطوبة بأن ثمة شيئًا يولد في قلبها تجاه الناشط، وبمرور أيام بسيطة كان لقاؤهما الأول خارج إطار الجمعية، بعدما جلسا في أعلى مكان بالعاصمة، داخل الكافيتريا الدائرية ببرج القاهرة، حيث استمعت "شيماء" إلى كلمات "عادل" وهي تجوب أنحاء مدينة الألف مئذنة

من أعلى، تلك المدينة التي تحاصرها المآذن من كل جانب، وترسم آثارها التاريخية حدودًا طبيعية لها، لينتهي مدى رؤية عيني الطبيبة إلى الأهرامات من جانب، وقلعة صلاح الدين الأيوبي من جانب ثانٍ، وبالنيل المتسع على طول الكورنيش من زاوية أخرى.

إلا أن "شيماء" أفاقت من سحر القاهرة، ورومانسية "عادل"، على صدمة حقيقية، عندما فوجئت بصوت الأخير يطلب من جرسون الكافيتريا أن يجلب له زجاجة "بيرة"، لتنطلق ثورة الطبيبة المصدومة، ويحاول خطيبها المنتظر تهدئتها، بالتأكيد على أن ما يقال حول حرمانية "البيرة" لا أساس له من الصحة، ساردًا فتاوى بعض الأئمة التي تستبعد هذا المشروب الكحولي من قائمة الخمور المحرمة، باعتباره مشروبًا أُضيف إليه الكحول عن طريق "التقطير" وليس "التخمير".

وقتها، استمعت "شيماء" إلى ما يقوله "عادل" عن البيرة، ممسكة بحدة غضبها، ليضيف الناشط قائلًا: "الخمر هو كل ما صنع من عنب أو تمر، وتُرك مدة طويلة ليختمر، أما البيرة فليس فيها أي اختمار، بل شعير أُضيف إليه الكحول عن طريق التقطير، لذلك فهي ليست حرامًا"، وبعد سماع الطبيبة هذه الكلمات، تصاعد غضبها قائلة: "مَن يقولون هذا لا يفهمون شيئًا، فالتقطير هو إحدى مراحل التخمير، ولا فرق بينهما"، وبانتهاء هذه الكلمات هددت "شيماء" بترك المكان، إن لم يتراجع خطيبها عن طلبه، ويعدها بأن يقلع عن شرب "البيرة" نهائيًا، وهو ما وجد "عادل" نفسه مضطرًا إليه، لإخماد ثورة مرافقته التي كاد يصل صوتها لآذان الجالسين على الطاولات المجاورة، ليحاول تهدئتها بتأكيد أن حبه لها كفيل بإجباره على أن يغير من نفسه كثيرًا، قبل أن يعدها بعدم شرب المشروب

الكحولي مرة أخرى، لتتيقن الطبيبة أن المتقدم لخطبتها يحبها بإخلاص، ويقدرها بشدة، وهو ما أثبتت الأيام عكسه.

***

وبعيدًا عن النهاية الحزينة لقصة "شيماء"، التي سردتها الأخيرة لصديقتها، قبل ساعات من وفاتها متأثرة بالفيروس الخطير، قضت الصديقتان الفترة التي تلت عودة "سمر" إلى مطروح – عقب أيام من "أربعين عمر" – تجوبان شواطئ المدينة الساحلية، وتشكوان وحدتهما، وتندبان حظهما العثر، الذي رمى بهما في أبعد المناطق براتب لا يتعدى ٧٠٠ جنيه، مضافًا إليه "بدل عدوى" لا يتجاوز الخمسة عشر جنيهًا.

تحدثت الطبيبتان أيضًا عن غرائب الهرم الوظيفي في مصر، متسائلتين: "كيف يحصل أعضاء بعض الهيئات، التي لا تمت لمهنة الطب بصلة، على آلاف الجنيهات شهريًا كبدل للعدوى، بينما الطبيب المهدد دائمًا بالفيروسات لا يتقاضى سوى بضعة جنيهات؟"، ومستاءتين من حال المستشفى الذي يفتقد أبسط المتطلبات العلاجية والصحية، ولا يحتوي إلا على بعض السرنجات وكرات القطن والشاش والخيوط الطبية، وتنقصه غرفة عزل تقي المرضى شر عدوى الفيروسات الخطيرة، التي فتكت بـــ"شيماء"، لتعيش "سمر" وحيدة في غربتها الإجبارية.

إلا أن حدثًا تاريخيًا كان في انتظار الطبيبة الوحيدة عقب أيام من لفظ "شيماء" أنفاسها، إذ فوجئت بصديق "عمر" البدوي القعيد ذي الخمسين عامًا "حمزة"، الذي اصطحبهما في الرحلة الطويلة حتى السلوم، بعد الزيارة

الطارئة للحبيبين إلى مرسى مطروح، حيث دخل القعيد جالسًا على كرسي متحرك، تدفعه بهدوء الممرضة "ثماني" التي تأذت برحيل "شيماء" كثيرًا، خاصة أن الطبيبة الراحلة ماتت بين يديها أيضًا، وهي تشارك "سمر" محاولات إنقاذها اليائسة.

وما أن دخلت "ثماني" إلى غرفة الأطباء، حتى تركت قبضتي الكرسي المتحرك أمام الطبيبة، لينظر الرجل القعيد إلى "سمر" في أسى بالغ، خاصة أنه جاء بالأصل لتقديم العزاء للحبيبة في "عمر"، إذ علم بنبأ استشهاده قبل أيام قليلة فقط، عندما انتقل من مدينة "براني" إلى مرسى مطروح، للإقامة في منزل شقيقه عدة أيام، شاهد فيها بالصدفة أحد البرامج التليفزيونية التي تتحدث عن بطولات الشهداء، الذين قُتلوا على يد ميليشيات الإخوان، ليصدم بصورة صديقه الجيولوجي الشاب بينهم، ويقول في صوت عالٍ للغاية: "لا إله إلا الله.. حسبي الله ونعم الوكيل"، قبل أن يدخل في نوبة بكاء عميقة، لم يفق منها إلا بعد ساعات طويلة.

كان "القعيد" قد بدأ قطيعة طويلة بكل وسائل الإعلام، بل والدنيا بأكملها، مقررًا ألا يفتح جريدة أو يشاهد قناة، بعد أن عاد من القاهرة قبل سنوات، لتبتر قدماه في حادث انفجار لغم بحقل "الحرائق والكنائس" على طريق واحة سيوة، أثناء سيره بالأغنام في الصحراء الشاسعة، بحثًا عن عشب يملأ أفواهها، وملاذ هادئ يجلس فيه وسط الرمال الساحرة، يتذكر صورة حبيبته الأولى والأخيرة، ويرى ملامحها بين ثنايا الهضاب الصغيرة التي يترجل بينها، متحاشيًا الصخور التي تشارك العشب تزيين الرمال، إلى

أن وجد نفسه في ثانية واحدة أعلى هضبة، رائيًا بالمشهد الأخير قدميه تتناثران، بعد أن أطلق واحدة من صرخات النهاية، ليدخل في إغماءة طويلة، استيقظ منها راقدًا على سرير داخل مستشفى، ليطلق صرخة أبدية عقب تحسسه قدميه، فقد بترتا ليعجز للأبد.

بعدها، ظل "حمزة" شهرًا لا يتفوه بكلمة واحدة، إلى أن وجد شقيقه في صباح أحد الأيام يدخل عليه، ويطالبه بتحديد مصير خطوبته التي كانت على وشك الإتمام قبل الحادث، ليجد نفسه يُخرج ٤ كلمات بصوت يحمل ألم الدنيا، هي: "قولوا لها، حمزة مات"، ليصمت بعدها أسبوعًا آخر، إلى أن خرج من المستشفى، مقررًا أن يهب حياته لإنقاذ أقرانه البدو من مصيره المأساوي، ويبدأ في جمع المعلومات عن الألغام، حاصرًا أسماء ضحاياها الذين يصل عددهم إلى ٩ آلاف شخص بين قتيل وجريح، ليعلم أن الأجسام المتفجرة مازالت تواصل اقتناص أرواح الأبرياء في عمق الصحراء، ويحفظ عن ظهر قلب إحصائيات الثروات المعدنية المهدرة؛ بسبب تلك الأجسام المنتشرة على سطح وفي باطن ٦٣٩ ألف فدان بالساحل الشمالي الغربي، منها ٢٣٩ ألفًا تقع بين سيدي براني والسلوم.

حصر "حمزة" أيضًا ملايين الأفدنة الصالحة للزراعة والرعي، التي لم تستغل بسبب ألغام زرعتها قوات الحلفاء والمحور في الصحراء الغربية، خلال الحرب العالمية الثانية؛ لتتعطل التنمية لأكثر من ٦ عقود، بل وقاتل الرجل القعيد في سبيل الكشف عن مصير آلاف الدولارات، التي تحصل

عليها الجمعيات الأهلية سنويًا لمساعدة ضحايا الألغام، الذين لا يعرفون شيئًا عن هذه الأموال، حامدين الله على الـــ ٦٠٠ جنيه التي يحصلون عليها كل عام، بمقتضى قانون المدنيين المتضررين من الحروب، بجانب ١٦٠ جنيهًا شهريًا من الشئون الاجتماعية.

ظل "القعيد" يفعل كل هذا بجوار مشروعه الصغير للملابس البدوية، حتى اليوم الذي وصل فيه إلى مرسى مطروح على كرسيه المتحرك، لإنهاء بعض إجراءات صرف الأجهزة التعويضية لضحايا الألغام، إلى أن علم بنبأ استشهاد "عمر"، وأفاق من نوبة بكائه مقررًا الذهاب إلى المستشفى، التي ودع فيها "سمر" قبل أشهر قليلة – صباح اليوم التالى لانتهاء رحلة السلوم – حتى يُقدم لها العزاء.

وعلى باب المستشفى، رأى "حمزة" الممرضة "تهاني" التي يعرفها منذ سنوات عديدة، حيث كانت الممرضة تعاونه في زياراته المستمرة للمستشفى، على السير بين طرقاتها قائدة كرسيه المتحرك، لحين انتهائه من إجراء الفحوصات الطبية أو إصدار تقارير بحالته الصحية، استعدادًا لتقديمها إلى الجهات المانحة لمساعدات ضحايا الألغام.

استقبلت الممرضة "حمزة" بوجه حزين للغاية في هذا اليوم، ليسألها عن سبب اتشاحها بالسواد، وهو ما أجابت عليه "تهاني" وسط حصار الدموع لعينيها، قائلة: "الدكتورة شيماء ماتت يا عم حمزة"، ليتلقى "القعيد" ثاني صدمات زيارته للمدينة الساحلية، خاصة أن الطبيبة الراحلة كانت قد أشرفت على فحص طبي له، بعد يوم واحد من انتهاء رحلته مع "عمر" و"سمر" إلى الحدود الغربية لمصر، لتتابع الممرضة كلماتها عن "شيماء" بأسى

بالغ، قائلة: "اتعدت بإنفلونزا الخنازير، وماتت"، وهنا، كرر الجالس على الكرسي المتحرك نفس الجملة، التي قالها في ليلته الماضية بعدما رأى صورة "عمر" في التلفاز، قائلًا بصوت طغى عليه ضعف الرجال: "لا إله إلا الله.. حسبي الله ونعم الوكيل".

عندها، قرأ "القعيد" الفاتحة على روح الراحلة، وطالب الممرضة بأن تصطحبه إلى "سمر"، لتخبره "تهاني" في الطريق إلى غرفة الأطباء بأن الطبيبة باتت في حالة يرثى لها، بعد أن فقدت حبيبها وبعده صديقتها ورفيقتها في الغربة الإجبارية، ليدخل الرجل المنهك من الصدمات إلى الطبيبة، ناظرًا إلى عينيها قائلًا: "البقاء لله"، بينما قابلت "سمر" الكلمتين بنظرة يأس اختفى فيها البريق، الذي رآه القعيد قبل شهور في ضحكتها الملائكية بجانب "عمر"، وهما يرسمان قلبًا بأيديهما أعلى هضبة السلوم.

مدت الحبيبة والصديقة الثكلى يدها إلى "حمزة" تصافحه، وبداخل عينيها بحر من الدموع تلاطمت أمواجه بشدة، عندما رأت القعيد الذي طالما تحدث "عمر" عن إنسانيته ووفائه، لترد على كلماته بصوت حاصره الألم قائلة: "لا إله إلا الله"، وقتها وجد الرجل يده تمتد إلى كتف الطبيبة الأيسر بمشاعر الأب المواسي، ليربت عليه قائلًا: "لا تحزني يا ابنتي، كلنا راحلون"، لترد "سمر" والدموع تبدأ في السير بمجرى أحزانها، قائلة بأسى بالغ: "لكن الفراق صعب يا عم حمزة".

سكت "القعيد" ولم يجد ما يقوله، فالرجل قضى عمره يقاوم صعاب وألم هذا الفراق، بعدما قرر أن يصبح ميتًا بين الأحياء، في عين معشوقته

الحسناء، التي تركها في القاهرة قبل ٢٥ عامًا، ولم يرها منذ آخر لقاء جمع بينهما في محطة رمسيس، قبل انطلاقه للإسكندرية ومنها إلى مطروح، لاستقدام عائلته معه بعد انتهاء إجازة قصيرة، اقتنصها من الشركة التي كان يعمل بها مع حبه الأبدي، كي يرتب أمور إتمام خطوبته إليها في حضور الأهل والأصدقاء، إلى أن جاء القدر بمأساة الانفجار الذي أفقده قدميه، ومعها أحلامه وعشقه الذي لم ينضب حتى هذه اللحظة، التي جلس فيها أمام الطبيبة المعذبة.

استمر هذا السكوت دقيقتين، حتى بدأ "القعيد" في حديثه، ليكشف ما أخفاه طوال ربع قرن، والذي سيكون سببًا في بدء "سمر" مرحلة جديدة في حياتها، أيقنت فيها أن الحب لا يموت بتوقف القلب، وأن الدنيا يمكن أن تقف على شخص، كل ذلك استوعبته الطبيبة قبل انتقالها من مستشفى مرسى مطروح، إلى مدينة "براني"، لتقضي هناك باقي أيامها في مطروح.

***

# حميمية الإرهاب

على مفاجأة سارة، استيقظت "سمر"، في الحادية عشرة صباح ثاني أيام الذكرى الأولى للوحدة، بعد أن سمعت صوت "كامل" يناديها بحنان بالغ، يريد إيقاظها ولا يريد في ذات الوقت، خاصة في ظل علمه أن النوم خاصم عيني ابنته طوال الـ ٤٨ ساعة الماضية، إلا أن شغفه بإيقاظها على مفاجأته، دفعه لترك سريره في التاسعة صباحًا، كي يضمن أن تفتح ابنته عينيها على لوحته الجديدة، ليفك أسرها بحامل اللوحات، ويحملها إلى الصومعة الصغيرة، قبل أن يستبدلها بصورة على الجدار المقابل لسرير طفلته، ليناديها بهدوء، حتى فتحت "سمر" جفنيها، لترى ملامح "عمر" أمامها في اللوحة الصغيرة الجديدة، وتسمع صوت والدها قائلًا: "دلوقتي مش محتاجه تكبّري صورتك على الكورنيش".

عندها، زينت الابنة ملامحها الطفولية بابتسامة لم تخف هول سعادتها من المفاجأة، بعدما علمت من كلمات "كامل" أن والدتها قد أوشت بها – كالعادة – وأبلغته بنيتها تكبير صورتها مع "عمر"، بعد أن أعلنت الابنة تلك النية لـ"سلوى" في جلسة الذكريات، التي جمعتهما عقب صلاة فجر أمس، وأمام كل ذلك، احتضنت الابنة أباها بشدة، قائلة: "ربنا يخليك ليا

يا بابا"، ليرد "كامل" قائلًا: "رسمتها إمبارح مخصوص عشان تبقى معاكي في الرحلة"، وهى الكلمات التي استقبلتها "سمر" بدمعة خرجت من بين جفنيها فجأة، لتسقط على كتف والدها، الذي كان يحرك أنامله على شعرها، ويربت بيده الثانية على ظهرها.

هذا المشهد، انتهى على صوت "سلوى"، وهي تنبه زوجها وابنتها بأن موعد السفر اقترب، وأن على "سمر" الاستعداد للرحيل، حيث تبقى أقل من ٤ ساعات حتى تُقلع الطائرة، ورغم أن الحبيبة المسافرة كانت قد نسقت مع أحد سائقي سيارات الأجرة، لتوصيلها إلى المطار، إلا أن "كامل" أصر على أن يودعها بنفسه، خاصة أن الوالد كان يجد متعة في قيادة السيارة، التي حُرم منها طوال ٤٦ عامًا، لتلبي الابنة إصراره بقبلتين وضعتهما على خديه، قبل أن تحرك جسدها من أعلى السرير تاركة حضن أبيها، وتخطو نحو اللوحة الصغيرة، لتبلل أناملها ملامح "عمر" بالدموع، التى مسحتها لتوها من خديها حتى لا يراها والداها، إلا أن الابنة استطاعت الهروب من نظراقما المواسية؛ باستئذاهما في تغيير ملابسها استعدادًا للتزول إلى سيارها، لتجلب مستلزمات سفرها التي اشترها أمس من "سيتي ستارز".

***

كانت مفاجأة أخرى في انتظار "سمر" أسفل متزلها، عندما اقتربت من سيارها لترى منتقبة تترل من سيارة فارهة، وتُقبل عليها قائلة: "أنا رانيا، وبجد محتاجالك"، إلا أن الطبيبة لم تتذكر مشهد طردها للمذيعة من متزلها،

مساء أمس الأول في ذكرى استشهاد "عمر" الأولى، بقدر ما عاد مشهد آخر إلى ذهنها سريعًا، لثمة تشابه بين نقاب "رانيا"، والرداء الأسود الذي اختفت وراءه، وهي تتقدم صوبها رافعة صوتها؛ كي تميزها بين الحضور في غرفة استقبال منزلها، خلال لقائهما الأخير قبل مغادرة المذيعة المنتقبة مصر في اتجاه الدويلة الصغيرة؛ لينقلب حالها رأسًا على عقب.

في اللقاء الأخير للطبيبة والمذيعة، كانت الحبيبة الثكلى قد أفاقت من غيبوبتها منذ ساعات قليلة، بعد غياب ٥ أيام عن الحياة، بدأت مع صرختها المودعة لـــ"عمر"، لتبقى فوق سريرها غير مستوعبة ما يحدث حولها، أو مفرقة بين الوجوه الكثيرة التي تتوافد على منزلها؛ لمؤازرتها ومواساتها فيما أصابها، واضعة رأسها بين راحتيها حتى تستطيع السيطرة على دموع تغرقها في بحر فراق أبدي، تنهمر من عينيها كشلال ماء ينصب من أقصى القمم انحدارًا، وسط محاولات من أسرتها وأقربائها وجيرانها وصديقاتها؛ لإخماد لهيب ألمها الذي لا يستكين، حتى نجح بعضهن في حملها من أعلى سريرها، ليجلسنها على أريكة الصالون، مستقبلة التعازي الحارة من الجميع، لتفاجأ بأعين المنتقبة ترمقها من مدخل الباب على بعد ٧ أمتار، وقدماها تسيران في اتجاه الأريكة على صوت نسائي صاخب يقول: "البقاء لله يا حبيبتي.. أنا رانيا".

تذكرت الواقفة أسفل منزلها هذا المشهد، وهي تتأمل عيني "المذيعة" سامعة كلماتها، التي أكدت فيها أنها تنتظرها في الشارع منذ ساعتين، خوفًا من أن تتعرض للطرد مثلما حدث أمس الأول، قبل أن تطالبها بمساعدتها

في المحنة الصعبة التي تمر بها عقب طردها من الدويلة الصغيرة، حينها كانت "سمر" تستمع إلى كلمات "رانيا" بحيرة شديدة، غير قادرة على اتخاذ قرار بشأن مساعدتها، إلى أن قالت لها محاولة الهروب من أمامها: "سأنتظرك الأسبوع القادم، بعد عودتي من السفر"، ولم تمنح "سمر" الفرصة للمذيعة؛ كي تتحدث أكثر من ذلك، بعدما صافحتها، منطلقة بخطى مسرعة نحو سيارتها الصغيرة؛ لتلتقط منها مستلزمات السفر.

***

قبل أسبوع واحد من وقوف "رانيا" أمام منزل "سمر"، بدأت معاناتها في الدويلة الصغيرة، بعد أن لاقت المذيعة شر طردة، على يد الإرهابي الهارب "مجدي عبد القادر"، الذي وصلت بصحبته إلى هذا القُطر، ليستيقظ صبيحة أحد الأيام على صدمة لم يفق منها، حتى بعد طرد المذيعة من المملكة، عقب نحو ٨ أشهر قضاها مع "رانيا" على سرير واحد، يتبادلان دروس الجنس المتوهج، وينسقان أيضًا لنقل الشفرات إلى أعضاء "فرقة الألف" الإخوانية الإرهابية، التي كان "مجدي" يقودها عن بُعد.

أشرف الجهادي الإرهابي بنفسه على تدريب الفرقة وسط جبال سيناء، إبان عضويته بالهيئة الاستشارية للرئيس الإخواني، بعد أن ضم للمجموعة الإرهابية عناصر متشددة من مصر وفلسطين لتنفيذ هدفين، الأول تشكيل ميليشيات تكون قادرة على الوقوف أمام معارضي الإخوان إذا استدعى الأمر، أما الهدف الثاني - أو غير المعلن - فهو التنسيق مع قيادات التنظيمات الإرهابية حول العالم لإقامة "الإمارة الإسلامية" في سيناء،

لتصبح أرض الفيروز بين خطر "الإمارة" من جانب، وتهديدات مشروع "الوطن البديل" من جانب آخر، بعدما بدأت إسرائيل تنفيذه – فور تولي الإخوان حكم مصر – لتحويل فلسطين إلى أرض بلا شعب، على أمل أن تكون سيناء وطنًا جديدًا للفلسطينيين.

واستمر القيادي المتطرف في ضم الإرهابيين للفرقة الجديدة، حتى عاد إلى القاهرة ليلتقي المذيعة "رانيا" في استوديو "الحقيقة" للمرة الثانية، ويبدآن علاقتهما الحميمية، قبل أن يعود إلى ملتقى التكفيريين، عقب أسبوع واحد فقط من هذا اللقاء، مارس فيه المتوهجان جنسًا غير تقليدي خلال ٤ لقاءات جمعتهما، منها ثلاثة في نهار أيام رمضان الأولى، أنهى "مجدي" آخرها مرتديًا ملابسه سريعًا، بعد تلقيه أولى المهام الدموية لفرقته الإرهابية على أرض الشهداء، ذلك الحادث الجبان الذي زاد رمال سيناء فخرًا بدماء خير أجناد الأرض، عندما رافق القيادي ١٥ إرهابيًا في ٤ سيارات دفع رباعي، عابرين الدروب الصخرية في اتجاه نقطة تمركز للقوات المسلحة، لينقضوا على أفراد قوتها مع أذان المغرب، وتخترق دفعات الرصاص صدور ١٦ ضابطًا وجنديًا مع دوي مدفع الإفطار، وتسقي دماؤهم بستان الشهداء، لتنجح الفرقة في تنفيذ أولى المهام، التي كان هدفها إيجاد مبرر للرئيس الإخواني يجعله قادرًا على الإطاحة بقيادات المجلس العسكري، التي سلمته السلطة قبل شهرين فقط من الحادث الغادر، حتى تضمن الجماعة الإمساك بجميع مقاليد الحكم دون منازع، وهو ما حدث.

حرص الإرهابي أيضًا على تنظيم عروض عسكرية للميليشيات على أرض سيناء بين الحين والآخر، ليرى أبناء مدينة "الشيخ زويد" آخر تلك

العروض، قبل شهرين من عزل محمد مرسي، والذي شارك فيه ٥٠ عنصرًا إرهابيًا، خرجوا من المناطق الجبلية الوعرة التي يتمركزون بها، لينظموا العرض بالأسلحة الآلية في قلب المدينة، حتى تنتقل الصورة إلى مسئولي مكتب إرشاد الجماعة، ليعلموا أن المستشار الإرهابي للرئيس يقوم بعمله على قدم وساق.

والحقيقة أن "مجدي" لم يقصر إطلاقًا، حيث سعى جاهدًا إلى لم شمل الإرهابيين من جديد، خاصة بعد أن أفرج "مرسي" على عدد كبير منهم، ليستطيع الجهادي المتطرف أن يجمع بين أعضاء تنظيمات التوحيد والجهاد، وجيش الإسلام الفلسطيني، والتكفير والهجرة، ومن هذا الجمع تكونت النواة الأولى لكتائب "أنصار بيت المقدس" الإرهابية.

وبإزاحة الإخوان عن الحكم، وجدت الجماعة من "فرقة الألف" أداة لجرائمها الدموية على أرض مصر، خاصة أن الفرقة اتسعت لتضم عددًا أكبر من الإرهابيين والمرتزقة، ولم يعد تواجدها مقتصرًا على سيناء، حيث هربت قطعان عديدة منها إلى ليبيا عبر الصحراء الغربية، وباتت تتلقى التعليمات من خلال شفرات، تلقي بها المذيعة "رانيا" بين كلماتها، في برامج قناة "البصيرة" المعادية لمصر، أثناء تعليقها على المظاهرات التي تُرفع فيها شارات "رابعة"، حيث دأبت القناة على إذاعة فيديوهات معادة تحت بند "مباشر"، في ظل مخططها التضليلي، الذي يساند الإرهاب بكل ما أوتي من إفك وعهر إعلامي!

لم يأت هذا التعاون الإرهابي الإعلامي من فراغ، فعلاقة الإرهابي والمذيعة، باتت أكثر حميمية بعد الساعات الساخنة الأولى، التي قضاها في فيللا التجمع الخامس، بعد أن ركضا إليها من الحديقة، ففي الداخل،

وللوهلة الأولى عقب غلق الباب، ضم "مجدي" الفتاة المثيرة بين ذراعيه، ليشعرها بأعضائه المتوهجة، قبل أن تهاجمه بقبلاتها الشرسة — متذكرة قبلات معلمها الأول "مدحت" - ليدخلها بشدة إلى أحضانه، قابضًا بيده على ظهرها، نازلًا بها ببطء على نهاية خصرها، متجاوزًا بأصابعه تنورتها الصغيرة، ومن ثم لباسها الداخلي، لتبدأ معاناة "مجدي" الأبدية، التي دفعته إلى طرد "رانيا" من المملكة.

***

# القُطر الضال

في تمام الثانية عشرة والنصف، مساء ١٣ فبراير، وقبل عيد الحب بساعات، كانت "سمر" تترل مع والدها "كامل" على درج المترل، متوجهين إلى السيارة، بعد أن عانقت الابنة والدها "سلوى" بحدة بالغة، ليشعر الوالد بالمتعة الشديدة بمجرد إمساكه بعجلة قيادة سيارة ابنته، فالعجز الذي أصاب عينه اليسرى، دفع إدارات المرور إلى رفض إصدار رخصة له، وبعد لحظات بدأ الأب في استمتاعه ليقود ببراعة فائقة، مرتديًا نظارته السوداء غير مبالٍ بالأكمنة التي قد توقفه على الطريق.

انتهز "كامل" فرصة مروره أمام البنك، الذي يصرف معاشه عبر ماكينة صرفه الإلكترونية، ليترل من السيارة مترجلًا نحوها، حتى دس ألف جنيه في جيبه، وعاد مسرعًا إلى ابنته، التي استقبلته بتساؤل حول حرصه على تسلم هذا المعاش البسيط في ميعاده، وعدم التأخر في الذهاب إلى البنك، رغم أنه يحصل على آلاف الجنيهات من وراء عمله في شركة الملابس، ليرد الأب ضاحكًا وممسكًا بمعاشه الضئيل قائلًا: "هذه الجنيهات القليلة خلاصة رحلة كفاحي!"، قبل أن يسرد لها أسباب قلة معاشه بالمقارنة بزملائه، رغم أن الفارق بينهم لا يتعدى ٢٠٠ جنيه.

قال الأب: إن إدارة المعاشات لم تسجل المدة التي قضاها خارج مصر، رغم تسديده جميع مبالغ التأمينات المستحقة عليه وبالدولار، فضلًا عن تقديمه طلب "معاش مبكر" من التربية والتعليم، عقب عودته للعمل في مدرسة إعدادية بالقاهرة منتصف الثمانينيات، بعد أن وجد أن مهنة التدريس أصبحت لا تلائمه، واجدًا بعضًا من زملائه يرفعون شعار "من مصلحة المعلم ألا يفهم الطالب"، ليتركوا مهمة التدريس بالمدارس، ويتفرغوا لجني الثروات من وراء الدروس الخصوصية.

وبعد سؤال للابنة عن أسباب عودة والدها من الدويلة الصغيرة، التي كان يعمل بها، سرد "كامل" تفاصيل المشاجرة الكبرى، التي جرت بينه وبين أمير من أبناء هذا القُطر، بعد أن فوجئ المدرس بالأمير العجوز يقتحم عليه الفصل، ويعنفه بشدة، بسبب درس خسوف القمر، الذي شرحه لنجله في الحصة السابقة؛ بأن الخسوف يحدث عندما تقع الأرض بين الشمس والقمر على خط واحد، إلا أن والد التلميذ كان له رأي آخر، عندما قال له بصوت غاضب عقب اقتحامه الفصل: "كيف تقول ذلك للصبي، وشو علاقة الشمس بالقمر؟! هدا الكسوف يحدث عندما يخنق الشيطان القمر!"، الأمير قال ذلك بقناعة تامة في ظل المعلومات المشعوذة التي توارثها أبًا عن جد، قبل أن يطرق التعليم أبواب الدويلة بفضل البترول، وبانتهاء حديث الأمير دبت مشاجرة كبيرة، خاصة بعدما اتهمه "كامل" بالجهل والغباء، ليأخذ والد التلميذ من ترحيل المدرس مهمة مقدسة، إلى أن قرر الأخير الرحيل بإرادته المنفردة.

لم يكتف الأب بسرد كل هذا، بل كشف لابنته عن الدور الشيطاني، الذي يلعبه هذا القُطر الصغير في الوطن العربي، بعد أن تحول إلى وكر للإرهاب، يقدم المأوى للمتشددين والتكفيريين، بل ويطلق لهم العنان ليثيروا القلاقل بالدول المجاورة، داعمًا كل الطوائف المتطرفة، من حوثيين وشيعة ووهابيين وإخوان، كي يستغلهم في مواجهة الأنظمة العربية، باذلًا في سبيل ذلك كل ما أوتيَ من مخططات تهدف لزعزعة استقرار الشرق الأوسط، تلك المخططات التي رسمتها الدول صاحبة القواعد العسكرية على أرض الدويلة الصغيرة.

وبعيدًا عن "القُطر الضال"، حكى "كامل" لـــ"سمر" أيضًا عن الموقف الذي دفعه إلى ترك المدرسة الإعدادية بعد عودته للقاهرة - بل التعليم بالكامل - عندما وجد مدير المدرسة يعنفه، عقب دخوله معمل الحاسب الآلي؛ بسبب قيام المدرس باستبدال موضع الحاسب الآلي، الذي وضع أمام شاشة العرض الكبيرة، ليجلس المدرس أمامه وفي ظهره التلاميذ، ناظرين معًا إلى الشاشة، في الوقت الذي خصص فيه هذا المعمل من الأصل، كي يكون المدرس في مواجهة التلميذ جالسًا إلى الكمبيوتر وخلفه الشاشة، حتى يشرح لهم الدروس ويتابع تفاعلهم معه، وهو ما لم يستوعبه المدير، متهمًا المدرس بعدم الفهم، ليرد عليه بالمثل وتتفاقم الأزمة إلى حد التشاجر، ويحال "كامل" إلى التحقيق الفوري، قبل أن يخرج من المدرسة بلا عودة.

كما أسهب "الأب" في الحديث عن نعم الله عليه، الذي عوّضه بها عن صبر وكفاح طويل، خاصة بعدما عاد إلى مصر، ليجد أمواله قد ذهبت

سُدى، ويجد نفسه ضحية من ضحايا هجوم الحكومة على شركات توظيف الأموال في هذا التوقيت، إلى أن عادت له نسبة لا تتعدى ٢٥٪ من أمواله - بعد سنوات طويلة - في صورة أجهزة كهربائية وسجاد ومفروشات، إلا أن الله كان قد رزقه خلال هذه السنوات بعمله الجديد، بعد أن ظهرت موهبته في الرسم على الملابس أو "البانتير"، ليتقدم في مسابقة إحدى الشركات المرموقة، ويبهر أصحابها بفنونه المتعددة، ويجني من وراء تلك المهنة الجديدة في ٣ أعوام فقط، مثل ما حصل عليه طوال فترة اغترابه خارج مصر.

أنهى "كامل" سرد حكاياته، ليجد نفسه أمام باب المطار، قبل أن يحتضن ابنته بحرارة، طالبًا منها أن تعتني بنفسها في وجهتها المقصودة، التي لولا علمه بما تمثله لابنته، لما سمح لها بالسفر إليها وحدها من الأساس، بينما طالبته الابنة بالذهاب إلي الاستوديو كي تكون صورتها مع "عمر" في استقبالها عند عودتها للقاهرة، وبالشهادتين تفرق الأب وابنته، وعلى ملامحهما ابتسامة أمل لم تهزمها الأيام.

وما أن وصلت الطبيبة المسافرة إلى قاعة انتظار الركاب بمطار القاهرة الدولي، حتى رأت شخصًا لم تقع عيناها عليه منذ ثمانية أشهر، أو بالأصح بعد الإطاحة بنظام الإخوان، حيث توارى هذا الشخص عن الأضواء، بعد ٣ أعوام، ظل فيها نجمًا للفضائيات، بدأها في نهاية عام ٢٠١١؛ عندما أصبح متحدثًا إعلاميًا باسم إحدى القوى السياسية، هو نفسه "عادل فهيم"، متطوع "رحالة الخير"، الذى تقدم لخطبة "شيماء"، وصُدمت فيه

الطبيبة قبل أن ترحل بأشهر معدودة، بعدما سردت لــ"سمر" قصة غدره بها في ليلتها الأخيرة.

تبدل حال "عادل" كثيرًا بعد أسابيع من القافلة الطبية، التى نظمها في عزبة النخل، حيث نجح في الخروج من دائرة الجمعية، التي بدأ نشاطه فيها مسئولًا عن الشباب، ليؤسس منظمة أهلية بصورة مفاجئة، قبل شهور قليلة من وصول الإخوان إلى الحكم، وتبدأ القنوات الخاصة في استضافته باعتباره مفتيًا سياسيًا، يحلل ما يدور على الساحة المصرية مدافعًا أو مهاجمًا، وسرعان ما بدأ جولات مكوكية جاب فيها العالم، تحت وظيفة "ناشط حقوقي"، خاصة أن منظمته الجديدة كانت طاقة النور بالنسبة له، لتفتح أمامه أبواب الدنيا، وتحقق أحلامه التي طال انتظارها، ومنها أن يقود سيارة فارهة، ويعيش في فيللا بحمام سباحة، ليشرب البيرة على عشب حديقتها الفسيحة، ويلقي بالزجاجات الفارغة في حوض المياه الواسع.

إلا أن "سمر" اتخذت موقفًا من هذا الشخص، بعدما تصرف بطريقة شهوانية مع صديقتها "شيماء"، لينهي علاقتهما عقب شهرين من تقدمه لخطبتها، ظل فيهما يراوغ الطبيبة ووالديها، معللًا بأسباب تافهة سر تأخر والديه في زيارتهم، حيث حكت "شيماء" لصديقتها، قبل لفظها أنفاسها الأخيرة بساعات، كيف ساومها "عادل" على نفسها، ليضعها ما بين اختيارين، بعد أن تيقن من تعلقها به، لتفاجأ به في أول زياره لها إلى مقر منظمته الأهلية، يحاول أن يضمها لأحضانه عقب لحظات من دخولهما مكتبه الجديد، ومع أول نهرة من الفتاة المحترمة، ساومها "الناشط"، إما أن

تدخل إلى أحضانه ليشعر بدفء صدرها، وإما يتراجع عن مشوار خطوبتهما، لتتركه راكضة إلى خارج المكتب، وما أن وصلت إلى منزلها، حتى فوجئت به يكرر طلبه في الهاتف، لتعاود رفضها، إلا أنه استمر في الإلحاح لمدة ٤ أيام، إلى أن يأس من الطبيبة ليعلن انسحابه من علاقتهما، وتتلقى "شيماء" صدمة الحب الأولى والأخيرة لها في الحياة، بعد أن نسجت أحلامًا وردية تجمعها بالحبيب في عش الزوجية.

خصصت "سمر" وقتًا غير قليل، لكشف خبايا "عادل"، بعد أن فوجئت به يتحالف مع الإخوان ضد المصريين، لتعلم في النهاية أنه إحدى الخلايا النائمة للجماعة، التي التقطته من شبح الفقر، عندما كان طالبًا في كلية التجارة، لتساعده ماليًا حتى التخرج، وتربيه على "السمع والطاعة"، قبل أن تدفع به كمتطوع في "رحالة الخير"، إلى أن ساعدته على تأسيس المنظمة الأهلية، ليصبح وجهًا مألوفًا بين النشطاء، وتستخدمه فيما بعد للوصول إلى مآربها، باعتباره "عرابًا سياسيًا"، قادرًا على حشد أعداد كبيرة من الشباب باسم الثورة.

ورصدت الطبيبة الثائرة، مشاهد لـ"عادل" يهتف فيها ضد جميع الأنظمة التي سبقت "نظام مرسي"، قبل أن يُخرس لسانه فجأة بعد تولي الإخوان مقاليد الأمور في البلاد، ليصمت أمام قتلهم الأبرياء ونهبهم خيرات مصر، ويدافع عن "رحالة الخير" بعد ضبط أسلحة في مخازنها، حاصلًا من وراء سكوته وتبريراته على مئات الألوف، التي دخلت إلى خزائنه لتوضع بجوار خمسة ملايين جنيه، حوّلها من الدولار قبل أن يشتري سيارته وفيللته، بعد حصوله عليها مع تأسيس المنظمة، من خلال المنظمات

الأجنبية المانحة للتمويل الحقوقي، التي كانت تنظم له رحلة خيالية بصورة شهرية لإحدى الدول الأوروبية والآسيوية، بجانب الولايات المتحدة، التي تدرب فيها على الهتاف ضد الأنظمة بهدف إسقاطها، كأحد دروس الجيل الرابع من الحروب.

***

# ثوار كاذبون

قبل إقلاع الطائرة بدقائق معدودة، تأملت الطبيبة ملامح "عادل" التي كانت تستفز الجميع في صالة الانتظار، وهو يحمل حقيبته الصغيرة مغادرًا كرسيه على صوت نداء، يكرر مطالبة المسافرين إلى عاصمة ذات الدويلة المنبوذة بالتوجه للطائرة، حيث كان الناشط المزعوم قد قرر الهروب إلى هناك، ليلحق بقيادات الإخوان الذين سبقوه في مغادرة الأراضي المصرية، بعدما تكشفت نواياه الحقيقية وتبعيته الخفية للتنظيم الإرهابي، لينظر إليه ثوار مصر باحتقار شديد وازدراء بالغ، بعدما انقلب على ٣٠ يونيو، مدونًا عدة عبارات على صفحاته بمواقع التواصل الاجتماعي، يشجب فيها ويدين قرارات مصر الثورة، ويحشد عبرها محاولًا إسقاط الدولة من جديد، مادًا يديه لجميع المتآمرين داخليًا وخارجيًا، بحثًا عن حفنة أموال يقبضها حتى يحرق البلاد، ليتحول الوطن في عينيه إلى مجرد وسيلة؛ يصل بها إلى غاية الغنى الفاحش مهما كان الثمن.

"سمر" رأت الناشط قبل أيام طويلة، في مقطع فيديو أضافته لصفحتها على "فيس بوك"؛ لتكشف مدى وقاحته وخيانته، حيث حرّض فيه على إسقاط الجيش المصري، باعتباره الركن الوحيد المتبقي في الدولة المصرية،

لتزيد الطبيبة من استحقارها لشخصه، لاسيما مع المعلومات الكارثية التي نقلها لها صديقها الثائر "زياد"، الذي يعاونها منذ رحيل "عمر" في إدارة صفحة "أكاذيب القتلة"، عندما أكد لها أن الناشط الخائن تردد على إحدى عواصم الدول العربية المجاورة، بحسب رؤية شهود عيان من أصدقائه هناك، في تحركات مشبوهة التقى فيها ممثلي أبرز الجهات المانحة للتمويل، الذين وجدوا من تلك العاصمة مدينة هادئة لعقد صفقات إسقاط مصر، قبل أن يعود "عادل" إلى القاهرة محرضًا على إشعال الساحة السياسية المصرية، قبيل إجراء الاستفتاء على دستور الثورة.

حديث صديق الطبيبة عن الناشط المزعوم، جعلها تتذكر حرب جمع المعلومات، التي شنتها قبل شهور لمعرفة طبيعة التمويل، الذي تقدمه المنظمات الأجنبية للأنشطة الأهلية السياسية في مصر، تلك الأنشطة التي عرف الإخوان وغيرهم طريقها، ليطرقوا أبوابها بحثًا عن التمويل، وبالفعل وجدوه وببذخ منقطع النظير، ليتحول بعض النشطاء إلى أثرياء حرب، بعدما جمعوا ثروات طائلة من وراء نشر الفوضى؛ في ظل عدم وجود أجهزة رقابية حقيقية تسألهم: "من أين لكم هذا؟".

كانت "سمر" قد أعدت دراسة معتمدة على نفسها، استقتها من تصريحات مسئولين حكوميين حول التمويل الأجنبي، ووضعت نتائجها على صفحتها بموقع التواصل الاجتماعي؛ لتكشف عن مفاجأة خطيرة، جعلتها تعيد التفكير ألف مرة في طبيعة العمل الحقوقي بمصر، في ظل كشفها ثمة اختلافات بمبالغ التمويل، التي وصلت إلى منظمات القاهرة بعد

أيام من الإطاحة بـ"نظام مبارك"، حيث بلغت ٣ أضعاف الأموال الممنوحة لتلك المنظمات طوال سنوات عديدة، إذ أكدت الإحصاءات الرسمية أن المنظمات تلقت في ٤ أشهر فقط - بدأت في مارس وحتى يونيو ٢٠١١ - مبلغ ١٧٥ مليون دولار، بينما لم يتعد هذا التمويل ٦٠ مليون دولار خلال ٥ سنوات كاملة سبقت ٢٥ يناير! ما يؤكد اتباع تلك المنظمات خطة ممنهجة لزعزعة الدولة المصرية خلال تلك الفترة، إلى أن وصل الإخوان في النهاية لسدة الحكم.

لم تنفرج ملامح الغضب على وجه "سمر"، وهي تنظر بسخط إلى "عادل"، إلا على صوت هاتفها لترد قبل دقائق من توجهها للطائرة، وتفاجأ بصوت "رانيا" يناشدها بأن تجعل لها مخرجًا من ورطتها مهما كان الثمن، باكية حالها البائس بعد عودتها إلى مصر، في ظل نظرات الاشمئزاز التي انهالت عليها من الجميع، فبمجرد وصولها مطار القاهرة — قبل يومين من ذكرى موت "عمر" - عادت للإقامة في مدينة نصر، حتى شاهدت بالصدفة برنامجًا حول تنحي حسني مبارك، وضحايا ذكراها الثانية — ومنهم "عمر" - لتجد ضالتها التي بحثت عنها منذ عودتها، وتقرر الذهاب لـ"سمر" في ليلة الرثاء الحزينة، إلا أن الأخيرة استقبلتها بحدة بالغة، قبل أن تطردها رافعة صوتها بمجرد رؤيتها للمذيعة على باب منزلها، قائلة: "بره يا حيوانة".

تلك المفاجأة لم تكن الأولى لـ"رانيا" في هذه الليلة، حيث فوجئت بثلاثة أشخاص يقفون بجانب سيارتها على بعد أمتار من منزل الطبيبة بشارع مصطفي النحاس، وينظرون إليها بغضب بالغ، قبل أن يخلعوا

أحذيتهم ويقذفوها في وجهها، ليصيب أحد الكعوب أنفها، وتُجبر على ارتداء النقاب مرة أخرى، بعدما اضطرت لارتدائه أول مرة، لإخفاء نفسها أثناء تقديمها العزاء في "عمر"، باعتباره ضحية للإخوان، ولا يصح أن تتواجد مذيعة "البصيرة" في عزائه!

كانت علاقة "رانيا" و"مجدى"، قد توطدت بمجرد أن وصل القيادي الإرهابي لهدفه المنشود داخل الفيللا، بعدما تجاوزت أنامله لباسها الداخلي أسفل ظهرها، ليعلم أنه وجد ضالته، فثمة ملجأ متسع في انتظاره، ليهبط ببطء على السجاد الفخيم لغرفة استقبال الفيللا، ويلقي بها أعلاه بادئًا في مداعبة رقبتها بشفتيه، ليرفع يدًا واحدة من بين يديه القابضتين أسفل خصرها، ويهم بنزع ردائها؛ ليرى نهديها أمامه كثمريّ تفاح في كامل نضجهما وبريقهما.

وقتها، لم يدم استلقاء ظهر "رانيا" على السجاد طويلًا، فسريعًا ما وجدت اللعوب نفسها في وضع مغاير بعد سيل من القبلات، التي استهدفت كامل أركانها، لينزع "مجدي" ما تبقى عليها من ملابس، قبل أن يقلب جسدها على جانبه الآخر، لتستلقي الفتاة على بطنها، ويبدأ الجهادي رحلته نحو ملاذه الشاذ، لترتفع آهات المذيعة ومن ثم صرخاتها، طالبة منه أن يرحمها من الحدة التي لم تر مثيلًا لها حتى يومها هذا، قبل أن تُعدل وضعيتها بخبرة الساقطات، ليجد "مجدي" لعوبًا خبيرة بين يديه، تساعده على إتمام ما تبقى من حفل الجنس المثير.

الجسدان الساخنان تبادلا التقلب في نحو ٢٠ وضعية طوال ساعتين، تخللتهما ١٥ دقيقة استراحة، جلس فيها "الجهادي" يلف سيجارته المفضلة من مخدر الحشيش، لتسأله الساقطة بصوت ملأته ضحكتها المارقة، قائلة: "مش حرام كده يا شيخ؟"، ويرد "مجدي" بضحكة ساخرة: "إذا كان حلالًا شربناه، وإذا كان حرامًا حرقناه!"، لتتعالى ضحكات اللعوب على الأغاني الشعبية الصاخبة، التي تبدأ سماعها عبر هاتفها المحمول، تزامنًا مع انطلاق حفلاتها الخاصة، قبل أن تشاركه شرب سيجارته، ومن ثم إكمال شهوته.

انتهى اللقاء الذي جرى بتلاحم تام حتى النهاية، حيث وضعت فيه "رانيا" كامل خبرتها في مناهج العلاقة الحميمية، لتسكن بين أحضان "مجدي"، متحدثة له عن أحلامها في مستقبل مشرق، تصير فيه أشهر مذيعة في الشرق الأوسط، قبل أن تسعى إلى مكسب جديد بعدما رأت جميع علامات الرضا في عين وصوت السياسي البارز، لتحدثه ضاحكة عن حلمها في التنقل من المعادي إلى مدينة نصر، الذي تزايد مع معرفتها به، حتى تصبح قريبة من فيللته في التجمع، ليؤكد لها "مجدي" أنه حصل مؤخرًا على شقة هدية من أحد رجال الأعمال، مبديًا استعداده لأن تسكن فيها رفيقة سريره، ليحررا عقد إيجار إذا راقتها الإقامة بها، وهو ما حدث، إذ خرجت "رانيا" من فيللا السياسي الجهادي، لتعود إليها بعد ٤ أيام، لكن انطلاقًا من شقتها الجديدة في مدينة نصر، عقب إخلائها شقتها بالمعادي.

ومع آلاف الدولارات التي تتقاضاها "المذيعة" من "البصيرة"، واستضافتها ضيوفًا يحصلون على مبالغ طائلة في الحلقة الواحدة، تشعبت علاقات "رانيا"، وحققت حلم السيارة الفارهة، وبات لها نفوذ في دوائر

السلطة بمساعدة مستشار الرئيس "مجدي"، إلى أن جمعت مئات الآلاف من الجنيهات في شهور قليلة، ساعدتها على تلبية باقي أحلامها، لتتعاقد على شاليه في أحد منتجعات العين السخنة، ويصبح وكرًا لحفلات مجونها خارج نطاق القاهرة، تذهب إليه كلما اصطادت زبونًا ثقيلًا راق لها في أي مكان، لتقضي فيه يومها وتعود إلى حيث جاءت، وكأن شيئًا لم يكن.

وقبل خروج المصريين في ٣٠ يونيو إلى الميادين، ليبهروا العالم، كانت المذيعة قد خرجت من دائرة الخطر، بعدما رأت مقر "البصيرة" الرئيسي في عاصمة الدويلة الصغيرة ملاذًا آمنًا لها، وهربت مع "مجدي" إلى هناك، حيث وجد الأخير تلك العاصمة مهربًا من تتبع أجهزة الأمن لقيادات التنظيمات الإرهابية، في ظل تيقنه خلال الأسابيع الأخيرة لحكم الأخوان، بأن نهاية الجماعة قد اقتربت، من خلال عدة دلائل، أهمها طبيعة المهام التي تكلفه بها قيادات مكتب الإرشاد، بعدما تغيرت لتخرج أهدافها عن نطاق قتل العسكريين، وتتحول إلى قتل كل من يعارض الجماعة، حيث قاتلت عناصر من مليشيات الفرقة الإرهابية المصريين المتظاهرين أمام قصر الاتحادية، عندما كتب التاريخ لأول مرة قتالًا بين أبناء الوطن الواحد، في صفحة دموية ارتوت من عروق شهداء المذبحة الإخوانية، ومنهم شهيد الصحافة الحسيني أبو ضيف.

انطلق الإرهابي والمذيعة إلى القُطر الصغير، بعد أن تركت "رانيا" سيارتها الفارهة وشقتها الفاخرة في القاهرة، عقب شهر واحد فقط من نقل الشقة إلى ملكيتها، بمقتضى عقد فاجأها "مجدي" بتحريره في إحدى الليالي الساخنة، لتضحك الدنيا للمذيعة مرة ثالثة، قبل أن تبتسم لها للمرة الرابعة

بمجرد وصولها الدويلة، فراتبها ارتفع إلى ١٥٠٠ دولار يوميًا، مقابل بيعها وطنها مصر على الشاشة، وإعطائها إشارات البدء للإرهابيين؛ كي ينفذوا جرائمهم الخسيسة، عن طريق كلمات قليلة تلقيها بين السطور، يمليها عليها "مجدي" بالاتفاق مع أعضاء فرقته الإرهابية، الذين يتابعون برامج "رانيا" فقط؛ لتكون من بين الشفرات: "ننتظر اليوم حادثًا هامًا للغاية"، و"يوم القصاص"، وبمجرد نطق المذيعة لكلمات مثل هذه، يعلم القتلة أن ساعة الصفر قد بدأت، ليحدث تفجير هنا أو تدمير هناك، ويسقط المصريون الأبرياء في دمائهم.

كان "القيادي المتطرف" يملي تلك الشفرات على أذن "رانيا"، بعد كل لقاء جنسي يجمعهما، بل ويبحثان معًا سبل الوصول إلى أقصى مراحل التحريض ضد مصر الثورة، وتزييف الحقائق، إلى أن حدث ما لم يتوقعه "مجدي"، لتعصف رياح غضبه بالمذيعة، التي وجدت نفسها فجأة في حرب شعواء، بعد أن تحالف ضدها كل منْ جمعته بها علاقة جنس في الدويلة الصغيرة، وهم كثيرون، إثر الصدمة الكبرى التي لحقت بهم، ليتكاتفوا مع المصدوم الأول "مجدي" حتى أطاحوا بها من القناة، وألقوها شبه عارية في شوارع المملكة، قبل أيام من عودتها لمصر، بخفي حنين، تاركة وراءها مئات الألوف من الدولارات بالدويلة الصغيرة، اقتنصها منها "القيادي المتطرف" قبل أن يرمي بها إلى الشارع.

***

# إلى آخر العمر

بمجرد صعودها إلى متن الطائرة في الثالثة عصرًا، وجلوسها بمقعدها، ألقت "سمر" برأسها على الكرسي بعد ربط الأحزمة، لتغمض عينيها بعد خمس دقائق مسترجعة مشاهد عام مضى بدون "عمر"، أو ٣٦٧ يومًا حملت لها مفاجآت عدة، منها اللقاء التاريخي الذي كانت سببًا فيه، لتجمع عاشقين فرّقهما الدهر طويلًا، وتعيش وسطهما في منزل بسيط بمدينة "براني"، تاركة استراحة أطباء مرسى مطروح، عقب ٣ أسابيع من لفظ "شيماء" أنفاسها، بعد أيام من قرار القعيد "حمزة" بفتح قلبه للطبيبة، في يوم تقديمه العزاء لها داخل المستشفى، إذ حدثها عن قصته، ساردًا حكاية حبه الخيالية، التي جمعته بفتاة تعمل في شركة ملابس عريقة بالقاهرة، عقب إنهائه خدمته العسكرية، وتركه مسقط رأسه في صحراء الساحل؛ للعمل في ذات الشركة.

يومها، خفض القعيد صوته قائلًا فى استحياء: ( من ٢٥ عامًا التقيت فتاة جميلة، كانت محل إعجاب جميع العاملين بالشركة، ليتسابقوا على خطبتها، إلا أن قصة حب لا تتكرر كانت في انتظارنا، لتجمعنا الأقدار، بعد أن بذلت كل ما في وسعي، كي ألفت نظرها لعشقي الصامت، إلى أن

جُرحت يدي من ماكينة للخياطة، لأفاجأ بها تركض نحوي، وفي عينيها نظرة لم أر مثيلًا لها على الإطلاق، تأكدت منها أن قلبي لم يخطئ في عشقها، وعلمت أن الماكينة أعطتني الفرصة لأكتب بداية عمر جديد من الحب، ولم أجد سبيلًا لأقول لها ما بداخلي، فنظرتها الحانية أفقدتني النطق، أما أنفاسي فألهبت صدري عشقًا لهواء فاتنتي الذي حاصرني، خاصة بعدما أمسكت يدي المجروحة، لأجد نفسي أسحبها من بين يديها، وأنزل بها على الطاولة، كاتبًا بدمائي كلمة "أحبك"، لتتهمني بالجنون، بينما تجري يداها الحانيتان؛ لتلتقط يدي وتوقف نزيف دمائي، إلى أن تمكنت؛ لتركض مبتعدة عني وفي عينيها نظرات استياء بالغة).

كانت الطبيبة تستمع لكلمات القعيد بعينين تتسعان مع انتهاء كل جملة، ليس انبهارًا بكلمات العجوز فقط، إذ طرأ شيء ما في ذهنها، بعدما تفوه القعيد بجملة: "شركة ملابس عريقة"، إلا أنها قررت ألا تقاطعه، متأملة كلماته التي مضى فيها متحديًا بريق الحب الذي احتل عينيه، قائلًا: (وفي اليوم الثاني لحادث الماكينة، فوجئت بالفتاة الرقيقة تقترب مني ناظرة إلى يدي، وكأنها تطمئن على الجرح، لأعلم أن نظراتنا المتبادلة من على طاولات ماكينات الخياطة، قد أصابت أهدافها في قلب كل منا، وبعد دقائق من جلوسها على الطاولة المجاورة، حُلت العقدة من لساني لأقول بصوت خافت، ذات الكلمة التي كتبتها بدمي في اليوم السابق، لترمقني "فاتن" بنظرة خجل لامعة، وأتجرأ وأطلب منها اللقاء خارج العمل، وقد كان، وبعد شهر من لقائنا الأول خارج الشركة، تركت القاهرة عائدًا إلى بلدتي لاستقدام أسرتي؛ استعدادًا لخطبتها).

لم يتمالك القعيد نفسه، عندما توقف عن الكلام بضع ثوانٍ، محاولًا شد أزر لسانه المتلعثم من الحنين لذكريات الماضي، والمتألم من الحديث عن اليوم المشئوم، الذي استيقظ فيه بدون ساقين، إلا أن "حمزة" أنهى صمته بنفس عميق، جمع فيه كل آلامه وأخرجها في زفرة واحدة، قبل أن يكمل حديثه قائلًا: "وفجأة أطاح اللغم بساقي، ومعها أحلامي، وبعد صمت طويل إثر صدمة فقد قدميّ، طالبت أخي بأن يخبر حبيبتي الفاتنة بموتي في حادث سيارة؛ حتى أتركها تُكمل حياتها بعيدًا عن شبح الإعاقة الذي حاصرني، فلم أتصور قط أنني سأستطيع تحمل أن تراني قعيدًا على كرسي متحرك، ومن وقتها لم أذهب للقاهرة، رغم كل الظروف التي كانت تحتم عليّ السفر إلى الوزارات والهيئات الحكومية؛ لإنهاء معاناة زملائي من ضحايا الألغام".

بدأت دموع "سمر" تنهمر ليزداد لمعان عينيها، فثمة قصة حب خيالية تتجمع خيوطها في ذهنها، لتسأل "حمزة" في إصرار: "ما اسم حبيبتك؟"، ليرد القعيد دون تفكير: "فاتن"، وقتها قفزت الطبيبة من أعلى كرسيها، لترفع صوتها تاركة دموعها تسير في مجرى خديها، قائلة: "مازالت فاتن تعيش على عهدك"، ليستقبل القعيد كلمات الطبيبة بحالة اندهاش بالغة، سائلًا إياها: "أتعرفينها؟"، لترد بثقة: "قصة عشقها لك، هي سر صبري على الدنيا بعد عمر"، وجاءت المفاجأة على "حمزة" كالصاعقة، ليفتح عينيه عن آخرهما كالمصدوم.

ومع خروج كلمات متضاربة من شفتي القعيد، كان غرضها السؤال عن حال عاشقته، وضعت "سمر" يديها على ذراعي كرسيه المتحرك، محاولة

اللحاق بدموعها خوفًا من أن تتساقط، وأجابت: (خطيب فاتن لم يمت في عيون الجميع، مات في عينيك وعينيها فقط، إلا أنها عاشت على ذكراه، واضعة خاتمًا في يدها اليسرى، معلنة الزواج به، لتختفي بعد شهور من وضع وسادة حول بطنها، وتعود مؤكدة إنجابها "أحمد"، ليناديها زملاؤها طوال هذه السنوات بـ"أم أحمد")، وما أن أنهت الطبيبة كلماتها، حتي تبدلت ملامح القعيد رأسًا على عقب، ليبدأ في التشديد على عدم سماحه للطبيبة بقول كلمة واحدة مما قاله لها، وأن تنسي كل ما دار بينهما للأبد، وألا تتحدث فيه حتى بينها وبين نفسها مرة أخرى، خاصة بعد أن علم أنها ابنة "كامل" فنان الشركة الأول، الذي عاشره طوال فترة عمله فيها.

لم تستجب "سمر" لنداءات القعيد بنسيان قصته، ليواصل "حمزة" حديثه في صمود محاولًا إحكام سيطرته على قلبه، الذي كاد يغادر صدره من هول المفاجأة، قائلًا: "لا أتحمل أن تراني هكذا في يوم من الأيام"، لترد "سمر" قائلة: "من تحملت كل هذا وفاءً لحبك، ستتحمل أي شيء بجوارك، فها هي قد تجاوزت الأربعين لتفتدي حبك بشبابها وأمومتها"، ليتلقى "حمزة" كلماتها واضعًا رأسه بين يديه، قائلًا: "الموت أهون من أن تعيش بجانبي هكذا"، وقتها خرجت من شفتي "سمر" الجملة التي كان ينتظرها القعيد منذ ٢٥ عامًا، قالت: "لقد أمتُّها بالفعل يوم أن وهبتها حياة بدونك"، ليبدأ القعيد في الإمساك بعجلتي كرسيه المتحرك، محاولًا الابتعاد عن الطبيبة، حتى وصل باب غرفة الأطباء، وهو يقول: "إياك أن تقولي أي شيء".

تركت "سمر" القعيد يذهب إلى حيث يشاء، منادية الممرضة "تماني" كي تساعده في الخروج من المستشفى، لتمسك بهاتفها سريعًا، وتُجري اتصالًا بوالدها، ساردة له بصوت مبتهج تفاصيل المفاجأة، التي كانت تنتظرها في مطروح، ليستقبل "كامل" حديثها بصدمة بالغة، دفعته إلى النداء بصوت مرتفع على "سلوى" التي حضرت مفزوعة، لتسمعه الابنة وهو يقول لوالدها: "خطيب أم أحمد لم يمت"، لتسأله الأخيرة مصدومة: "من قال هذا؟!"، ويرد زوجها قائلًا: "ابنتك معي على الهاتف، وكان حبيب فاتن بجوارها في المستشفى منذ دقائق"، لتلتقط الأم الهاتف وتسأل "سمر" بصوت متفاجئ: "أين هو؟"، وتجيب الابنة: "تركني خوفًا من أن أقول لأحد، لكنني أذكر مكان إقامته منذ أن ذهبت لمترله برفقة عمر".

أخبرت "سلوى" ابنتها بأنها ستكون في مطروح برفقة "كامل" و"فاتن" بعد أيام، لترد "سمر" قائلة: "لكنه قعيد بُترت قدماه في انفجار لغم، ولا يريد أن تراه فاتن على الكرسي المتحرك"، حينها ردت الأم بثقة: "هي تعشقه وإن كان عظامًا في قفة"، ومع سقوط دموع الأخيرة انتهت المكالمة، لتبدأ في التخطيط مع زوجها "كامل" حول كيفية إقناع "فاتن" بالذهاب إلى مطروح؛ ليؤكد أنهما إذا قالا للأخيرة أن "سمر" تعاني من وعكة صحية خطيرة، فسوف ترافقهما إلى هناك، خاصة أنها تعتبرها ابنة لها.

وبالفعل، اتصلت "سلوى" سريعًا بـــ"أم أحمد"؛ لتؤكد لها أن ابنتها ترقد على فراش المرض في مستشفى مرسى مطروح، وأن عليها الذهاب برفقة "كامل" إلى هناك سريعًا؛ كي يطمئنوا عليها، لتصدق نبوءة الأم،

بعدما وجدت "فاتن" تصر على الذهاب معهما إلى مطروح، للاطمئنان على الطبيبة، لتتفق معها "سلوى" على الانطلاق في السابعة من صباح اليوم التالي، وتنهي معها المكالمة، وتتحدث سريعًا إلى ابنتها، لتبشرها بأن موعد لقاء العاشقين قد اقترب.

في الثانية ظهرًا، كانت السيارة التي دبرها "كامل" للسفر في الليلة الماضية، تقف أمام مستشفى "براني"، بعد أن اتفقت الابنة مع أبيها على اللقاء هناك، لتغادر مستشفى مرسى مطروح صباحًا إلى مدينة "حمزة"، وتجلس مع صديقة لها بالمستشفى حتى قدوم والديها و"فاتن"، إلى أن جاءت لحظة اللقاء، لتخرج "سمر" نحو أبيها الذي كان يجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق، بينما "سلوى" و"فاتن" في المقعد الخلفي، يسرعان كي يفتحا الأبواب لمصافحة الابنة، وسط علامات قلق شديدة تسيطر على ملامح "أم أحمد"، إلا أنها اطمأنت بمجرد رؤيتها "سمر" في حال جيدة، لتقترب الأخيرة منها، مؤكدة أن حالتها قد تحسنت بمرور ساعات الليل، بعد أن اشتبه الأطباء في إصابتها بفيروس خطير، لتعانقها "فاتن" بحرارة بالغة، حامدة الله على سلامتها وشفائها العاجل، وما أن انتهت المصافحة الحارة حتي استقلت الطبيبة السيارة بجوار أمها ومربيتها، موجهة السائق للاتجاه نحو استراحة الأطباء، بأن يسلك الشارع الممتد من المستشفى حتى التل المرتفع الموازي لشاطئ البحر، على بُعد مسافة قصيرة، خاصة أن منزل "القعيد" كان قد ارتبط في ذهن "سمر" بالاستراحة، بعدما أشار الأخير إلى مبناها خلال تناوله الشاي مع الطبيبة وحبيبها في فناء منزله، بعد أن عادوا من الشاطئ، عقب سماعه كلمة "بحبك"، التي صرخ بها "عمر" يوم تعانقهما على البحر.

بعد دقائق، كانت "سمر" تترل من السيارة أمام استراحة الأطباء، وتخطو نحو مترل "القعيد" في ثبات، لتطرق أبوابه الخشبية بهدوء، وتزيد من طرقاتها في انتظار لقاء تاريخي مرتقب بين العاشقين، فلا تعلم طارقة الباب هول مشاهد التلاقي، التي تخفيها اللحظات القادمة، أو حتى نهاية هذه المشاهد، إلا أن اليأس الشديد أصابها مع عدم وجود مجيب لطرقها، لتلتفت إلى الوراء، وترى بداية المشهد الذي طال انتظاره، فها هو "حمزة" يترله سائق من سيارة على كرسيه المتحرك، إلى جوار نافذة السيارة التي تستقلها "فاتن"، لتنظر من خلالها إلى ملامح القعيد العجوز، بعين تتأمل ملامحه وتلمع رويدًا رويدًا، فهي تعلم جيدًا أنها في مدينة حبيبها الراحل، التي حكى عنها الكثير خلال أيام عشقهما القليلة في القاهرة.

سرعان ما ركضت "سمر" نحو "حمزة" لتقبض بيدها – دون استئذان – على مقبضي الكرسي المتحرك، وتدفعه إلى الأمام بخطوة واحدة، ليجد القعيد امرأة لم تختف من وجهها ملامح "فاتن"، بينما الحبيبة المتفاجئة تحرك رأسها يمينًا ويسارًا غير مستوعبة المشهد، فلم تتخيل أنها سترى ذات الرسمة المميزة لوجه حبيبها "حمزة" مرة أخرى، مهما طال بها العمر، ليرفع "كامل" صوته ناظرًا إلى النافذة التي تطل منها "أم أحمد" على القعيد، قائلا: "هو يا فاتن"، في ذات اللحظة التي قالت فيها "سمر"، وهي تمسك بقبضتي الكرسي المتحرك: "فاتن أمامك يا عم حمزة"، ليدفع القعيد نفسه من الكرسي في اتجاه النافذة، وتطلق "فاتن" صرخة وهي تراه يتهاوى إلى الأرض، متشبثًا بيده أعلى السيارة، لتلتقطه الطبيبة التي تحركت سريعًا في نصف دائرة لإنقاذه، إلى أن نجحت في تثبيته أعلى الكرسي من جديد.

وبينما كانت الحبيبة المصدومة تحاول فتح الباب، أبعدت "سمر" الكرسي المتحرك خطوة إلى الوراء، أما القعيد فغطى عينيه بكفي يديه، محاولًا وقف بركان الدموع الذي انفجر بمجرد رؤية "فاتن" أمامه، لتنزل الأخيرة من السيارة وتصل لكرسي حبيبها في خطوة واحدة، وتمسك بيديه وتبعدهما عن عينيه سريعًا، قبل أن تنزل بركبتيها على الأرض، صارخة بصوت عالٍ: "ليه يا حمزة، ليه تحرمني منك؟!"، ليحرك القعيد شفتيه محاولًا النطق، بلا جدوى، لتزيد "فاتن" من صراخها المصحوب بعاصفة من العويل مكررة: "ليه، ليه، ليه"، إلى أن استعاد "حمزة" لسانه، ليقول بصوت حمل كل أوجاع الزمن: "حتى لا تجديني عاجزًا على كرسي"، لترد الحبيبة بكلمات متقطعة: "حرام عليك، أنا عشت العمر بموت من فراقك"، وما أن أكملت الأخيرة كلماها، حتى وجدت "كامل" و"سلوى" يحاولان رفعها من الأرض وتهدئتها، ليرفع "حمزة" صوته محاولًا إنهاء صراخها، قائلًا: "عشت وحيدًا قعيدًا على أمل لقائك في الجنة"، لتزيد الحبيبة المصدومة من صرخاها، متسائلة بصوت هزمه الضعف: "وليه أعيش الدنيا من غيرك؟".

وقتها، التف المارة بالشارع حول الكرسي المتحرك؛ ليكونوا دائرة كانت تتسع مع تعالي صرخات "فاتن"، إلى أن استطاعت "سلوى" شد الحبيبة المصدومة لتلقي بظهرها على جانب السيارة، محاولة تهدئتها من انهيارها، حتى سقطت بين يدي الأم في إغماءة، لتركض "سمر" نحو "فاتن" محاولة إفاقتها، في الوقت الذي وجد فيه "كامل" نفسه في موقف شديد الصعوبة، ليقرر إنهاءه بأي طريقة، عندها أمر زوجته وابنته بحمل المغشي عليها وإدخالها إلى السيارة، مطالبًا من حوله في الدائرة المتسعة بالانصراف،

وممسكًا بقبضتي الكرسي المتحرك، متجهًا نحو منزل "حمزة" ليفتح الأخير الباب الخشبي ويدخل إلى الفناء الصغير، ويعود الأب سريعًا إلى خارج المنزل، حتى يطمئن على الحبيبة المنهارة، ليصل إلى السيارة ويجدها قد أفاقت من الإغماءة وعادت إلى نحيبها، وسط محاولات لتهدئتها من "سلوى" و"سمر"، إلا أن الأخيرة تركت السيارة بمجرد وصول والدها، راكضة نحو منزل "حمزة"، لتجد الرجل في حالة بكاء هيستيرية تكاد تلقي به من كرسيه، لتربت الطبيبة على كتفيه طالبة منه الهدوء، حتى يجدا نهاية لهذا المشهد المأساوي، ليرفع القعيد صوته الباكي قائلًا: "اخرجي واسألي فاتن سؤالًا واحدًا، هل تقبل زواجي؟!".

استقبلت الطبيبة السؤال بملامح مصدومة احتلتها السعادة، لترسم ابتسامة على وجهها قبل أن تتحرك في اتجاه الباب، تاركة القعيد بخطوات سريعة نحو السيارة، إلى أن وصلت للباب المجاور لـــ"فاتن"، التي ما زالت تحت تأثير الصدمة، لتسألها – عبر النافذة – بضحكة أمل، قائلة: "هل تقبلين حمزة زوجًا لك؟"، وسط نظرات متفاجئة من "كامل" و"سلوى"، ليعم الصمت أرجاء العربة، خاصة مع عدم نطق متلقية السؤال كلمة واحدة، لتكمل "سمر" كلامها قائلة: "الرجل عاش ٢٥ عامًا يخشى رؤيتك له على كرسي متحرك، وقد حدث ما خشيه، فلا داعي لتعذيبه أكثر من ذلك"، وقتها رفعت "أم أحمد" صوتها: "هو زوجي أمام الناس طوال تلك السنوات، لو علم كل شيء، ما سأل هذا السؤال"، لترد الطبيبة: "حكيت له كل شيء، لكنه يريد منك إجابة عن سؤاله بعد أن رأيته هكذا"، وتجاوب "فاتن" بصوت ضعيف لكن بثقة بالغة، قائلة: "قولي له زوجتك تنتظرك في السيارة!".

لم تستغرق "سمر" لحظات حتى كانت أمام "القعيد"، تومئ برأسها أمام نظراته البائسة في علامة على قبول "فاتن" زواجه، رافعة صوتها بضحكة تتحدى الدموع المتساقطة من عينيها، قائلة: "مبروك يا عريس"، لتنفرج ملامح "حمزة" الذي شعر بأن العمر يعود به ربع قرن إلى الوراء، ويقبض بيديه على عجلتي الكرسي، مهرولًا نحو الباب، إلى أن أمسكت الطبيبة بقبضتي كرسيه، لتوصله إلى جوار نافذة "فاتن"، التي لم تفق من نوبة بكائها وصدمتها، ليفتح حبيبها باب السيارة بيد واحدة، بينما يده الثانية تعود بالكرسي خطوة للوراء.

وقتها، رفعت "فاتن" صوتها بحنان، قائلة: "أنت زوجي أمام الناس منذ ٢٥ عامًا، فكيف تسأل هذا السؤال؟"، ليجيب حبيبها بنظراته المثبتة على عينيها، قائلًا: "الناس يعلمون أن زوجك سليم، لا يعيش على كرسي متحرك"، لتعود الحبيبة إلى نبرتها الغاضبة، قائلة: "كان يمكن أن يحدث ذلك بعد زواجنا، ووقتها كنت سأكمل حياتي بجوارك، صابرة على ما أصابك"، ليرد القعيد بنفس الكلمة التي كتبها بدمائه قبل سنوات وحبيبته تضمد له جرحه، قائلًا: "بحبك"، وتستقبل "فاتن" كلمته بتنهيدة سعادة بالغة قائلة: "حرمتني منها طوال هذه السنوات"، عندها تفوه حبيبها بجملة واحدة، جاءت كعاصفة الأمل على مستقلّي السيارة، قال: "مازال في العمر بقية"، ليبدأ في مد يده نحو خد "فاتن" مجففًا الدمع، الذي يجري عليها كالشلال، قبل أن يقول: "هل أتصل بأهلك؟!"، لترد الحبيبة بثبات، قائلة: "أخي الأكبر لحق بأبي وأمي منذ ١٠ سنوات، والآن لم يعد لي سواك".

استقبل "حمزة" كلمات حبيبته موجهًا عينيه نحو "كامل"، ليقول بسعادة بالغة: "اليوم وبعد ٢٥ عامًا من وداعي لك، أدعوك إلى زفافي الليلة"، لترفع "سلوى" و"سمر" والسائق أصواهم في آنٍ واحد، قائلين: "ألف مبروك"، بينما كانت "فاتن" تحاول الإفاقة من صدماها المتتالية، لترفع رأسها ناظرة لـ"كامل"، عندما قال محاولًا إفاقتها: "مبروك يا عروسة"، عندها حرّكت الحبيبة رأسها يمينًا ويسارًا، قائلة بسعادة تحاصرها الدموع: "الله يبارك فيكم"، ليدعوهم "حمزة" إلى مترله، قائلًا: "دعونا ندخل، أمامنا الكثير لنفعله"، أما "فاتن" فترلت من السيارة برشاقة الفتاة العشرينية، ممطرة حبيبها بنظرات معاتبة وحانية في ذات اللحظة، قبل أن تلتف حول كرسيه، لتمسك بقبضتيه لأول مرة، متوجهة نحو باب عش زواجها الهادئ، ليلحق بها "كامل" وزوجته وابنته سريعًا، بعد أن قال الأب للسائق: "لا تقلق.. سنعود الليلة".

وبعد أذان المغرب، كان "كامل" وأكبر شيوخ قبائل "براني" يشهدان على عقد قران "حمزة" و"فاتن"، ليبدأ نحو ٣٠ شخصًا توافدوا على مترل القعيد بعد دعوته لهم، في ترديد الأغاني البدوية، على رقصات البادية، بينما كانت "سلوى" وابنتها تتابعان المشهد التاريخي؛ بدموع تنهمر من أعينهما لتزيد ابتسامامما لمعانًا، قبل أن ينادي "كامل" عليهما، معلنًا قدوم موعد الرحيل، ليتصافح الجميع وسط سيل من التهاني الحارة، ويسير القادمون من القاهرة ومرسى مطروح إلى السيارة، تاركين "فاتن" بين يدي حبيبها، لتقرر "سمر" في الطريق استئناف الرحلة مع والديها حتى مدينة نصر.

وبعد أسبوع، قضته "سمر" في صومعتها تبكي على وسادة "عمر" طوال ساعات اليوم، إلى أن تحضر صديقة طفولتها "منى"؛ لتجلس معها حتى المساء، لتنهي الحبيبة الثكلى يومها بنصف ساعتها المقدسة، في شرفتها ناظرة إلى شجرة الذكريات، حتى عادت الطبيبة إلى عملها في مطروح، لتفاجأ في اليوم التالي، بكرسي "حمزة" يدخل غرفتها ووراءه "فاتن"، لتحتضن الأخيرة الفتاة بشدة، ويرفع القعيد صوته قائلًا: "حضّري نفسك يا دكتورة، نحتاجك معنا في براني". لترد الطبيبة بصوت متفاجئ: "لكن عملي هنا في مرسى مطروح!"، عندها قال "حمزة" في ثقة: "سأفعل اللازم"، وهو ما حدث.

استطاع القعيد بحكم علاقته الوثيقة بمسئولي مديرية الصحة، أن ينقل عمل الطبيبة خلال أيام إلى مدينته، لتعيش "سمر" بين "حمزة" و"فاتن" طوال ٨ أشهر، قضتها تقدم خدماتها لضحايا الألغام، وتجلس ساعتين يوميًا في ذات المكان، الذي قبلها فيه "عمر" للمرة الأولى والأخيرة، لتستعيد ذكرياتها، وهي ترى ملامح حبيبها بين الأمواج المتسارعة على شاطئ البحر، إلى أن نجحت محاولات والدها في نقلها لأحد مستشفيات القاهرة بأعجوبة، بعدما أبدت إحدى زبائن شركته - التي التقاها مصادفة أثناء زياراته القليلة إلى مقرها - استعدادها لنقل ابنته من مطروح، بعد أن علم أنها زوجة مسئول مهم في وزارة الصحة، وقد كان، حيث عادت "سمر" إلى حضن والديها في النصف الأول من يناير، قبل شهر واحد من ذكرى استشهاد "عمر".

# الشتاء الأخير

بعد ٥٥ دقيقة، وصلت الطائرة إلى وجهتها بالصحراء في الرابعة عصراً، لتطأ قدما "سمر" أرض سانت كاترين للمرة الثانية في عمرها، وتبدأ رحلتها الخيالية بالمدينة السياحية، التي بدأت في نفس الموعد قبل عامين، وتحديدًا في ١٣ فبراير ٢٠١٢، عندما وصلت برفقة "عمر" إلى ذات المكان، لكن عن طريق البر، في رحلة استغرقت ٦ ساعات، قضيا نصفها يتحدثان في أمور عدة، حيث سردت الفتاة الحسناء بعضًا من مشاهد طفولتها، ومنها مشهد الشجرة التي أنقذها فيه صديقتها "منى" من الموت، أما "الجيولوجى" فتحدث عن طفولته، وشغفه منذ نعومة أظافره بمعرفة أسرار الكون، قبل أن يجد "عمر" من نصف الطريق الطويل المتبقي فرصة؛ كي ينزع فتيل الأشواق التي تلهب قلبه، لتنفجر بحدة في وجه مرافقته بالرحلة، الجالسة بجواره في الأتوبيس السياحي، ويشع الاحمرار من وجنتيها، وهي تسمعه مبديًا إعجابه بها، ورغبته في التقرب إليها باعتبارها نصفه الآخر، الذي ظل يبحث عنه طويلًا، لتظل الحبيبة صامته ما تبقى من الطريق، مغمضة عينيها على لمعة لن ينساها العاشق، حتي يراها مرة ثانية قبل ثوانٍ من لفظ أنفاسه الأخيرة.

وبعد وصول الحبيبين إلى سانت كاترين، وارتدائهما ملابسهما الثقيلة والقفازات وسط نظرات حانية جمعت عيونهما كثيرًا، بدأ "عمر" يحدثها عن سر شغفه بالمكان، الذي بدأ فيه العمل بمواقع شركته الأولى، والمشاهد الطبيعية الرائعة التي تنتظرها بين الجبال، وبمرور ساعات قليلة على الجالسين أسفل الجبل، غادرا الإستراحة؛ ليبدآ رحلة صعودهما في العاشرة والنصف مساءً - بصحبة أفراد الرحلة - إلى جبل موسى، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٤٣٥ مترًا، حيث رافقهم دليل من البدو يحفظ ثنايا الجبل عن ظهر قلب.

سار الحبيبان في طريق طويل، بين فراغ شاسع يبدأ من بوابات الأمن وحتى بداية المدق الجبلي، أول نقاط رحلة الصعود، وسط حالة من الذعر انتابت "سمر" في ظل الظلام الدامس، الذي يحيط بالمنطقة، بعد أن باتت غير قادرة على رؤية أي شيء، حتى كف يدها، وهو ما تغلب عليه أفراد الرحلة بإضاءة البطاريات الضوئية الصغيرة، في بداية مدق الجبل، ليبدأوا أولى خطواتهم نحو صعوده في الثانية عشرة صباحاً، حتى يكونوا على قمته مع شروق شمس يوم عيد الحب العالمي.

وفي طريق صغير تملؤه الصخور، صعد الحبيبان إلى أول استراحة بالجبل، بعد نصف ساعة من القفز على الحجارة، إلا أن هذا الطريق كان كفيلًا بأن يكتب أول تعانق بين يدى "عمر" و"سمر"، بعيدًا عن المصافحات، عندما كادت الأخيرة تسقط على الأرض، بعد تعثر قدميها بصخرة صغيرة، ليلتقطها "الجيولوجى" بيده، وتبدأ نظرة أبدية جديدة بين

الحبيبين، على أضواء الكشافات، ظل فيها العاشق ممسكًا بيد حبيبته عدة لحظات، إلى أن أفاق على صوتها، قائلة بابتسامة ظللتها الأضواء الخافتة: "متقلقش أنا كويسة"، لترسم ملامح الأشواق وجه الحبيب المبتسم، ويكملا خطواتهما وصولاً إلى الاستراحة الثانية، ليقضيا ١٥ دقيقة، شربا فيها الشاي حتى يشعرا بالدفء وسط البرودة الشديدة، التي حاصرتهما منذ بلوغهما سانت كاترين، لتنخفض درجات الحرارة رويدًا رويدًا، حتى اقتربت من الصفر مع وصولهما الاستراحة الرابعة.

بعد هذه الاستراحة بأمتار معدودة، أصيبت "سمر" بحالة ذعر حقيقية، لتوقف خطواتها في المدق الصغير، الذي يتقلص مع الصعود، حتى اقترب من المتر قبل الاستراحة بقليل، لتجد الفتاة نفسها وسط فراغ كوني، تحده الصخور من يمينها، أما الجهة اليسرى فتركت للسُحب التي تسري فوق مدى مظلم شاسع، يصل فيه النظر من أعلى المدق، إلى سلاسل الجبال التي تبعد عدة كيلو مترات عن الحبيبين، ليشاهداها باللون الرمادي، وفي خلفيتها السماء المملوءة بالغيوم، كل هذا أصاب "سمر" بالذعر، خاصة بعد أن أصبحت غير قادرة على السير بجوار مرافقها في الطريق الضيق، لترى نفسها مهددة بالهلاك إذا سقطت إلى الجانب الأيسر، المنحدر من الأعلى حتى القاع، وفي لحظة واحدة كانت المذعورة ترمي بجسدها على الجبل في يمينها، لتلقي ظهرها عليه، وتقف محلها، مقررة ألا تخطو خطوة أخرى تجاه الصعود.

فوجئ "عمر" بثبات "سمر"؛ ليقف بجوارها، وتتوقف خطى باقي أفراد الرحلة وراءهما، بينما واصل الدليل البدوي السير بمجموعة سبقت الحبيبين

في اتجاة الاستراحة الخامسة، ولم تعدل الطبيبة عن قرارها إلا بموقف جنوني لـــ"الجيولوجي"، عندما أخذ يطمئنها – لبضع دقائق – أنه لا يوجد خطر، وأن الانحدار في المنطقة ليس شديدًا للدرجة التي تتخيلها، وأنه حتى لو تعثرت قدماها يسارًا لن تسقط إلى الهاوية، بل على عدة صخور، ستكون قادرة على العودة منها بخطى بسيطة للمدق.

ومع إصرار الفتاة على قرارها بعدم إكمال رحلتها، لم يجد الشاب أمامه سوى القفز من الجهة اليسرى للجبل، ليعلو صياح أفراد الرحلة، الذين كانوا يرون المشهد برؤية المستجد، مثلما تخيلته الطبيبة، وسرعان ما عاد "عمر" إلى أعلى المدق، وسط نظرات قلق بالغة من حبيبته، التي أفاقت على صوت تصفيق باقي المشاركين في الصعود، بعدما صاح العائد من المنحدر ضاحكاً: "اطمنوا يا جماعة، لو وقعتوا هترجعوا، الانحدار بسيط"، لترفع "سمر" صوتها بغضب بالغ، وفي عينيها نظرة قلق لم تنته، قائلة: "حراااام عليك"، أما "الجيولوجي" فقابل كلمتيها بجملة واحدة: "لا تقلقي، أنا موجود"، لتستكمل الطبيبة خطاها نحو القمة، بعدما شعرت بأمان تام، وهو ذات الأمان الذي شعر به نصف أفراد الرحلة، الذين رأوا العائد من المنحدر المظلم.

***

وبعد خطوات عديدة، لحق المتأخرون بباقي أفراد الرحلة في الاستراحة الخامسة، ليجلس الحبيبان على كرسيين خشبيين، في كوخ صغير بإضاءة خافتة، ويتناولا النسكافيه، بعد أن خلعا الحقائب عن ظهريهما، وأخرجا منها الكوفيات؛ كي يضعاها حول عنقيهما، لتقيهما من البرد القارس، خاصة أن يدي "سمر" تحولتا إلى عبء ثقيل بالنسبة لها، بعد أن أصبحت

غير قادرة على تحريكهما، من البرودة الشديدة، لتضع كوب النسكافيه بين كفيها، متشبثة بدفئه، عندها ترك "عمر" الكوب إلى جواره، ومد يده إلى حقيبته، مخرجًا غطاءً من الصوف، ليقربه نحو "سمر"، وتنظر إليه الأخيرة بثبات، وهو يرفع يديه في جراءة بالغة، واضعًا الغطاء حول رأسها، ليستغرق الحبيبان عدة لحظات في نظرة واحدة، كانت سلامًا لــ"عمر" من البرد، بعد أن ازداد لهيب أشواقه، ليشعر بالدفء في برودة ما تحت الصفر.

قطع الحبيب الجريء النظرة الأبدية، قائلًا بثبات: "النهارده أسعد يوم في حياتي"، لتسأله "سمر" بصوت حانٍ، وهي تحرك يديها حول الكوب الساخن بهدوء: "ليه النهارده بالذات؟"، ويجيب "عمر" قائلًا: "تعرضنا للخطر يوم حريق المستشفى، لكن النهارده حسيت بخوفك عليّ جدًا"، لترد الحبيبة في حماس: "إنت أصلًا مجنون"، وينظر لها العاشق بثبات قائلًا: "لو جنابي هيحسسك بأمان، هتجنن!"، وقتها زادت "سمر" من حركة الكوب بين يديها المرتبكتين، لتقول: "لا تلقِ نفسك في الخطر، مهما كانت الأسباب"، ليرد "عمر" في ذات الثبات: "لولا الخطر ما كنت قابلتك"، وما أن أنهى كلماته حتى أعلن مشرف الرحلة نهاية مدة الاستراحة، لترتسم ابتسامة خجولة على وجنتي "سمر"، وهي تحاول بصعوبة وضع الكوب بجوارها وارتداء حقيبة ظهرها من جديد، قبل أن تقول ضاحكة: "هيا بنا نلهو"، ليومئ "عمر" برأسه بعد ارتدائه حقيبته، مكررًا بضحكة عالية: "هيا بنا نلهو!".

وفي الثانية والنصف من صباح يوم "الفلانتين"، كانت أقدام الحبيبين تخطو في طريقها نحو القمة، وسط ظلام دامس تتخلله إضاءة الكشافات،

إلا أن "سمر" كانت تشعر بأمان بالغ، رغم أنها لم تر سوى قدميها، وهي تخطو متحاشية الصخور الصغيرة، بينما كان "عمر" يحدثها عن المشهد الخيالي، الذي ينتظرهما مع شروق الشمس أعلى القمة، وما أن سألته الفتاة عن المكان الذي تنبعث منه الإضاءة على مدى بعيد، حتى تعثرت قدماها، لتنقذها يد "عمر" للمرة الثانية، وتدخل أيديهما في ثاني عناق طويل، ساعد فيه الأخير معشوقته على اجتياز صخرة صغيرة، مسلطًا ضوء بطاريته أسفل قدميها، حتى انتهى العناق بإشارة من يد "الجيولوجي" إلى المكان المضيء، الذي يبعد عدة كيلومترات، ليؤكد للسائلة أنها بوابة الأمن التي عبراها قبل صعودهما الجبل، وهي الشيء الوحيد المضيء في ظلمة الصحراء الشاسعة.

وبعد ساعة من السير المتواصل، تخللتها ١٥ دقيقة في الاستراحة السادسة، وصل الحبيبان إلى المحطة السابعة في رحلتهما، التي تفصلها عن القمة منطقة الـ"٧٥٠ سلمة"، ليتناولا الشاي مرة أخرى، قبل أن يصعدا درج القمة، حيث فوجئ أفراد الرحلة بأن الدرج ليس عاديًا، بل سلالم صخرية غير متساوية عرضاً وارتفاعًا، مغطاة بطبقة من الجليد الناعم، اللامع كالزجاج، ليبدأ الفريق أخطر مراحل الصعود، وسط حالة من الفزع، أجبرت بعضًا منهم على التشبث في الدرج بيديه، خوفًا من أن يطيح الثليج بقدميه، ليتهاوى من أعلى القمة.

أضيفت إلى المشهد مخاطر أخرى، إذ لم يعد الجبل على يمين الصاعد، فالسلالم ممتدة بين جانبين مظلمين، ليزداد فزع نصف الفريق الآخر، الذي

سبق "عمر" و"سمر" بصحبة الدليل البدوي إلى الاستراحة الخامسة، بعدما رأى الدرج كأنه الصراط بين انحدارين مميتين، أو حبل عالق في الهواء، ليصاب بعض أفراد الفريق بحالة خوف هيستيرية، كادت تتحول إلى إغماءات، لولا أن طمأن "عمر" – وفريقه من المتأخرين عن الاستراحة الخامسة – باقي أفراد الرحلة، بأن الانحدار ليس شديدًا كما يرون، وأن عليهم الثبات حتى اجتياز الـ٦٥٠ سلمة الأولى؛ ليصلوا إلى استراحة "القمة"، التي تفصلها عن أعلى نقطة في الجبل ١٠٠ درجة أخرى.

وفي الرابعة والنصف، وصل أفراد الرحلة إلى الاستراحة الأخيرة، التي تملأها البطاطين، حيث تُؤجر للزوار لوقايتهم من الطقس الثليجي، ليبدأ "عمر" في جذب أطراف الحديث مرة أخرى مع "سمر"، متحدثًا عن يومه الذي لم يعش مثيلًا في سعادته من قبل، لتبتسم حبيبته برقة زادت من سحر وجنتيها، قائلة: "يارب تعيش كل أيامك في سعادة"، ليعود "عمر" إلى جراءته، قائلًا بإصرار: "سأعيش بسعادة، إذا عشت معك"، وتتسع عينا الحبيبة قبل أن ترد بصوت خافت: "قلت، أنت أصلًا مجنون"، ليقابل "عمر" كلماتها برد ثابت: "فعلًا، من لقائي الأول بك، أصابني الجنون"، ومع بدء الخجولة المتفاجئة في الرد على كلمات "الجيولوجي"، فوجئ الأخير بسؤال يوجه إليه من أحد أفراد الرحلة.

كان مرافقو الحبيبين في الرحلة قد جلسوا على الكراسي الخشبية المجاورة لهما، يتحدثون عن رحلة النزول المرتقبة بعد ساعتين، ويؤكدون أنهم لا يتصورون رؤيتهم لهول مشهد انحدار الجبل من هذا الارتفاع الشاهق، خاصة أنهم صعدوا إليه في الظلام الدامس، فسأل أحدهم "عمر":

"كيف سيكون حالنا أثناء النزول؟"، ليعاود "الجيولوجي" طمأنة الجالسين، مؤكدًا أن النزول سيكون أسهل بكثير من الصعود، بعد تيقنهم مع شروق الشمس بأن الانحدار ليس شديدًا، هو فقط غير ممهد للسير، لكن السائر عليه يكون في أمان.

وبعد طمأنة "الجيولوجي" لأفراد رحلته، انطلقوا جميعًا نحو الـــ ١٠٠ سلمة المتبقية، ليصعدوها بسهولة بالغة، حتى أصبحوا على القمة في الخامسة والربع صباحًا، حيث دير سانت كاترين، وسط حرارة تقل عن الصفر بأربع درجات، تحت النجوم التي ملأت السماء في لوحة ساحرة من إبداع الخالق، وبين الثليج الذي حاصر القمة بكثافة، ليقف الحبيبان يتأملان روعة المشهد الخيالي لدقائق، ويتبادلان نظرات الانبهار بالألوان، التي تُرسم في السماء لحظة بعد الأخرى، لتزين السحب الصافية، إلى أن ظهر الشفق الأحمر جهة الشرق، لتبدأ لحظة الشروق الأولى وسط تصفيق وصياح حاد من أفراد الرحلة، والمشاركين في رحلات أخرى وصلت لتوها إلى القمة، لتخترق أشعة الشمس السحاب، وتلامس قمة الجبل، وتُشع الفرحة دفئًا وسط الثليج، لينسى المشاهدون لروعة الشروق البرد القارس الذي يحاصرهم.

مع شروق شمس يوم "الفلانتين"، وقف "عمر" بجانب "سمر" يشير لها إلى القمم المحيطة بجبل موسى، متحدثًا عن اللوحات الفنية التي ظلت الأمطار ترسمها منذ بدء الخليقة، لتنحت في الصخر مزينة الصحراء برسوم ساحرة، يراها كل متأمل لتجوفات الجبال الشاهقة، إلا أن حديث "الجيولوجي" عن الطبيعة لم يدم طويلًا، بعد أن رفع يده إلى مستوى كتف

حبيبته، مقوساً سبابته في الأعلى، وتاركًا إبهامه بالأسفل، على شكل نصف قلب، لينظر بعينيه الثاقبتين إلى "سمر"، سائلًا إياها: "هل تقبلي رسم النصف الآخر بأصابعك"، عندها صمتت الفتاة الحسناء قليلًا، ليخرج صوتها في خجل ظهر على كلماتها، قائلة: "إذا عاهدتني بالحفاظ على القلب الواحد"، لتطغى سعادة بالغة على وجه "عمر"، قبل أن يرفع صوته معاهدًا أن يحفظ هذا القلب حتى آخر العمر، أما الحبيبة فاستقبلت كلماته برفع يدها في اتجاه يده، ليكملا القلب، ويدخلا في نظرة لم تنقطع، حتى بعدما أمسك الحبيب هاتفه بيده الثانية، ليلتقط أول صورة تجمع يديهما، راسمتين قلبًا مفرغًا، اختلطت بداخله أشعة الشمس بقمم الجبال الشاهقة، معلنة بداية حب جديد من أعلى قمم مصر.

لم يستغرق الحبيبان وقتًا طويلًا أعلى القمة، إذ التقطا مع أفراد الرحلة عدة صور، قبل أن يبلغهم "عمر" برغبته في النزول بصحبة مرافقته، لينتظراهم في مكان التجمع عند الثانية مساءً، أملًا في أن يبدأ مع حبيبته ٨ ساعات تاريخية، في منطقته الخيالية وسط جبال سانت كاترين، ليخطو سريعًا برفقة "سمر" نحو الـ ١٠٠ سلمة، ومن بعدها الـ ٦٥٠ درجة الباقية، قبل أن تفاجأ الحبيبة بعاشقها يتجه نحو الجمال المصطفة على جانبي الطريق، ويطالبها بالاستعداد للصعود على ظهر أحدها، حتى يعودا إلى سفح الجبل سريعًا، وبعد جدل طويل، وافقت "سمر" على ركوب الجمل، لتقضي ساعة حالمة بين التلال والهضاب الصغيرة في المدق الصخري الصغير، وبجانبها حبيبها على جمل ثانٍ، يتمايل جسدهما معًا للأمام والخلف، مع ابتسامات صافية رسمت بملامحهما بداية لقصة عشقهما الأبدي.

***

## العشق الأبدي

في الثامنة من مساء ١٣ فبراير ٢٠١٤، ثاني أيام الذكرى الثانية للفراق، كانت "سمر" تجلس وسط جبال سانت كاترين، في انتظار قدوم أفراد رحلة انطلقت برًا من القاهرة، بعدما اتفقت مع منظمها على الاشتراك فيها، إلا أنها فضلت أن تسبق أتوبيس الرحلة بالطائرة، لعدم تحملها طول الطريق دون "عمر"، حيث تفرغت الطبيبة بعد أسبوعين من عودتها من مرسى مطروح، للبحث عن منظمي رحلات السفاري الصحراوية بين جبال سيناء، حتى تجدد ذكرياتها هناك، إلى أن وجدت إعلانًا على "فيس بوك" لرحلات تتضمن برامجها بجانب صعود قمة جبل موسى، جولة في وادي الجبال بسانت كاترين، لتشترك في الرحلة المتزامنة مع عيد الحب دون تردد؛ كي تعيش لحظة انطلاق قصة عشقها في ذات مكان ميلادها.

وما أن وصل أتوبيس الرحلة إلى سانت كاترين، حتى انضمت إليهم "سمر"، لتشاركهم صعود جبل موسى للمرة الثانية، متذكرة في كل خطوة، خطى "عمر" التي رافقت قدميها إلى القمة قبل عامين، لترى ذات الفزع الذي ارتسم على وجهها في رحلتها الأولى، جليًا على وجوه أفراد الرحلة

الجديدة، وتقضي ساعات التسلق في لعب نفس دور حبيبها "الجيولوجي" لطمأنة أفراد الرحلة المذعورين، محاولة قدر الإمكان إيقاف بركان الدموع، الذي تتناثر حممه بين أجفانها، بعد أن جاء موعد نصف الساعة المقدس قبل وصولها للاستراحة الأولي، لتُمسك بهاتفها المحمول، وتسمع كلمات "عمر" عبر سماعة الأذن، وتتسارع دموعها مع المقطع الثاني لأغنية حبيبها المفضلة، عندما تغنى بإحساس منقطع النظير، قائلًا: "كل شيء حولي يذكرني بشي، حتى صوتي وضحكتي لك فيها شي، لو تغيب الدنيا عمرك ما تغيب، شوف حالي آه من تطري علي".

ومع انتهاء المقطع الصوتي، وصلت "سمر" إلى الاستراحة الأولي، لتسيطر بصعوبة على دموعها، بعدما لاحظ مرافقوها غرقها في بحر البكاء، لتجلس في كل استراحة ذات الوقت الذي قضته مع عاشقها فى مثل هذا اليوم، إلا أن أمواج ذلك البحر عادت بقوة إلى عيني الحبيبة الثكلى، عندما وصلت إلى المنطقة الواقعة بين الاستراحتين الرابعة والخامسة، في نفس المكان الذي أقدم فيه حبيبها على فعله الجنوني، لتتمالك نفسها سريعًا وتمضي في الطريق الصخري، تُطمئن مصاحبيها فى الرحلة، بذات الكلمات التي قالها "عمر" عن الانحدار البسيط للجبل، حتى وصلت إلى القمة، لترى الشبق الأحمر في السماء، قبل أن ترسم بأنامل يديها في لحظة الشروق، ذات القلب الذي شاركت "عمر" رسمه على القمة نفسها، في عيد الحب لعام ٢٠١٢.

وبعد انتهاء الوقت المخصص لأفراد الرحلة أعلى قمة جبل موسى، بدأ الفريق في نزول الـــ ٧٥٠ سلمة، وبعدها طلبت منهم "سمر" أن تسبقهم

إلى السفح عن طريق الجمال، لتقضي ساعة حب أبدية، جلست فيها أعلى الجمل، تتذكر مع كل حركة لها للأمام والخلف، تحركات "عمر" بجانبها أثناء نزولهما من الجبل قبل عامين، وحديثه خلالها حول الإحساس الذي راوده منذ اليوم الأول للقائهما، عندما وجد ثمة رابط بين اسميهما، فحرف واحد يفصل بين "عمر" و"سمر"، وقتها ضحكت الأخيرة قائلة: "فكرت في ذلك، اليوم الأول أيضًا"، لترتسم ضحكة ظلت على وجنتي الحبيبين حتى وصولهما إلى سفح الجبل، ليبدآ رحلة جديدة إلى المكان الخيالي الذي يعشقه "الجيولوجي".

وبمجرد وصول "سمر" – في الثامنة صباح ١٤ فبراير ٢٠١٤ – إلى الدير الصغير الواقع أسفل الجبل، تلقت هاتفًا ثانيًا من "رانيا"، تعيد فيه الأخيرة ما قالته للطبيبة في مكالمة أمس، وتضيف عليه نبأ آخر، إذ أكدت المذيعة أن شخصًا تقدم لزواجها، قبل أن تطالبها بأن تبحث لها عن حل طبي يقي زوجها المنتظر من خطرها، خاصة أن الواقي الذكري لن يكفي لحمايته مما أصابها، والذي لا يعلم عنه شيئًا، عندها رفعت "سمر" صوتها بغضب بالغ، سائلة "رانيا": "وهل ستبدئين حياتك معه على غش؟"، لترد المذيعة قائلة: "الأهم أن نسعد بحياتنا دون منغصات"، لتنهي الفتاة المتفاجئة المكالمة، بعد تأكيدها على عدم اشتراكها في تلك المهزلة، محذرة المذيعة من الاتصال بها مرة أخرى، قبل أن تغلق الخط سريعًا في وجهها.

قبل أسبوع من قدومها إلى مصر، كانت "رانيا" قد فوجئت بـــ"مجدي" يوقظها من نومها الهادئ على سريرها المستفيض، بالعقار الجديد الذي

انتقلت إليه مؤخرًا بصحبته في الدويلة المنبوذة، ليجذبها من يدها سريعًا، مطالبًا إياها بأن ترتدي ملابسها، كي يذهبا إلى موعد هام للغاية، سوف يحدد مصيرهما، وبالفعل ركضت المذيعة أملًا في أن تعود من هذا الموعد بمكسب جديد، خاصة بعدما جنت مئات الألوف خلال شهور عديدة، قضتها بجانب القيادي الإرهابي في القُطر الصغير، يتفقان فيها على شفرات بدء العمليات الإرهابية.

في تلك الشهور، تفرغ "مجدي" للإشراف على الجماعات المتطرفة، التي استغلت التضاريس الوعرة بشمال سيناء، لحسم العديد من المعارك لصالحها، بعدما سخّرت الدروب والوديان والجبال لخدمة عملياتها، واتخذت من منطقة الشريط الحدودي،الذى يفصل بين الأراضى المصرية والفلسطينية، مظلة حماية استراتيجية، حيث يعد هذا الشريط منطقة ذات حساسية خاصة حسب بنود اتفاقية كامب ديفيد، إلا أنه تحول إلى مأوى للغالبية العظمى من العناصر الإرهابية، بحكم أنه منطقة تماس تخضع لحسابات دقيقة، قبل قيام أى عملية أمنية أو عسكرية بها، تلك العمليات التي تنتهي غالبًا بالتفخيخ، حيث كان الإرهابيون يستهدفونها، إما بزرع الألغام أو السيارات المفخخة.

كما بدأ القيادي الإرهابي في استهداف خطوط الغاز من جديد بعد الإطاحة بنظام الإخوان، بجانب الكمائن الثابتة لقوات الأمن التي تعرضت لإطلاق النار في هجمات عدة، خاصة كمين "الريسة" الذى تعرض لـــ٥٠ هجومًا، نجح منفذوها في الفرار مستخدمين الدروب الصحراوية والوديان،

بعد أن أطفأوا مصابيح السيارات وساروا بسرعة تفوق ١٢٠ كيلومترًا في الساعة على ضوء القمر، متخذين من استيعابهم لجغرافيا المنطقة سبيلًا للسيطرة على مجريات الأمور، لتتحول حرب القوات المسلحة على الإرهابيين إلى صراع بين ذي المعرفة ومالك القوة، فرغم التسليح الضعيف للجماعات الإرهابية، الذي لا يضاهي القوات المسلحة المتواجدة فى سيناء، إلا أنها استعاضت عنه بالتخطيط والتحرك، ما أكسبها مساحة من التفوق فى عدة مواجهات.

ووضع القيادي الإرهابي عدة خطط للضربات الاستباقية، التى كانت توجهها الجماعات المتطرفة لقوات الأمن، في نقاط تمركزها بمدن العريش والشيخ زويد ورفح، من خلال تخطيط دقيق يتشابه بقدر كبير مع العمليات التى تقوم بها منظمة "داعش" الإرهابية في سوريا والعراق، كما وجّه "مجدي" جماعته الإرهابية إلى استهداف أبناء سيناء المتعاونين مع الأجهزة الأمنية المصرية.

ودبر "مجدي" – عن بُعد – عدة كمائن لقوات الأمن، كان هدفها الأول كشف ناقلي المعلومات للأجهزة الأمنية، حيث ساهم في نقل معلومة لأحد المتعاونين المزدوجين، تؤكد عقد قيادات أنصار بيت المقدس اجتماعًا في أحد المنازل بقرية "التومة"، لتتوجه دورية تضم ٦ مدرعات إلى المكان، وبمجرد وصولها واقترابها من الهدف، انفجر المنزل الذي كان يحوي كميات كبيرة من المواد المتفجرة، لتكتشف القوة أنها وقعت في فخ نُصب لهم بمساعدة المتعاون، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد وجدت القوات سيارات الدفع الرباعى التى تستخدمها الجماعات المتطرفة، تحاصر

المدرعات، أثناء محاولتها نقل الجنود المصابين جراء الانفجار، وفي تلك اللحظة فتحت الجماعات نيرانها على القوة المحاصرة، التى اتخذت سبيلها بالصحراء هرباً من الفخ، ما تسبب في خسائر بشرية فادحة.

***

استمر "مجدي" في الإشراف على الجماعات الإرهابية، التابعة للإخوان في سيناء وخارجها، حتى تلقى أكبر صدمات حياته، قبل ساعات من إيقاظه المذيعة بسريرها المستفيض، بعدما فوجئ من نتائج التحاليل التي أجراها في إحدى معامل المملكة؛ بإصابته بمرض الإيدز، ليدخل في ثورة عارمة، دفعته إلى قضاء ليلة كاملة خارج محل إقامته مع الفتاة المثيرة، ضاربًا برأسه كل الجدران التي يقابلها في طريقه، وباحثًا بين سجل غزواته النسائية عن المرأة التي نقلت إليه المرض الخطير، ليوقن أنها "رانيا"، خاصة أنه لم يجامع غيرها منذ وصوله إلى الدويلة الصغيرة، بينما كانت المذيعة تبحث – كالعادة – بين ضيوف برامجها ورؤسائها المباشرين في "البصيرة"، عمن يطفئ توهجها، بعدما تخلى "مجدي" عن واجباته الجنسية، التى فرضتها عليه المذيعة فرضًا بصورة يومية، حتي تكون له وحده، وهو ما لم يستطع الإرهابي الوفاء به، رغم فحولته الفائقة؛ بسبب حصار المرض له بصورة مفاجئة، قبل أن يكتشفه، ليعجز عن معاشرتها كما عودها، ويقتصر جماعهما على مرتين أسبوعيًا.

وبعد نزولهما من العقار الفخم، فوجئت المذيعة بمرافقها الإرهابي يصطحبها إلى معمل للتحاليل، لتكشف النتيجة إصابتها بالمرض الخطير،

ويجذبها "مجدي" من شعرها إلى خارج المعمل، مرورًا بالدرج القصير، حتى فتح باب سيارته، ليلقي بها داخلها، سابًا إياها بكل الألفاظ التي تنطبق على فتيات الليل، حتى فوجئ مواطنو الدويلة الصغيرة المارون أسفل العقار - الذي يقيم فيه المريضان - بالقيادي الجهادي المعروف يُخرج المذيعة المشهورة من سيارته، ويوسعها ضربًا وسبابًا في الشارع، حتى صعدا إلى الشقة الفارهة في الطابق الثلاثين، لينتزع حاملة مفاتيحها من حقيبتها، ويوصد عليها الباب بمفتاحه، ويحذرها من اتخاذ أي إجراء يجبره على إنهاء حياتها.

وبعد دقائق من مغادرته الشقة، وصل "مجدي" إلى مقر "البصيرة"، ليطالب قيادات القناة بعقد اجتماع طارئ، ويبلغهم فيه بإصابة "رانيا" بالإيدز، لتسود حالة من الفزع قاعة الاجتماعات، خاصة بعدما تيقن عدد كبير من القيادات المجتمعة، أن الإصابة قد لحقت بهم بصورة حتمية، لاسيما مع مرور المذيعة على سرائرهم واحدًا تلو الآخر، ليسألوا "مجدي" عن مكانها، ويخرجوا على قلب رجل واحد من الاجتماع، باتجاه العقار الفخيم، لتفاجأ المذيعة التي انهارت على سريرها في حالة هيستيرية، بالجمع يدخل من باب الشقة في اتجاهها، يسبونها بكل الألفاظ، حتى وجدت "مجدي" يقف أمامها مخرجًا دفترًا للشيكات، مطالبًا إياها بتوقيعها على بياض، لتستجيب فى فزع تام.

وبعد توقيعها الشيكات، وجدت "رانيا" رجلين من قيادات القناة يحملانها إلى خارج الشقة، في اتجاه المصعد، ووراءهما باقي الجمع، ليخرجوا

من بابه في الطابق الأرضي، حاملين جسد المذيعة العاري، بعدما نزعوا ملابسها خلال رحلة النزول، وسط لكمات كانت تنهال على جسمها من كل صوب، ليلقوا بها عارية ببشرة زرقاء أمام البناية، ويفر كل منهم في اتجاه، تاركين المذيعة اللعوب تلطم على خديها، إلى أن استطاعت بأعجوبة القيام من الأرض، رامية جسدها العاري في إحدى السيارات، التي وقف قائدها عارضًا مساعدتها، لتوجهه "رانيا" بصوت لم يخل من النحيب، إلى منزل إحدى صديقتها من مذيعات نفس القناة.

وبعد أيام قليلة قضتها "رانيا" في منزل صديقتها، التي كانت قد دخلت في إجازة لمدة أسبوع من القناة، منعتها من معرفة سر العلقة الساخنة، التي تلقتها المذيعة الفاتنة، بعدما أرجعت الأخيرة إصابتها إلى مشاجرة مع زوجة أحد أمراء المملكة، على خلفية غيرتها الشديدة، بعدما لاحظت تقرب زوجها للحسناء، لتجمع عدة نسوة ويطرحنها أرضًا ويوسعنها ضربًا أسفل عقارها، قبل أن ينزعن ملابسها عنها.

لبت المذيعة الصديقة رغبة "رانيا" في مساعدتها على ترك الدويلة دون مشاكل، لتحجز لها على أول طائرة تغادر العاصمة، وتعود المريضة إلى شقتها الفاخرة بالقاهرة، قبل يومين من ذكرى استشهاد "عمر"، باحثة عن يد تعاونها في التغلب على المرض الخطير، لتجد ضالتها في "سمر"، وتقرر الذهاب إليها، لتلقى الطردة الشهيرة، ومن بعدها أحذية المصريين الثلاثة، التي قذفوها في وجهها أسفل منزل الطبيبة.

ورغم كل هذا، لم تخمد شهوة "رانيا"، لتنزل ليلًا إلى الشارع بسيارتها الفارهة، بحثًا عن رجل أو شاب أو حتى صبي يطفئ نار جسدها، غير عابئة

بمصيرهم بعد جماعها، إلى أن تعرّف إليها أحد الشباب، وعرض عليها الزواج قبل أول جماع بينهما، طامعًا في أموالها، بعد أن رأى مظاهر ثرائها الفاحش في أثاث شقتها الفخم، وسيارتها الفارهة، لتوافق "رانيا" على الزواج دون تردد، منبهة الشاب باستخدام الواقي الذكري، بدعوى عدم استعدادها للحمل، حيث تيقنت المذيعة أن زوجها المنتظر سيظل رفيقًا لها باقي أيامها المعدودة، لتقرر اتخاذ كل الاحتياطات كي لا تنقل العدوى إليه، خوفًا من أن تلقى على يديه ذات المصير، الذي لاقته مع "مجدي"، لتجد نفسها مضطرة إلى سؤال الطبيبة عن طرق وقاية زوجها من خطر جماعها.

***

فى العاشرة من صباح يوم "الفلانتين"، وصل باقي أفراد الرحلة إلى سفح الجبل، لتلحق بهم "سمر"، ويبدءون ركوب الجمال في اتجاه وادي الجبال، لتتذكر الحبيبة الثكلى أولى خطواتها برفقة "عمر" في الوادي، قبل عامين، عندما وصلا إليه بعد ساعة ونصف قطعاها على السنامين، ليجذب حبيبها يدها بهدوء، مساعدًا إياها فى النزول من فوق الجمل، ليسيرا نحو مكان "الجيولوجي" المفضل، في منتصف جبل "باب الدنيا"، ليصلا إليه بعد ساعتين من السير المتواصل، لم تشعر فيهما "سمر" بأي خوف، خاصة في ظل رؤيتها الطبيعة الساحرة، ومشاهد الصخور المغطاة بالثلوج، وسط الهواء النقي، المُفعم برياح المغامرة والمخاطرة، حتى وطأت أقدامهما المكان المنشود.

وجدت "سمر" نفسها وسط ساحة متسعة، تحيطها المرتفعات الملونة بالثليج، وفي وسطها هضبة صغيرة، طلب منها "عمر" الصعود إليها،

وإغلاق جفنيها في انتظار مفاجأة حضرّها لها، لتفتح الحبيبة عينيها على صيحة مرتفعة أطلقها عاشقها من أسفل الهضبة، وتجده قد كتب كلمة "بحبك" على الرمال، وزينها بالقلب الصخري، الذي استرده من والده "أيوب" بعد أن أهداه له عقب عودته من سانت كاترين إلى القاهرة، قبل نزوله إلى شارع محمد محمود، فى يوم اللقاء الأول للحبيبين.

وما أن وصلت "سمر" – برفقة أفراد الرحلة – إلى سفح جبل "باب الدنيا"، تاركين الجبال وراءهم، حتى هبت عاصفة ثلجية بشكل مفاجئ، جعلت نصف الفريق يتراجع عن استكمال رحلته، بينما أصر النصف الآخر – وبينهم العاشقة – على صعود الجبل، لتقاوم "سمر" الرياح العاتية، مخرجة وسادة "عمر" الصغيرة من حقيبة ظهرها، لتقربها إلى صدرها متدثرة من نوبات الصقيع الثلجي، حتى حوّلت الرطوبة الزائدة على الحد، الهواءَ إلى ثليج، لتفقد الفتاة الرؤية لمدة نصف ساعة، قضتها فى كوخ صغير لجأ إليه مرافقوها من أفراد الفريق، للوقاية من العاصفة، حتى هدأت الأجواء قليلًا، لتخرج في اتجاه المكان الخيالي لعاشقها، الذي تبقى للوصول إليه كيلومتر واحد، صعودًا بين وديان الجبل غير الممهدة، لتجاهد العاشقة فى سبيل بلوغه، غير عابئة بتحذيرات مرافقيها من الاستمرار في الصعود، حتى وجدت نفسها وحيدة بين الثلوج، بعد ساعة من السير المتواصل، لترى الهضبة الصغيرة على بعد قليل منها، إلا أن قدميها تعثرتا في إحدى الصخور، لتسقط غير قادرة على الوقوف، وتبقى نصف ساعة محتضنة وسادة "عمر"، وسط رؤية منعدمة.

وسرعان ما تيقنت "سمر" – لخبرها الطبية – من تأثر جسدها بالطقس العاصف، لتفقد القدرة على تحريك أطرافها، إلا أنها جاهدت في سبيل

الوصول إلى غايتها، لتحاول تحريك نفسها بذراعيها وقدميها معًا، حتى استطاعت الوقوف في مواجهة العاصفة من جديد، لتخطو ببطء شديد في اتجاه الهضبة، وتكون على موعد مع صخرة أخرى، تعثرت فيها لتسقط وسط الثليج، في ذات المكان، الذي كتب فيه "عمر" كلمة "بحبك"، وتصاب بجرح شديد في راحة يدها، إثر سقوطها على صخرة مدببة، لتبدأ في التزيف، وترى الدماء تتساقط على وسادة عاشقها، وسط عجز بدأ يصيب أطرافها من جديد، لتفقد القدرة على تحريك قدميها.

***

شعرت "سمر" بشبح الموت يحاصرها، وتهاوت على الأرض، ليرتمي جسدها على الوسادة، وتتناثر خصلات شعرها على ملامح "عمر"، لتجد نفسها تحاول جاهدة الإمساك بهاتفها، الذي خرج عن التغطية، وتقبض عليه بأصابعها شبه المتجمدة، محاولة الوصول إلى المقطع الصوتيّ النادر لـــ"عمر"، لتبدأ في تشغيله وقد أوشكت بطارية الهاتف على النفاد، وتستمع إلى كلماته، متأملة وجه حبيبها الراحل على الوسادة، وخصلات شعرها التي تنهمر على ملامح عاشقها، لترسم العاشقة الضالة بصعوبة ابتسامة على خديها، وقد عاد لذهنها المشهد الأخير، الذي جمعها به، بعد ساعات قليلة من وصولهما إلى ميدان التحرير، عصر "جمعة الخلاص"، قبل أن يلفظ حبيبها آخر أنفاسه في صدرها.

في هذا اليوم، ومع وصول الحشود الغاضبة إلى التحرير، تسلم "عمر" قيادة إحدى المسيرات الزاحفة نحو القصر الرئاسي بالاتحادية، هاتفًا "يسقط

يسقط حكم المرشد"، وعدة شعارات أخرى ألهبت حماس المشاركين، إلى أن بدأت المسيرة في الاتجاه نحو شارع رمسيس، لتتضاعف وتتضاعف، حتى وصلت إلى مسجد الفتح، وسط هتافات "الجيولوجي" الرافضة لبقاء قتلة شهداء أحداث الاتحادية في السلطة.

وقتها، أوقف "عمر" هتافاته عند مدخل ميدان العباسية، بينما كانت "سمر" تقف في أول صفوف المتظاهرين، منتهية من ترديد هتاف "ارحل"، الهتاف الأخير لحبيبها قائد المسيرة، قبل أن يستأذن المشاركين في الإعلان عن نبأ خاص، قائلًا: "جميع الثوار مدعوون لحضور عقد قراني غدًا في مسجد الفتح"، ليصعد صديقه "زياد" على كتف أحد أصدقائه المشاركين، مباركًا وهاتفًا: "باركوا يا ثوار، على زواج الأحرار"، لينظر "عمر" إلى "سمر" من أعلى نقطة في المسيرة، راسمًا بشفتيه كلمة "بحبك" أمام عينيها المتفاجئة، وتجاوبه الحبيبة برسمة مماثلة من شفتيها، ونظرة طفولية غير مستوعبة هول المشهد، تاركة وراءها ضحكة كُتب لها الموت، بمضي لحظات قليلة على خروجها للمرة الأولى من قلبها بإحساس ساحر، لم تتوقع "سمر" أنه سيتكرر أبدًا ما حيت، قبل أن يعاود "قائد المسيرة" سريعًا هتافاته، بعدما قدم الشكر على تهاني المشاركين، ليهتف بنداءات الثورة المصرية: "عيش، حرية، عدالة اجتماعية".

ومع إنهاء "عمر" هتافه الأخير، بدأت مناوشات أعضاء تنظيم الإخوان للمسيرة المعارضة داخل ميدان العباسية، بعدما رشقوا المتظاهرين بالحجارة، لينزل قائد المسيرة من أعلى كتف صديقه، راكضًا نحو مثيري الشغب، وبجواره "زياد" ثم العشرات من المتظاهرين، إلى أن نجحوا في صد الهجوم المباغت، ليعود إلى "سمر"، التي كانت تنظر بعينين أماهما القلق، لتستقبله

بوابل من النظرات الغاضبة، وتسأله: "إلى متى ستظل تغامر بحياتك؟!"، ويجاوب الحبيب بصوت حانٍ محاولًا إخماد ثورتها، قائلًا: "إلى أن أموت في حبك"، لترد بغضب تصاعدت حدته: "وماذا أفعل بعدك؟!"، لتلمع عيناه وهو يقول: "سأنتظرك في العالم الآخر"، لتسأله بصوت ثائر: "الأيام ستحرمنا من اللقاء في الدنيا، فكيف يكتب لنا في الآخرة؟"، وبعد لحظة صمت أجاب "عمر" بجملة واحدة، بعدما ساد اليقين وجهه، قائلًا: "المرء يحشر مع من أحب"!

أنهى العاشق كلماته وهو يرى ملامح "سمر" تُخفي فزعًا لا يزال ينتابها، مع رؤيتها أعضاء تنظيم الإخوان يعودون إلى الميدان، وبحوزتهم صناديق كاملة ملأتها الزجاجات الحارقة، وبعضهم يرتدي أقنعة سوداء، إلى أن نظر "عمر" إلى حيث ذهبت عيون عاشقته الثائرة، ليتركها مهرولًا إلى الصفوف الأمامية لجبهة التراشق بالحجارة والمولوتوف، بعد أن طالبها بعدم الخضوع لقلقها المميت، وما أن التقط "عمر" حجرين من أرض المعركة، ناظرًا إلى عيني حبيبته بابتسامة حانية، عله يخرجها من فزعها، حتى خرجت صرخة من العاشقة على دوي رصاصة اخترقت رأس "عمر"، ليلتف جسده في دائرة كاملة، قبل أن ترتطم رأسه بساحة المعركة مكونًا بركة من الدماء، لتصرخ الحبيبة الطبيبة، وهي تركض نحوه: "عمرررررر".

نزلت الحبيبة المنهارة بركبتيها وسط دماء عاشقها، تتأمل ملامح وجهه المبتسمة، ناظرة إلى عينيه المتسعتين، باسطة قبضتها على صدره، في محاولة لإنعاش دقات قلبه المغادرة، لتضغط بقوة صارخة بجملة واحدة: "ما تسيبنيش يا عمر"، وهي الصرخة التي أنهت يأس "سمر" القاتل، بإغماءة

سقطت على أثرها فوق صدر حبيبها القتيل، لتغطي خصلات شعرها، ملامحه الدامية، وهو المشهد الأخير الذي التقطته ذاكرة الحبيبة الثكلى، قبل أن تتحول الإغماءة إلى غيبوبة استمرت ٥ أيام.

***

ابتسمت "سمر"، وهي تحتضن وسادة "عمر" بشدة، سامعة صوته في أذنيها، وسط الثلوج، بعدما رأت الموت يقترب منها، فبخبرة الطبيبة أيقنت أن درجة حرارة جسدها بدأت تقترب من حاجز الـــ٣٥ درجة مئوية، التي يفقد بعدها البشر حياهم، إلا أن فكرة واحدة كانت تسيطر على ذهنها، وهي ملقاة على الأرض، إذ كانت رغبتها الوحيدة تنصب في تنفيذ الوعد، الذي قطعه "عمر" على نفسه بإهداء "الحب فى زمن الثورة"، بأن يجد نهاية تفوق جملة "مدى الحياة" في سعادهما وأملها، لتجد "سمر" الجملة المفقودة، وهم بيدها، التي كانت تتحرك بصعوبة، لتضع الحقيبة أسفلها بيد واحدة، وتحاول باستماته إخراج اللوحة، التي أهداها إليها والدها "كامل" قبل سفرها.

ومع فشل أنامل "سمر" المتجمدة في التقاط اللوحة، حاولت الحبيبة جاهدة مد شفتيها المرتجفتين إلى الحقيبة، لتقبض على اللوحة بأسنانها، وتنجح في التقاطها وإخرجها بالكامل، وقد وجدت نهاية لقصة حبها الأبدي، تفوق سعادهما "مدى الحياة"، لتستسلم لمصيرها، متأهبة للقاء عاشقها في العالم الآخر، وترسم ضحكة على وجنتيها بذات الإحساس الساحر، الذي لم تتوقع أنه سيتكرر أبدًا ما حيت، بعدما شعرت باقتراب

موعد الحشر مع من تحب، لتحاول - بكل ما أوتيت من قوة وسط الثلوج - مد يدها الملطخة بالدماء إلى اللوحة، وتضع راحتها أسفل ملامح "عمر"، وتكتب بدمائها:

- "إلى ما بعد الموت".

تمت